«موليش، واحد من أعظم الكتّاب
الأوروبيين المعاصرين»
«الجارديان»

الاعتداء

رواية

هاري موليش



الأعمال الكاملة

أهم جروبات علي تليجرام

باحثون

هنا سور الأزبكية

غواص في بحر الكتب

قناة مصر الثقافية و الفنية

الاعتداء

هاري موليش

الاعتداء

رواية

ترجمتها عن الهولندية
أمينة عابد





الكرمة

لمزيد من المعلومات عن الكرمة : facebook.com/alkarmabooks

العنوان الأصلي: De aanslag

Vertaald door Amina Abed

نشر هذا الكتاب بالاتفاق مع De Bezige Bij

وبدعم كريم من «المؤسسة الهولندية لدعم الأدب»

Nederlands letterenfonds
dutch foundation for literature

موليش، هاري.
الاعتداء: رواية / هاري موليش؛ ترجمة أمينة عابد – القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠١٧.
٢٩٦ ص؛ ٢٠ سم
تدمك: 9789776467712
١ - القصص الهولندية.
أ - عابد، أمينة (مترجم).
ب - العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٧ / ١٤٨١١

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: أحمد عاطف مجاهد

صورة الغلاف: جثة فاكه كريست، الذي اغتيل في عملية للمقاومة في شارع «فيستر جراخت»
٢٥ أكتوبر ١٩٤٤، مصور مجهول، «أرشيف شمال هولندا»، «هارلم» NL-HlmNHA_Hrtw_23905

النهار بازغ في كل مكان، لكن الليل جاثم هنا. كلَّا، إنه أكثر من ليل.

«جايوس بلينيوس كاسيليوس الثاني»

«رسائل» ٦، ١٦



مدخل

في زمن بعيد بعيد، أثناء الحرب العالمية الثانية، كان هناك صبي اسمه «أنطون ستينفايك»، يعيش مع والديه وشقيقه على أطراف مدينة «هارلم». على رصيف يمتد مائة متر على طول قناة مائية ثم يصبح، بانعطاف طفيف، شارعًا عاديًا، كانت تقوم أربعة منازل بعضها غير بعيد عن بعض. كان كل منها محاطًا بحديقة، وكانت شرفاتها الصغيرة ونوافذها البارزة وسطوحها المائلة تضفي عليها مظهر الفيلّات، مع أنها أقرب إلى الصغر منها إلى الكبر، وغرف طوابقها العلوية جميعها لها جدران مائلة. كانت تفتقر إلى الدهان وتميل بعض الشيء إلى التداعي، إذ إنه حتى في سنوات الثلاثينيات لم تُجرَ عليها إصلاحات تُذكر. كان كل منها يحمل اسمًا بورجوازيًا مهذبًا ينحدر من أيام الطمأنينة:

«قصر النعيم» «فوق الخيال» «خالي الهموم» «موقع ممتاز»

كان «أنطون» يقيم في المنزل الثاني من اليسار، ذي السطح المصنوع من الخيزران. لو أن هذا المنزل لم يكن يُسمى بهذا الاسم

عندما استأجره والداه قبيل الحرب، لسماه والده بـ«إلوثيريا» (الحرية) أو باسم من هذا القبيل، وكتبه بالحروف اليونانية. حتى قبل وقوع الفاجعة، لم يفهم «أنطون» اسم «خالي الهموم» على أنه المنزل الذي يخلو من الهموم، بل المنزل الذي يخلو من كل شيء ما عدا الهموم. كما أنه لم يكن يفهم عبارة «خارج المألوف» على أنها الشيء غير المألوف، بل الشيء المألوف خارج المنزل.

في منزل «موقع ممتاز» كان يقيم السيد «بويمر» وزوجته، وهو محامٍ متقاعد ومتوعك الصحة. في بعض الأحيان كان «أنطون» يتردد عليهما، فيقدمان له كوبًا من الشاي ونوعًا من الكعك يسميانه «كاكيه»، هذا عندما كان يوجد شاي وكعك، أي قبل بدء هذه الحكاية التي هي حكاية حادثة. وكان السيد «بويمر» يقرأ له أحيانًا فصلًا من رواية «الفرسان الثلاثة». أما السيد «كورتيفيخ»، الجار الساكن على الطرف الآخر، في منزل «فوق الخيال»، فكان قائد سفينة في الملاحة التجارية، لكن الحرب اضطرته إلى البطالة. بعد وفاة زوجته، عادت ابنته «كارين»، الممرضة، وعاشت معه في منزله. كان «أنطون» يزور هذا المنزل أيضًا في بعض الأحيان، عن طريق فجوة في سياج الحديقة الخلفية، فتعامله «كارين» دائمًا معاملة طيبة، أما والدها فلا يلقي إليه بالًا. لم يكن القاطنون على هذا الرصيف يعاشر بعضهم بعضًا معاشرة وثيقة، ولكن أكثرهم انزواءً كان السيد «آرتس» وزوجته اللذان يسكنان في منزل «قصر النعيم» منذ بداية الحرب. كان يُعتقد أن الرجل يعمل في شركة تأمين، ولكن حتى ذلك لم يكن مؤكدًا.

يبدو أن الغاية من بناء هذه المنازل الأربعة كانت تشييد حي جديد، بيد أن الحي الجديد لم يعرف سبيله إلى الاكتمال، فإلى جانبها وعلى جهتها الخلفية، تمتد أرض بور تنتشر فيها أعشاب برية وشجيرات صغيرة وكذلك أشجار خلت عليها السنون. هناك، على تلك الأرض، كان «أنطون» يقضي وقتًا طويلًا في التسكع، وكذلك كان الأولاد الساكنون في الأحياء المجاورة يأتون للعب واللهو. أحيانًا، في ضوء الغسق، عندما كانت والدته تنسى أن تناديه إلى البيت، كان ينبعث من حوله صمت ذو رائحة عطرة، يفعم قلبه بتوقعات لا يعرف طبيعتها على وجه الدقة. شيء له علاقة بالمستقبل، عندما يكبر، ستحدث أشياء، مثل هذه الأرض الساكنة، وأوراق الشجر، والعصفورين اللذين يتجولان فجأة وهما يزقزقان. ستكون الحياة مثل هذه المساءات التي يُنسى فيها، ومثل هذا الغموض وهذه اللانهائية.

كان الطريق على الجهة الأمامية من هذه المنازل مبلطًا بشكل هندسي متموج. كان هذا الشارع يفتقر إلى رصيف ويتماهى في ضفة خضراء تنحدر انحدارًا طفيفًا إلى درب الملاحين الموازي للقناة، ما يجعلها مكانًا مريحًا لأن يتمدد المرء على ظهره. أما على الجهة المقابلة من القناة العريضة ـ التي يدل تعرجها الخفيف وحده على أنها كانت نهرًا في يوم من الأيام ـ فتقوم بضعة منازل ريفية وبضع مزارع صغيرة، تترامى خلفها المروج حتى الأفق. وفيما وراءها تقع أمستردام. أخبره والده أنه قبل اندلاع الحرب، كان باستطاعة المرء أن يرى في الليل أضواء المدينة منعكسة على الغيوم. لقد تردد «أنطون» عليها بضع مرات، وزار فيها حديقة الحيوانات «آرتيس» ومتحف

«رايكزا»، وزار خاله حيث نام ليلة في منزله. أما على اليمين، عند أحد انعطافات المياه، فتنتصب طاحونة هوائية لا تدور قط.

كان «أنطون» حين يستلقي على الضفة الخضراء ويحدق في البعيد، يضطر أحيانًا إلى سحب ساقيه، إذ يرى على درب الملاحين الموطوء كثيرًا، رجلًا يقترب منه وكأنه قادم مباشرة من القرون الماضية: ملاحًا منحنيًا على عصا طويلة مثبت طرفها الآخر على مقدمة قارب، يدفعه بها عبر المياه بخطوات متثاقلة. ووراء الدفة تقف عادة امرأة مرتدية مريلة، وضامة شعرها في عقدة، بينما يلعب طفلها على سطح القارب. كانت العصا تُستعمل أيضًا بطريقة أخرى، فيقف الرجل نفسه في هذه الحالة فوق القارب، يسير على حافة سطحه إلى الأمام ساحبًا العصا وراءه عبر المياه، وما إن يبلغ مقدمة القارب حتى يغرز العصا على نحو مائل في قاع القناة، ويمسك بها ويعود إلى الخلف، فيدفع بذلك القارب إلى الأمام. كان هذا المشهد من أجمل المشاهد التي يراها «أنطون»: رجل يسير إلى الوراء ليدفع شيئًا إلى الأمام، ويبقى في الوقت نفسه في المكان ذاته. كان يراه شيئًا غريبًا إلى أقصى حد، لكنه لم يكن يتحدث عنه مع أحد. كان ذلك سره. فيما بعد، عندما وصف هذا المشهد لأولاده، أدرك في أي زمن قد عاش، فمثل تلك الأشياء لم تكن تُشاهد حينذاك إلا في الأفلام عن أفريقيا وآسيا.

كانت السفن الشراعية تمر من هناك بضع مرات في اليوم: سفن عملاقة ملأى بالحمولة، لها أشرعة بلون بني غامق، تظهر بهدوء عند المنعطف، تسير بهيبة بتأثير الرياح غير المرئية، وتختفي في

المنعطف التالي. أما السفن ذات المحركات الآلية فكان أمرها مختلفًا، فقد كانت تمخر عباب المياه مشكِّلة حرف «V» الذي يأخذ في الاتساع حتى يصل إلى جدار الرصيف على الجانبين: هناك تأخذ المياه بالتلاطم فجأة، على الرغم من أن السفينة قد ابتعدت جدًّا، ثم ترتد مشكِّلة حرف «V» المعكوس، حرف «لامدا» اليوناني، الذي يأخذ في الانغلاق ويتداخل مع حرف «V» الأصلي، فيصل مشوهًا إلى جدار الرصيف المقابل، وهكذا، يرتد من جديد حتى تنشأ على عرض المياه كله ضفائر معقدة من الأمواج، تتعرض إلى تغيرات جمَّة خلال دقائق عديدة، قبل أن تهدأ أخيرًا وتصبح ملساء.

كان «أنطون»، في كل مرة، يحاول أن يفهم كيف تحدث هذه العملية على وجه الدقة، ولكن في كل مرة كانت العوامل المؤدية إلى حدوثها تتضاعف وتتحول إلى نموذج يعجز عن استيعابه.

الجزء الأول

١٩٤٥

١

كانت الساعة تشير إلى نحو السابعة والنصف مساءً. كانت المدفأة قد اشتعلت عدة ساعات بهدوء على قليل من الحطب، لكنها الآن قد انطفأت من جديد. جلس «أنطون» مع والديه و«بيتر» حول الطاولة في الغرفة الخلفية. فوق طبق صغير كانت تقوم أسطوانة من التوتياء بحجم أصيص الزهر، يبرز من جهتها العلوية أنبوب رفيع منشطر إلى شطرين مثل حرف «Y»، وكل من الشطرين ينتهي بثقب صغير يخرج منه لهب حاد، أبيض، مبهر للبصر، ويتصاعد بميل في اتجاه الآخر. هذا المصباح يبعث ضوءه الشاحب في الغرفة التي يتراءى في ظلالها الحادة الغسيل المنشور، المرتَّق مرات عديدة، وأدوات المطبخ، وأكداس القمصان غير المكوية، و«صندوق التبن» لحفظ الطعام دافئًا، وكذلك نوعان من الكتب جيء بهما من مكتب والده: الصف المرصوص على خزانة البوفيه من أجل القراءة، أما الروايات المكدسة على الأرض فمن أجل إشعال المدفأة الصغيرة التي يُطبخ عليها، إذا وُجد شيء يُطبخ، فالجرائد متوقفة عن الصدور منذ شهور

عديدة. كانت الحياة اليومية كلها، ما عدا النوم، تُعاش في غرفة الطعام سابقًا. كان بابها الجرار مغلقًا، وتقع خلفه، على جهة الشارع، غرفة الجلوس التي لم يطؤوها طيلة فصل الشتاء. لكي يمنعوا البرد من الدخول قدر الإمكان، كانوا يتركون ستائرها مسدلة أثناء النهار أيضًا، فيبدو المنزل للناظر إليه من رصيف القناة أنه غير مسكون.

كان الشهر شهر يناير عام ١٩٤٥. كانت أوروبا بأسرها تقريبًا قد تحررت، وتحتفل بتحريرها، وتأكل، وتشرب، وتمارس الحب، وتنسى الحرب شيئًا فشيئًا، أما «هارلم» فكانت تتحول يومًا بعد يوم إلى رماد أشهب، مثل الرماد الذي كان يخرج من المدفأة أيام وجود الفحم.

كانت والدته قد وضعت أمامها على الطاولة كنزة من الصوف الأزرق الداكن، وقد اختفى نصفها. كانت تمسك في يدها اليسرى كبة صوف تزداد في الحجم، وهي تلف عليها بيدها اليمنى خيط الكنزة بسرعة. أخذ «أنطون» يردد بصره بين الخيط الصوفي ـ المسرع جيئة وذهابًا، مسببًا اختفاء الكنزة من الوجود ـ والكنزة بكميها الممدودين ـ وهي تتحول إلى كرة صوف ـ مثل شخص يريد أن يمنع حدوث شيء ما. حين ابتسمت له والدته، نظر في كتابه من جديد. كانت ضفيرتا شعرها الأشقر الملفوفتان على صدغيها تبدوان مثل صدفتي «الأمونيت». بين الفينة والأخرى كانت تتوقف عن عملها وتأخذ رشفة من «بديل الشاي» البارد الذي أعدته بمياه الثلج من الحديقة الخلفية. صحيح أن مياه الشبكة ليست مقطوعة، لكنها متجمدة في الأنابيب. كانت والدته تعاني من نخر في ضرسها لا يمكن علاجه

في الوقت الحالي، لذلك حذت حذو جدتها فوضعت القرنفل في المكان المنخور لتسكين الألم، بعد أن عثرت على بضع بذور منه في المطبخ. على قدر ما كانت مستوية في جلوسها، كان زوجها الجالس قبالتها منحنيًا على قراءة كتاب. كان شعره الداكن الأشيب يحفُّ برأسه الأصلع مثل حدوة الفرس، وبين الحين والآخر ينفخ في يديه اللتين كانتا ضخمتين وغليظتين، مع أنه ليس عاملًا، بل سكرتير في المحكمة الابتدائية.

كان «أنطون» قد لبس ثياب أخيه التي صغرت عليه، وارتدى «بيتر» بدوره بدلة سوداء فضفاضة من بدلات أبيه. كان «بيتر» يبلغ السابعة عشرة من عمره، ولأنه كبر فجأة في الوقت الذي كان الطعام يقل فيه ويندر، كانت قامته تبدو وكأنها مكونة من ألواح من خشب الصنوبر. كان يؤدي واجباته المدرسية. منذ بضعة شهور لم يكن قد خرج إلى الشارع، فقد بلغ من العمر ما يعرضه للاعتقال أثناء الغارات من أجل إرساله للعمل الإجباري في ألمانيا. لقد رسب سنتين من سنوات الدراسة، لذلك هو لا يزال في السنة الأولى من الدراسة الثانوية، ويتلقى دروسًا خصوصية من والده مع واجبات وخلافه، كي لا يتأخر في دراسته أكثر مما هو متأخر. كان الشقيقان لا يشبه أحدهما الآخر، شأنهما في ذلك شأن والديهما. هناك من الأزواج من يشبه أحدهما الآخر شبهًا كاملًا، (وهذا قد يعني أن الزوجة تشبه والدة الزوج، وأن الزوج يشبه والد الزوجة أو يكون الشبه أعقد من ذلك، وهذا هو الأكثر احتمالًا)، بيد أن أسرة «ستينفايك» تتكون من قسمين متباينين: لقد ورث «بيتر» شعره الأشقر وعينيه الزرقاوين من

والدته، وأخذ «أنطون» شعره الأسود وعينيه الداكنتين عن والده، وكذلك البشرة الحنطية التي تزيد سمرة حول العينين. لم يكن هو الآخر يذهب في ذلك الوقت إلى المدرسة. كان في السنة الأولى من الدراسة الإعدادية، لكن بسبب عدم وجود الفحم، أُطيلت عطلة أعياد الميلاد حتى انتهاء فترة الصقيع.

كان جائعًا، لكنه يعرف أنه لن يحصل على رغيف خبز رمادي لزج، مدهون بدبس الشوندر السكري، إلا في صباح اليوم التالي. في عصر ذلك اليوم، وقف ساعة كاملة في الطابور الممتد أمام المطبخ المركزي في روضة الأطفال. لم تصل العربة اليدوية المحملة بالقدور إلى الشارع إلا بعد أن حل الظلام، وكانت تحت حراسة شرطي ببندقية على ظهره. بعد أن قطعوا بطاقاته التموينية، سكبوا له أربع مغارف من حساء سائل خفيف في وعائه الذي كان قد أخذه معه. في الطريق إلى البيت عبر الأراضي الوعرة، لم يتناول إلا القليل من ذلك المرق الحامض الدافئ. من حسن الحظ كان يوشك على الذهاب إلى النوم، ففي أحلامه يعم السلام دائمًا.

لم يكن أحد منهم يتكلم، ولم يكن يُسمع أي صوت من خارج المنزل. الحرب موجودة منذ الأزل ومستمرة إلى الأبد. ولا يوجد راديو، ولا تلفون، ولا أي شيء. كان أزيز خفيف يصدر عن اللهب، وبين الحين والآخر فرقعات خفيفة. كان «أنطون» قد تلفع بشال صوفي، ووضع قدميه في مدفّئ أقدام صنعته والدته من حقيبة مشتريات قديمة، ويقرأ مقالًا في مجلد «الطبيعة والتكنولوجيا». في عيد ميلاده أهدي إليه هذا المجلد المستعمل من إصدارات سنة

١٩٣٨. المقال بعنوان «رسالة إلى أحفادنا». وفي الصورة تقف جماعة من الأمريكان الناجحين وقد خلعوا ستراتهم وشخصوا أبصارهم إلى أنبوب كبير لامع على شكل «طوربيد»، يتدلى عموديًا فوق رؤوسهم، في انتظار إنزاله إلى عمق خمسة عشر مترًا تحت سطح الأرض. بعد أن تمضي خمسة آلاف سنة، سيقوم الأحفاد بفتح هذا الأنبوب ليأخذوا فكرة عن الحضارة الإنسانية، وذلك في المعرض الدولي في نيويورك. يحتوي هذا الأنبوب، المصنوع من معدن «الكوبالوي» فائق الصلابة، على أسطوانة من زجاج مضاد للاحتراق ملأى بمئات الأشياء: أرشيف مصغر يتضمن حالة العلوم والتكنولوجيا والفنون في عشرة ملايين كلمة وألف صورة، وجرائد، وكتالوجات، وروايات مشهورة، والكتاب المقدس طبعًا، و«الصلاة الربانية» بثلاثمائة لغة، ورسالات الرجال العظام، ولكن أيضًا أفلام فيديو عن القصف الياباني الفظيع لمدينة «كوانجو» الصينية عام ١٩٣٧، وبذور، ومقبس كهربائي، ومسطرة حاسبة، وكل الأشياء الأخرى الممكنة، حتى قبعة نسائية من موضة خريف عام ١٩٣٨. كانت جميع المكتبات العامة والمتاحف المهمة في العالم قد استلمت وثيقة حُدد فيها مكان «البئر الأزلية» التي سُدت فوهتها بالأسمنت، في سبيل أن يُعثر عليها في القرن السبعين. تساءل «أنطون» فيما بينه وبين نفسه: ولكن لماذا يجب الانتظار حتى سنة ٦٩٣٨؟ ألا يمكن أن يكون فتحها ممتعًا قبل ذلك الوقت؟

- بابا! كم تعادل خمسة آلاف سنة ماضية؟

أجاب السيد «ستيفانيك» من دون أن يرفع عينيه عن كتابه:

ـ خمسة آلاف سنة بالضبط.
ـ اعرف هذا، ولكن هل كان في ذلك الوقت... أعني...
ـ قل ما تعنيه إذن.
ـ آه، أعني هل كان للناس، مثل الآن...
فسألته والدته:
ـ حضارة؟
ـ أجل.
فقال لها السيد «ستيفايك» وهو يرمقها بنظرة من فوق نظارته:
ـ لماذا لا تتركين الولد يصوغ كلامه بنفسه؟
ثم لـ«أنطون»:
ـ كانت الحضارة ما تزال بدائية في ذلك الوقت. كانت موجودة في مصر، وفي بلاد ما بين الرافدين. ولكن لماذا تسأل؟
ـ لأنه مكتوب هنا أنه بعد...
هتف «بيتر» وهو يستوي واقفًا من فوق قاموسه وقواعده:
ـ انتهى!
ودفع الدفتر نحو والده، وجاء ووقف بجانب «أنطون»:
ـ ماذا تقرأ؟
أجاب «أنطون» وهو يغطي كتابه بصدره وذراعيه المتصالبتين:
ـ لا شيء.
فقالت والدته وهي تدفعه لينتصب بقامته:
ـ لا تفعل هذا يا «طوني».
ـ هو أيضًا لا يسمح لي برؤية أي شيء له.

فقال «بيتر»:

ـ كذاب وقذر يا «أنطون موسيرت».

فردَّ عليه «أنطون» بأن ضغط على أنفه وراح يغني:

لأنني وُلدت عاثر الحظ

سأموت عاثر الحظ أيضًا

صاح السيد «ستيفايك» ضاربًا الطاولة براحة يده:

ـ كفى!

لأن اسمه «أنطون»، مثل اسم رئيس الحركة النازية «أنطون موسيرت»، كان يتعرض كثيرًا لمضايقات. في فترة الحرب، كان الفاشيون غالبًا ما يسمون أبناءهم «أنطون» أو «أدولف»، وحتى أحيانًا «أنطون أدولف»، كما كان يتبين من إعلاناتهم عن الولادات المنشورة بافتخار تحت رموز الفاشية مثل مصيدة الذئاب أو الأحرف الرونية. فيما بعد، كان «أنطون» إذا التقى بشخص يحمل أحد هذين الاسمين، أو يلقب بـ«طون» أو «دولف»، ظن أنه ولد أثناء الحرب، وإذا صح ظنه، عَلم عِلم اليقين أن والديه كانا ضالين ضلالًا ليس باليسير. بعد مضي عشر سنوات أو خمس عشرة سنة على الحرب، عاد اسم «أنطون» إلى التداول من جديد، الأمر الذي دلَّ على قلة أهمية «أنطون موسيرت». أما اسم «أدولف» فلم يعرف طريقه إلى القبول أبدًا. فقط حين يظهر أناس يدعون «أدولف» من جديد سنكون قد تخطينا فعلًا الحرب العالمية الثانية، لكن ليحدث هذا يجب أولًا أن تنشب حرب عالمية ثالثة، ما يعني أننا انتهينا إلى الأبد من اسم «أدولف». كما أن الأغنية التي غناها «أنطون» كهجوم مضاد على

«بيتر» لا يمكن فهمها اليوم من دون شرح: كان الفنان الكوميدي ذو الاسم المستعار «بيتر عاثر الحظ» يغنيها من أنفه في الراديو، عندما كان اقتناء الراديو مسموحًا به. لكن ثمة أشياء كثيرة أخرى لم تعد مفهومة اليوم، ولا سيما لـ«أنطون» نفسه.

قال السيد «ستيفايك» لـ«بيتر» وهو يأخذ الدفتر بين يديه:

ـ تعال اجلس بجانبي!

وأخذ يقرأ ترجمته بصوت رزين:

ـ «ومثل الأنهار الجبلي بمياه الأمطار والثلوج، المندفعة من فوق المرتفعات إلى حوض الوادي، حين التقائها بالمياه الغزيرة، المتدفقة من الينابيع الوفيرة، في قاعها المقعر ـ ومن مكان بعيد على الجبال يسمع الراعي هدير التقائها الغامض ـ هكذا كان يُسمع الصراخ وصوت القتال الضاري بين الجنود المشتبكين وجهًا لوجه في المعركة...» يا له من تصوير رائع!

قال السيد «ستيفايك» ذلك وهو يتكئ إلى ظهر المقعد وينزع نظارته عن عينيه.

قال «بيتر»:

ـ طبعًا، رائع! ولا سيما إذا قضيت ساعة ونصف الساعة في ترجمة هذه الجملة الجهنمية.

ـ ترجمتها تستحق يومًا كاملًا. انظر كيف يستحضر الطبيعة، ولكن بطريقة موازية، في التشبيه. هل لاحظت ذلك؟ فالذي يبقى في ذاكرتك ليس أولئك الجنود المتقاتلين، بل ذلك المشهد الطبيعي الذي ما زال موجودًا إلى الآن. تلك المعركة انتهت،

أما تلك الأنهار فما تزال باقية، وما زال بإمكانك سماع هديرها، لذلك أنت ذلك الراعي. إنه كأنما يريد أن يقول إن الحياة كلها هي مقارنة بحكاية أخرى، والغاية من هذه المقارنة هي معرفة الحكاية الأخرى.

قال «بيتر»:

ـ والحكاية الأخرى هي الحرب طبعًا!

تظاهر السيد «ستيفانيك» بعدم سماعه.

ـ أحسنت يا بني! لم ترتكب سوى خطأ واحد وهو: ليست «الأنهار» هي التي يلتقي بعضها بعضًا بل هما «نهران».

ـ أين يوجد هذا؟

ـ هنا: هذه علامة التثنية، وهي تدل على شيئين يلتقي أحدهما الآخر، شيئين اثنين، وعندئذ يصح تشبيههما بالجيشين. هذا أسلوب يتميز به «هوميروس» عن سواه. تذكر «علامة المثنى»، مثل: «يجتمعان» و«يلتقيان». هل تعرف ماذا كانت «العلامة»؟

أجاب «بيتر»:

ـ لا.

ودلت نبرته على أنه لا يريد أن يعرف أيضًا.

سأل «أنطون»:

ـ ماذا كانت يا أبي؟

ـ كانت حجرًا يفلقونه إلى نصفين. لنفترض أنني قضيت ليلة في مدينة أخرى، وسألت مضيفي هل يريد أن يستقبلك أنت أيضًا، ولكن كيف له أن يعرف أنك ابني فعلًا؟ لكي يعرف

ذلك نصنع «علامة»، فيحتفظ هو بالنصف الأول وأنا أعطيك النصف الآخر حين عودتي إلى البيت. فإذا ذهبت إليه، تطابق النصفان تطابقًا كاملًا.

قال «أنطون»:

ـ إنها فكرة رائعة، سأجربها ذات مرة!

تحول «بيتر» عنهما في تذمر.

ـ لماذا، بحق السماء، يجب أن أتعلم كل هذا؟

أجاب السيد «ستيفايك» وهو ينظر إليه من فوق نظارته:

ـ ليس بحق السماء، إنما بحق الإنسانية. لسوف ترى في حياتك القادمة كم من سعادة عظيمة ستجنيها من هذه المعرفة.

أغلق «بيتر» كتبه، ووضع بعضها فوق بعض، وقال بنبرة غريبة:

ـ من يشاهد الناس، لا يستطيع إلا أن يضحك!

فسألته والدته:

ـ ماذا تقصد يا «بيتر»؟

ودفعت بلسانها القرنفل إلى مكانه.

ـ لا شيء.

قال السيد «ستيفايك»:

ـ أخشى أنه لا يقصد شيئًا.

ثم باللاتينية:

ـ يبقى الأطفال أطفالًا، ولا يملكون أن يتصرفوا إلا كالأطفال.

كانت الكثرة قد اختفت، فوضعت السيدة «ستيفايك» كبة الصوف في سلة الخياطة.

ـ هيا! دعونا نلعب قليلًا قبل الذهاب إلى النوم.

قال «بيتر»:

ـ أيجب أن نذهب الآن إلى النوم؟!

ـ يجب أن نتقشف في غاز المصباح، فما لدينا منه يكفي لبضعة أيام فقط.

أخرجت السيدة «ستيفايك» صندوق لعبة «اللودو» من درج الخزانة، وأزاحت المصباح إلى جانب، وبسطت لوحة اللعبة على الطاولة.

قال «أنطون»:

ـ أريد أن ألعب بالبيادق الخضراء.

فنظر إليه «بيتر» وأشار إلى جبينه:

ـ أتعتقد أنك ستربح، إن لعبت بالبيادق الخضراء؟

ـ أجل.

ـ سوف نرى!

وضع السيد «ستيفايك» كتابه مفتوحًا إلى جانبه. وبعد مضي برهة قصيرة، لم يكن يُسمع شيء سوى صوت ارتطام حجر الزهر باللوحة ووقع حركات البيادق عليها. كانت الساعة تقارب الثامنة: وقت حظر التجوال. وكان صمت مطبق قد ساد الشارع، مثل الصمت الذي لا بد أن يكون سائدًا على سطح القمر.

٢

في ذلك الصمت المعبر عن الحرب في هولندا، يُسمع من الشارع فجأة دوي ست طلقات: في البداية طلقة واحدة، ثم طلقتان متتاليتان، وبعد بضع ثوان طلقة رابعة فخامسة، وبعد برهة قصيرة صرخة، ثم طلقة سادسة. يتسمر «أنطون» الذي يهم بإلقاء حجر الزهر، وينظر إلى والدته، فتنظر والدته إلى والده، فينظر والده إلى الباب الجرار، أما «بيتر» فيرفع غطاء مصباح الغاز ويضعه على اللهب.

في طرفة عين تغرق الغرفة في الظلام. قام «بيتر»، واتجه بخطى مضطربة صوب الباب الجرار. فتح الباب، وراح يسترق النظر من خلال شق في ستائر النافذة البارزة. على الفور اندفع برد قارس ذو رائحة عفنة من الصالون إلى الغرفة.

قال:

ـ لقد قتلوا شخصًا! هناك شخص منطرح على الأرض!

وهرول إلى الممر.

فنادت والدته:

ـ «بيتر»!

سمعها «أنطون» وهي تجري في أعقابه، فوثب هو الآخر واقفًا، وركض نحو النافذة البارزة، متفاديًا الاصطدام بالأثاث الذي لم يره منذ شهور ولا يراه الآن أيضًا: المقاعد الوثيرة، والطاولة المستديرة المنخفضة، بمفرش الدانتيلًا تحت لوحتها الزجاجية، وخزانة البوفيه الموضوع فوقها الطبق الخزفي وصورتا جدَّيه. كانت الستائر ورف النافذة والأشياء كلها باردة برودة الثلج، ولكن أزهار الصقيع لم تكن قد تشكلت على الشبابيك، إذ إن الغرفة لم يتنفس فيها أحد منذ أمد بعيد. كانت ليلة غير مقمرة، لكن الثلج المتحول إلى جليد كان ينضح بضوء النجوم. في البداية ظن «أنطون» أن «بيتر» هذر بكلام لا معنى له، لكنه ما إن بلغ النافذة البارزة حتى رأى الحادث من خلال قسمها الأيسر.

وسط الشارع المهجور، أمام منزل السيد «كورتيفيخ»، كانت دراجة هوائية واقعة على الأرض، وعجلتها الأمامية البارزة في الهواء ما تزال تدور ـ مؤثر درامي سيظهر لاحقًا بلقطات قريبة في كل فيلم عن المقاومة. ركض «بيتر» وهو يعرج عبر ممر الحديقة الأمامية إلى الشارع. كانت أصبع من أصابع قدمه اليسرى قد تقرحت منذ أسابيع من دون أن تعرف سبيلًا إلى الشفاء، فاضطرت والدته إلى أن تقص قطعة من جلد حذائه فوق الأصبع المتقرحة. جثا عند رجل يرقد هامدًا في مجرى المياه، بالقرب من الدراجة الهوائية، ساندًا ذراعه اليمنى على حافة الرصيف، كما لو أنه يريد الرقود في وضعية مريحة. رأى «أنطون» حذاءه الأسود يلمع، الحذاء الذي تكسو كعبيه صفيحتان من الحديد.

امتزج الصخب والهمس في صوت والدته، عندما وقفت على عتبة الباب الرئيسي ونادت «بيتر» بأن يعود إلى المنزل على الفور. نهض «بيتر» واقفًا، ونظر إلى يمينه وشماله، ثم إلى الرجل من جديد، وعاد إلى البيت وهو يعرج.

بعد برهة قصيرة سمع «أنطون» صوته من الممر وهو يقول لوالدته بنبرة فيها نشوة النصر:

ـ إنه «بلوخ». لقد شبع موتًا، هذا إذا أردت أن تعرفي رأيي.

على الرغم من أن «أنطون» يبلغ الثانية عشرة من عمره، فإنه يعرف أن «فاكه بلوخ»، المفتش العام للشرطة، من أكبر المجرمين والخائنين في مدينة «هارلم» ونواحيها. فقد اعتاد أن يمر من هنا، أثناء ذهابه إلى عمله أو عودته إلى بيته في قرية «هيمستيده». كان رجلًا ضخم البنية، عريض المنكبين، قاسي الوجه، يرتدي عادة سترة رياضية بنية اللون فوق قميص مع ربطة عنق، وقبعة، وبنطلون فروسية أسود، وينتعل حذاء طويل الساق، وتحيط به هالة من العنف والحقد والخوف. كان ابنه «فاكه» يدرس مع «أنطون» في الصف نفسه. أخذ «أنطون» يحدق في الحذاء الذي يعرفه جيدًا، فقد حدث بضع مرات أن جاء «بلوخ» بابنه إلى المدرسة على المقعد الخلفي من تلك الدراجة الواقعة هناك. كان كلما وصل إلى مدخل المدرسة، لزم جميع الموجودين الصمت، فكان «بلوخ» يلقي نظرات استهزاء عليهم، لكنه عندما يغادر، يدخل ابنه «فاكه» باحة المدرسة منكس العينين، وكان عليه أن يتدبر أمره بنفسه.

طرق سمعه صوت والدته:

ـ «طوني»! تعال فورًا من عند النافذة.

في اليوم الثاني من السنة الدراسية حين لم يكن أحد يعرفه بعد، جاء «فاكه» إلى المدرسة ببدلة منظمة الشباب النازية ذات اللون الأزرق الفاتح، واضعًا على رأسه قبعتها السوداء الموشاة باللون البرتقالي. كان ذلك في أحد أيام سبتمبر، بعد فترة قصيرة من «الثلاثاء الهائج»، حين ظنّ الجميع أن المحرّرين على وشك الوصول، وأن غالبية أعضاء الحركة النازية، والمتعاونين مع الألمان، قد فروا باتجاه الحدود الألمانية أو إلى ما وراءها. جلس «فاكه» وحده في مقعده في الصف، يخرج كتبه من حقيبته. وقف الأستاذ «بوص»، معلم الرياضيات، على عتبة الصف ووضع ذراعه على إطار الباب لمنع التلاميذ الآخرين من الدخول، ودعا التلاميذ الذين دخلوا الصف إلى الخروج منه. ثم صاح قائلًا لـ«فاكه»: إن الدروس لا تُعطى لطلاب يرتدون مثل تلك البدلات، فتلك المرحلة لم يحن أوانها ولن يحين أوانها أيضًا، ولذلك يجب عليه أن يذهب إلى البيت ويرتدي لباسًا آخر. لم ينبس «فاكه» ببنت شفة، ولم يلتفت إليه حتى، بل بقي جالسًا من دون أن يحرك ساكنًا. ما لبث أن ظهر مدير المدرسة وشق طريقه عبر الزحام باتجاه المعلم، وأخذ يهمس في أذنه بانفعال شديد، بيد أن المعلم لم يتزحزح عن موقفه. كان «أنطون» واقفًا في مقدمة التلاميذ، ينظر من تحت ذراع المعلم إلى ظهر «فاكه» الجالس في القاعة الفارغة، حين أدار «فاكه» رأسه ببطء وراح يحدق في عينيه. في تلك اللحظة شعر «أنطون» حياله بإشفاق لم يسبق له أن شعر بمثله حيال أي شخص آخر، فقد أدرك أن «فاكه» لا يستطيع الذهاب إلى البيت خوفًا من والده! فلم يدر إلا وقد عبر من تحت ذراع المعلم «بوص»

ودخل الصف وجلس في مقعده. هكذا أنهى معارضة المعلم. عند نهاية الدوام، أمسك المدير بذراعه في حجرة المدخل، وهمس في أذنه بأنه ربما أنقذ حياة المعلم «بوص» بدخوله إلى الصف. لم يعرف بماذا يجيبه على هذه المجاملة. فيما بعد، لم يتطرق أحد في المدرسة إلى هذه الحادثة، ولا أطلع هو نفسه أحدًا عليها في البيت.

الجثة منطرحة في مجرى المياه، وعجلة الدراجة متوقفة عن الدوران، وفوقهما السماء المهيبة المرصعة بالنجوم. ألفت عيناه الظلام، فأصبحت رؤيته أوضح عشر مرات من ذي قبل. فها هو نجم الجوزاء وقد شهر سيفه، ودرب التبانة، وكوكب متألق، ربما هو كوكب المُشتري. منذ قرون لم تبلغ السماء فوق هولندا هذا المبلغ من الصفاء. في الأفق يتهادى شعاعان من ضوء الكشاف، يتقاطعان لحظة ثم يبتعدان أحدهما عن الآخر، لكن لا يُسمع هدير الطائرات. انتبه إلى أنه ما يزال ممسكًا حجر الزهر في يده، فوضعه في جيبه.

حين هم بالانصراف عن النافذة، رأى السيد «كورتيفيخ» يخرج من منزله، وفي أعقابه «كارين». أمسك «كورتيفيخ» بكتفي «بلوخ»، وأمسكت «كارين» بحذائه، وأخذا يسحبانه من مكانه: «كارين» بخطوات إلى الوراء.

صاح «أنطون»:

- تعالوا وشاهدوا ما يحدث!

ما إن وصلت والدته و«بيتر» إلى النافذة حتى شاهدا جثة «بلوخ» وهي تُوضع أمام منزلهم. ركضت «كارين» و«كورتيفيخ» إلى المكان

الذي كانت الجثة راقدة فيه قبل لحظات، فألقت «كارين» قبعة «بلوخ» إلى الجثة، وجاء والدها بالدراجة الهوائية ووضعها بجانب القتيل، ثم تواريا أحدهما وراء الآخر في منزل «فوق الخيال».

صعق الواقفون وراء النافذة البارزة في منزل السيد «ستينفايك»، فلم يستطع أي منهم أن ينبس بكلمة واحدة. أقفر رصيف القناة من جديد، وعاد كل شيء إلى حاله، ولكن في الوقت نفسه لم يبق أي شيء على حاله. القتيل راقد وذراعاه خلف رأسه، ومعطفه الطويل منحسر حتى خصره وكأنه يهوي من علٍ. ويده اليمنى قابضة على مسدسه. رأى «أنطون» وجه «بلوخ» العريض بوضوح، وشعره الملتصق بفروة رأسه والمسرَّح إلى الوراء ما يزال على ترتيبه، أو يكاد.

فجأة صاح «بيتر» بصوت هادر:

- لعنة الله عليهما!

فدوّى صوت السيد «ستينفايك» في ظلام الغرفة الخلفية:

- هيه، اهدأ، اهدأ!

لم يكن قد نهض عن الطاولة بعد.

صاح «بيتر»:

- لقد وضعا الجثة أمام بيتنا، هذان الوغدان! يا يسوع المسيح! يجب أن نتخلص منها قبل أن يصل الألمان!

فقالت السيدة «ستينفايك»:

- لا تتدخل في هذا الأمر يا «بيتر». نحن لا علاقة لنا بالموضوع.

- كيف لا علاقة لنا والجثة أمام بابنا! ألا تعرفين لماذا نقلاها إلى

هنا؟ لأنهما يعلمان أن الألمان سيأخذون بثأره، كما فعلوا عند قناة «لايدسفارت».

ـ نحن لم نرتكب أية جريمة يا «بيتر»!

ـ وكأنهم يكترثون لهذا الأمر! ألا تعرفين الألمان؟!

وخرج من الغرفة قائلًا:

ـ هيا يا «أنطون»! تعال معي بسرعة. فلنتخلص منها أنا وأنت.

صاحت السيدة «ستينفايك»:

ـ هل جننتما؟

وتشردقت بالقرنفل، فأخذت تتنحنح حتى بصقته من فمها:

ـ ماذا تريد أن تفعل؟

ـ سأعيد الجثة إلى مكانها أو أنقلها إلى عند السيدة «بويمر».

ـ السيدة «بويمر»؟ كيف لك أن تفكر بهذه الطريقة؟

ـ لماذا يجب ألا تكون عند السيدة «بويمر» وتكون عندنا نحن؟ هي أيضًا مثلنا لا علاقة لها بالموضوع، أليس كذلك؟ النهر لم يحلُ له أن يتجمد إلا الآن! سنرى ماذا يجب أن نفعل.

ـ لن أسمح لك بفعل أي شيء!

كانت السيدة «ستينفايك» قد خرجت هي الأخرى من الغرفة. في الضوء الخافت المنساب من خلال النافذة العليا إلى حجرة المدخل، رأى «أنطون» والدته مرابطة خلف الباب، و«بيتر» يحاول إزاحتها عن طريقه، ثم سمعها تقفل الباب بالمفتاح وتنادي:

ـ «فيلم»! لماذا لا تقول شيئًا؟

سمع «أنطون» صوت والده الجالس في الغرفة الخلفية:

ـ نعم... نعم... أنا...

وسُمع دوي الرصاص من مكان بعيد.

صاح «بيتر»:

ـ لو أصيب بعد بضع ثوانٍ فقط، لكان الآن ممددًا عند السيدة «بويمر».

رد السيد «ستيفايك» بصوت خافت، ومتهدج بطريقة غريبة:

ـ صحيح، ولكن ذلك لم يحدث.

فقال «بيتر» فجأة:

ـ ولكن ذلك لم يحدث؟! ولم يحدث أن كان ممددًا أمام بيتنا أيضًا، ومع ذلك حدث ووُضع أمامه! سأعيده إلى مكانه، حتى ولو اضطررت أن أفعل ذلك وحدي.

واستدار على عقبيه، وأراد أن يركض إلى باب المطبخ، لكنه أطلق صرخة من الألم جراء تعثره بكومة الحطب والأغصان التي كانت والدته قد قطعتها من الأشجار المتبقية في الأرض الواقعة خلف المنازل.

صاحت السيدة «ستيفايك»:

ـ «بيتر»! ناشدتك الله! إنك تخاطر بحياتك يا بني!

ـ أنتم الذين تخاطرون بحياتكم، اللعنة!

وقبل أن ينهض، أقفل «أنطون» باب المطبخ، وقذف المفتاح إلى الممر، فاختفى المفتاح في قرقعة شديدة عن الأنظار، ثم ركض إلى الباب الرئيسي وفعل الشيء ذاته بمفتاح المنزل.

صاح «بيتر» وهو يوشك على البكاء:

ـ اللعنة! أنتم معتوهون، معتوهون، جميعكم!

ركض إلى الغرفة الخلفية، وفتح الستائر بحركة عنيفة، وركل باب الحديقة بقدمه السليمة. فُتح الباب في صرير هائل ووقعت قصاصات الجرائد من بين زواياه، ورأى «أنطون» والده فجأة مثل خيال مرسوم على الثلج. كان ما يزال يجلس إلى الطاولة.

حين توارى «بيتر» في الحديقة، ركض «أنطون» إلى النافذة البارزة. نظر إلى الخارج فرآه يظهر من وراء البيت وهو يعرج. صعد من فوق سياج الحديقة، وأمسك «بلوخ» من حذائه. في تلك اللحظة بدا عليه وكأنه يتردد: لعله أجفل من ذلك الدم كله الذي رآه فجأة، أو لعله لم يستطع أن يحسم أمره في أي اتجاه يجب أن يذهب بالجثة، ولكن قبل أن يتمكن من فعل أي شيء، ارتفع صوت من نهاية الرصيف:

ـ قف! لا تتحرك! ارفع يديك!

اقترب ثلاثة رجال وهم يقودون دراجات هوائية بسرعة، ألقوا دراجاتهم في الشارع وتابعوا طريقهم ركضًا. ترك «بيتر» حذاء «بلوخ» يقع على الأرض، وانتزع المسدس من يده، وركض من دون أن يَعرج باتجاه سياج آل «كورتيفيخ»، واختفى وراء منزلهم. تصارخ الرجال الثلاثة فيما بينهم، ثم أطلق واحد منهم رصاصة، وكان يرتدي معطفًا شتويًا وقبعة، وركض وراء «بيتر».

شعر «أنطون» بدفء والدته الواقفة بجانبه.

ـ ما هذا؟ أهم يطلقون الرصاص على «بيتر»؟ أين هو؟

ـ وراء المنزل.

كان «أنطون» يراقب كل ما يحدث بعينين متسعتين. ركض الرجل

الثاني، المرتدي زي الشرطة العسكرية، إلى دراجته الهوائية، ووثب عليها وغادر بسرعة، في حين تزحلق الرجل الثالث، المرتدي الزي المدني أيضًا، على الجانب الآخر من الضفة، وجلس القرفصاء على درب الملاحين، ماسكًا المسدس بيديه الاثنتين.

تهاوى «أنطون» على الأرض تحت رف النافذة، واستدار إلى الغرفة. كانت والدته قد اختفت. وكان خيال والده ما يزال جالسًا إلى الطاولة، منحنيًا مزيدًا من الانحناء، كما لو أنه يصلي. كانت والدته واقفة على المصطبة في الحديقة الخلفية، وتهمس اسم «بيتر» في ظلام الليل، فبدا وكأن ظهرها هو الذي يرسل البرد المتدفق إلى داخل المنزل. لم يكن يُسمع أي صوت. رأى «أنطون» كل شيء وسمع كل شيء، لكنه بشكل أو بآخر لم يكن حاضرًا بكل كيانه. كان جزء منه في مكان آخر، أو ليس في أي مكان. كان يعاني من الجوع، وأصبح الآن يعاني أيضًا من تصلب جسمه نتيجة البرد، وهذا غيض من فيض. المشهد في هذه اللحظة ـ والده قطعة سوداء مقصوصة من الثلج جالس إلى الطاولة، ووالدته واقفة على مصطبة الحديقة في ضوء النجوم ـ يشق طريقه إلى الخلود. ينتزع نفسه من كل ما حدث في اللحظات الماضية، ومن كل ما قد يحدث في اللحظات القادمة، ويتقوقع على نفسه ويبدأ رحلته عبر حياته القادمة، حيث في نهايتها سيفقع مثل فقاعة صابون، ويصبح في خبر كان، وكأنه لم يحدث يومًا.

دخلت والدته.

ـ «طوني»! أين أنت؟ هل تراه؟

ـ كلا.

ـ ماذا علينا أن نفعل؟ لعله مختبئ في مكان ما.

وخرجت مضطربة إلى الحديقة مرة أخرى، ودخلت من جديد بعد برهة قصيرة. اتجهت إلى زوجها فجأة وأخذت تهزه من كتفيه:

ـ أما آن لك أن تفيق من سباتك هذا! إنهم يطلقون النار على «بيتر»! وربما أصابوه!

نهض السيد «ستيفايك» عن مقعده ببطء. خرج من الغرفة بقامته الطويلة الهزيلة، من دون أن ينبس ببنت شفة. عاد بعد برهة وجيزة وقد وضع على رأسه قبعته البولر السوداء، ولف شاله حول رقبته. عندما أراد أن يخطو من المصطبة إلى الحديقة، تراجع إلى الوراء. استطاع «أنطون» سماعه وهو يحاول أن ينادي على «بيتر» بصوت عالٍ، لكن لم يخرج من حلقه سوى صوت خافت مبحوح. التفت مغلوبًا على أمره، وعاد إلى الغرفة وجلس على المقعد بجانب المدفأة وهو يرتعش. قال بعد بضع لحظات:

ـ لا تؤاخذيني يا «ئيا»... لا تؤاخذيني...

أخذت يدا السيدة «ستيفايك» تتصارع إحداهما مع الأخرى.

ـ لقد سار كل شيء على ما يرام، والآن وقد شارفت الحرب على الانتهاء.. هيا يا «أنطون»، البس معطفك. آه، يا إلهي! أين لي أن أعثر على ابني؟

قال «أنطون»:

ـ ربما في منزل «كورتيفيخ». أخذ معه مسدس «بلوخ».

أدرك من الصمت الذي أعقب كلماته أن ذلك شيء فظيع.

ـ هل حقًا رأيت ذلك؟

ـ أجل، حين كان أولئك الرجال يوشكون على الوصول. هكذا، قبل أن يهرب...

في الضوء الخافت المسحوق الذي يضيء الغرفة، قفز قفزة سريعة على سبيل التمثيل وانحنى بقامته وسحب مسدسًا افتراضيًّا من يد افتراضية.

قالت السيدة «ستيبنايك»:

ـ أيمكن أن يكون...

وغصت بكلماتها، ثم:

ـ أنا ذاهبة إلى بيت «كورتيفيخ».

وهمت بالخروج إلى الحديقة، بيد أن «أنطون» لحق بها وهتف:

ـ احذري! هناك يرابط رجل شرطة!

مثلما تراجع زوجها قبل قليل، تراجعت هي أيضًا إلى الوراء أمام السكون القارس. لم يكن أي شيء يتحرك، لا في الحديقة، ولا خلفها حيث الأراضي القاحلة الرازحة تحت الثلوج. أخلد «أنطون» أيضًا إلى السكون. أصبح كل شيء ساكنًا، لكن الوقت ظل يمضي، فبدت الأشياء كلها وكأنها تلمع بمرور الوقت، مثل الحصى في قاع الجدول. «بيتر» مختفٍ عن الأنظار، وجثة راقدة أمام الباب، ورجال مسلحون منتشرون حول المنزل يتربصون بهدوء. راود «أنطون» إحساس بأنه يستطيع إلغاء كل ما حدث في لمح البصر، وإعادة كل شيء إلى الوضع الذي كان عليه قبل لحظات، عندما كانوا جالسين حول الطاولة ويلعبون لعبة «اللودو»، لو قام بفعل شيء يستطيع القيام به من دون شك، لكنه لا يستطيع تذكره في هذه اللحظة بالذات. تمامًا

مثلما يسهو عن اسم شخص ردده مئات المرات، ويشعر بأن الاسم على طرف لسانه فيجهد ذهنه لتذكره، لكنه كلما حاول الإمساك به، انفلت منه وابتعد عنه أكثر. أو مثلما حدث معه في تلك المرة، عندما أدرك فجأة أنه يتنفس من دون انقطاع، يأخذ شهيقًا ويطلق زفيرًا، ويجب عليه أن يحرص على التنفس باستمرار، وإلا اختنق، فكاد يختنق فعلًا في تلك اللحظة نفسها.

طرقت أسماعهم أصوات دراجات نارية تقترب من مكان بعيد، وكذلك صوت سيارة.

قال «أنطون»:

- ادخلي يا أمي.

- أنا آتية. أريد أن أغلق الأبواب.

كانت متماسكة، لكنه أحس من صوتها بأنها هي أيضًا توشك على القيام بفعل شيء خارج عن سيطرتها. خُيل إليه أنه هو الوحيد الذي يستطيع أن يُحكّم عقله، وكان لا بد أن يحُكِّم عقله، كما يجدر بمن يريد أن يكون طيارًا. أثناء الرحلات الجوية أيضًا، يمكن أن تحدث مواقف صعبة: على سبيل المثال، يمكن أن يجد نفسه في قلب إعصار، تكون الرياح هادئة فيه والشمس مشرقة، لكنه مع ذلك يجب أن يخرج منه ويواجه الزوبعة التي تعصف حوله، وإلا سينفد الوقود ويضيع الركاب إلى الأبد.

تصاعد هدير الدراجات النارية والسيارة وهي تصل إلى رصيف القناة على الجهة الأمامية من المنزل، في حين تناهت إليه أصوات سيارات أخرى، مركبات ثقيلة، وهي تقترب من مسافة بعيدة. كان

كل شيء على ما يرام حتى تلك اللحظة، فما الذي تغير في الواقع، سوى أن «بيتر» مختفٍ عن الأنظار؟ وكيف يمكن لأي شيء أن يتغير؟

وعندئذ تغير كل شيء. تعالى أزيز الإطارات، والصيحات بالألمانية، وفرقعة الأحذية العسكرية وهي تقفز على أرض الشارع. وأخذ ضوء قوي يبرق من حين إلى آخر عبر شق الستائر. سار «أنطون» على رؤوس أصابعه إلى النافذة البارزة. كان الجنود منتشرين في الشارع ببنادقهم ورشاشاتهم، ودراجات نارية تغدو وتروح، وشاحنات عسكرية تغصُّ بمزيد من العساكر، وسيارة إسعاف عسكرية تُسحب منها نقالة. أغلق الستارة فجأة، والتفت قائلًا في الظلام:

ـ إنهم آتون إلينا.

قُرِع الباب في الحال، ولكن من شدة ما كان الطرق بأعقاب البنادق عنيفًا، عرف أن شيئًا فظيعًا على وشك الحدوث.

ـ افتحوا! افتحوا على الفور!

هرب بحركة لا إرادية إلى الغرفة الخلفية. ذهبت والدته إلى الممر وصاحت بصوت مرتجف أنها لا تستطيع فتح الباب لأن المفتاح ضائع، لكنهم ركلوا الباب فاصطدم بحائط المدخل في دوي هائل. سمع «أنطون» صوت المرآة وهي تتهشم: المرآة المنقوش في إطارها الخشبي فيلان صغيران، المعلقة فوق الطاولة الصغيرة ذات القوائم المفتولة. وما لبث أن اكتظ الممر والغرف بالجنود المدججين بالسلاح، وقد أحاط بهم البرد القارس، أولئك الجنود بأجسادهم الضخمة قياسًا إلى بيتهم الصغير. لم يعد بيتهم منذ تلك اللحظة.

أعمى ضوء مصباح يدوي بصر «أنطون»، فوضع ذراعه على

عينيه. رأى من تحت ذراعه الشارة اللامعة للشرطة العسكرية على صدر واحد منهم، والأسطوانة الموصولة بالكمامات الواقية من الغازات تتدلى من حزام واحد آخر. ورأى الأحذية العسكرية الملطخة بالثلوج. وطرق سمعه وقع الأحذية العسكرية على السلم، فوق رأسه. ظهر رجل بلباس مدني في الغرفة. كان يرتدي معطفًا مشمعًا أسود، طويلًا إلى الكاحلين، وقبعة مسدلة الحافة. صاح فيهم بالألمانية:

ـ أوراقكم الثبوتية، هيا، هيا... أوراقكم الثبوتية، كلها.

نهض السيد «ستيفايك» عن مقعده، وفتح درجًا من أدراج خزانة البوفيه، في حين قالت زوجته بالألمانية:

ـ نحن لا علاقة لنا بشيء.

زمجر الرجل:

ـ اسكتي!

كان واقفًا بجانب الطاولة، فأغلق بظفر سبابته الكتاب الذي كان السيد «ستيفايك» يقرأ فيه قبل قليل، وقرأ العنوان المكتوب باللاتينية على الغلاف: «علم الأخلاق، مبيّنًا بالطريقة الهندسية. باروخ سبينوزا»..

ثم قال بالألمانية:

ـ هكذا إذن!

ورفع عينيه عن الكتاب:

ـ ويقرأون «سبينوزا» أيضًا! يقرأون الكتب اليهودية!

ثم قال للسيدة «ستيفايك»:

ـ امشي إلى الأمام وإلى الوراء.

ـ ماذا يجب أن أفعل؟!

ـ سيري بضع خطوات ذهابًا وإيابًا! هل أنت صمّاء لا تسمعين!

رأى «أنطون» والدته تمشي جيئة وذهابًا وهي ترتعش من قمة رأسها وحتى أخمص قدميها، ووجهها ينم عن اندهاش طفل لا يفقه شيئًا. أمسك الرجل الألماني بمصباح الجندي الواقف بجانبه ووجه ضوءه إلى ساقيها. قال لها بعد برهة وجيزة:

ـ كفى.

علم «أنطون» مصادفة بعد ذلك الوقت بكثير، أثناء دراسته الجامعية، أن الرجل كان يعتقد أنه يستطيع أن يعرف من طريقة مشيها إذا كانت يهودية أم لا.

وقف السيد «ستينفايك» حاملًا الأوراق الثبوتية في يديه.

ـ أنا...

ـ تعلَّم أن تخلع هذه القبعة، حين تتحدث إليَّ.

خلع السيد «ستينفايك» قبعته البولر واستأنف:

ـ أنا...

ـ اخرس يا حامي اليهود! يا خنزير!

تفحص الرجل الأوراق الثبوتية والبطاقات التموينية، ثم جال بعينيه فيما حوله:

ـ أين الشخص الرابع؟

أرادت السيدة «ستينفايك» أن تقول شيئًا، لكن زوجها سبقها في الحديث، فقال بصوت متهدج:

ـ إنه ابني البكر. اختلطت عليه الأمور من هول هذا الحادث،

فخرج من المنزل من دون أن يودعنا، وذهب في ذلك الاتجاه.
وأشار بقبعته باتجاه منزل «موقع ممتاز» حيث يسكن آل «بويمر».
فقال الرجل وهو يضع الأوراق في جيبه:

ـ هكذا إذن! ذهب في ذلك الاتجاه!

ـ نعم.

أومأ الرجل برأسه:

ـ خذوهم.

منذ تلك اللحظة أخذت الأحداث مجرى أسرع من ذي قبل. دفعوهم إلى خارج المنزل من دون أن يسمحوا لهم بأخذ أي شيء معهم، ولا حتى معاطفهم. كان الشارع يزدحم بالدراجات النارية والسيارات الرمادية الخاصة وناقلات الجند، كلها في اختلاط عشوائي، ويعج بالبدلات العسكرية والصراخ وأضواء المصابيح اليدوية الراقصة. كان بعض الجنود مصطحبين كلابًا مربوطة إلى حبال. كانت سيارة الإسعاف قد غادرت، وبقيت فقط دراجة «بلوخ» الهوائية، وبقعة دم كبيرة على الثلج. سمع «أنطون» دوي رصاص مكتوم من مكان ما، فأحس بيد والدته تتلمس يده. عندما رفع عينيه إليها، رأى وجهها متحولًا إلى وجه تمثال يحدق أمامه بنظرات خوف وذعر. كان والده قد ارتدى قبعته من جديد وينظر إلى الأرض، مثلما يفعل دائمًا أثناء المشي. لكن «أنطون» نفسه كانت تغمره سعادة غامضة من ذلك الهرج والمرج كله، ومن تلك الضجة كلها التي دبت فجأة بعد صمت القبور الذي ساد طيلة الأشهر المنصرمة. لعل تلك الأشعة القوية التي كانت تومض على

وجهه مرة تلو المرة قد أدخلته في تنويم مغناطيسي. ولكن أخيرًا، أخيرًا حدث شيء.

في ذلك الحلم، أحس بقبضة والدته تشتد على يده فجأة، قبل أن يُنتزع أحدهما عن الآخر.

ـ «طوني»!

واختفت في مكان ما خلف الشاحنات، واختفى والده أيضًا. أمسكه أحد الجنود من ذراعه، واقتاده إلى سيارة ألمانية واقفة بميل على الجهة الأخرى من الشارع، ونصفها على جانبه العشبي. تركه يصعد إليها، ثم أغلق الباب عليه.

كانت تلك هي أول مرة في حياته يركب فيها سيارة. رأى المقود والعدادات على نحو غامض. الطائرات لها من العدادات ما يزيد على عدادات هذه السيارة. طائرة «اللوكهيد إلكترا» على سبيل المثال لها خمسة عشر عدادًا ومقودان. نظر إلى الشارع، فلم يرَ أي أثر لوالديه. أين يختبئ «بيتر» يا ترى؟ الجنود يدخلون ويخرجون من بيت «كورتيفيخ» بمصابيحهم اليدوية، ولكن بقدر ما يستطيع الرؤية من دون أن يقبضوا على «بيتر». لا بد أنه تمكن من الهرب عبر الأراضي الواقعة خلف المنازل. تُرى هل اكتشفوا أن «بلوخ» كان منطرحًا في البداية أمام منزل «كورتيفيخ»؟ لم يكن ثمة أحد في حديقة «بويمر». تغبشت شبابيك السيارة، فازدادت رؤيته للشارع غموضًا. مسح الشبابيك فتبللت يده بأنفاسه، ولكن مع ذلك بقيت الصورة مشوهة وغامضة. فجأة فتحوا أبواب غرفة والديه المطلة على الشرفة. وما إن مضت برهة قصيرة حتى فتحوا ستائر غرفة

الجلوس في الطابق الأرضي وحطموا الشبابيك كلها من الداخل بأعقاب البنادق. صُعق «أنطون» من رؤية شظايا الزجاج وهي تتساقط على الأرض مثل المطر. يا لهم من أوغاد! من أين لوالديه أن يأتيا بشبابيك جديدة في هذا الوقت الذي لا يستطيع المرء فيه الحصول على أي شيء؟ من حسن الحظ بدا أنهم حطموا ما شاء لهم هواهم أن يحطموا، فقد بدأ الجنود يخرجون من المنزل، الواحد تلو الآخر، تاركين الباب الرئيسي مفتوحًا.

لم يعد يحدث أي شيء، لكنهم لم ينصرفوا. أشعل بعض الجنود سجائر وراحوا يتجاذبون أطراف الحديث، وقد وضعوا أيديهم في جيوبهم وأخذوا يدبدبون بأقدامهم من البرد، ووجه آخرون منهم مصابيحهم اليدوية إلى البيت وكأنهم يريدون التلذذ برؤية ما حطموه. حاول «أنطون» مرة أخرى أن يعثر على والديه، لكنه لم يرَ في الظلام الجاثم هناك سوى خيالات في الأشعة المتحركة ذات اليمين وذات الشمال. كانت الكلاب تنبح. رجع بمخيلته إلى ما حدث في الغرفة قبل قليل، وكيف أن الرجل الألماني ذا القبعة عنَّف والده، لكن تلك الذكرى آلمته إلى درجة لا تحتمل، آلمته أكثر بكثير من الوقت الذي حدثت فيه. والده الذي أُجبر على خلع قبعته... أبعد تلك الذكرى عن رأسه، ولم يرغب في أن يعود للتفكير فيها مرة أخرى، فهي ما كان ينبغي أن تحدث. في حياته كلها لم يرتد قبعة البولر، ولا أراد لأي شخص أن يرتدي أي نوع من القبعات بعد انتهاء الحرب.

نظر في ذهول إلى الشارع. كان الوضع أهدأ من ذي قبل. كان الجنود جميعهم قد ابتعدوا عن البيت ووقفوا من دون أن يحركوا

ساكنًا. صدر أمر عسكري، سار على إثره أحد الجنود باتجاه بيتهم، ورمى شيئًا فيه عبر القسم الأوسط للنافذة البارزة، ثم ركض منحني القامة راجعًا إلى مكانه. دوى انفجار هائل واشتعلت في الوقت نفسه حزمة نار معمية للبصر في غرفة الجلوس، فغاص «أنطون» إلى أسفل السيارة. حينما عاود النظر، انفجرت قنبلة ثانية في غرفة النوم في الطابق العلوي. بعد ذلك مباشرة ظهر جندي بنوع من الخراطيم بين يديه وأسطوانة على ظهره، وتقدم نحو البيت، وراح يطلق عليه عبر الشبابيك إشعاعات نار مدوية. لم يصدق «أنطون» عينيه. هل يُعقل ما يحدث هناك؟ أخذ يبحث عن والده ووالدته بيأس وحيرة، لكنه لم يستطع رؤية أي شيء بسبب تلك الومضات. كانت ألسنة النار المثقلة بالدخان تندفع الواحدة تلو الأخرى إلى داخل البيت: إلى غرفة الضيوف، فحجرة المدخل، فغرفة النوم، ثم السقف المصنوع من الخيزران. لقد أضرموا النار في منزله، ولم يعد في اليد أية حيلة! فها هو المنزل يحترق من الداخل ومن الخارج. وها هي النيران تجهز على أغراضه كلها: كتب «كارل ماي» والعلوم الطبيعية، وما جمعه من صور الطائرات، ومكتبة والده ذات الرفوف المزدانة بقطع من القماش الأخضر، وثياب والدته، وكبة الصوف، والمقاعد والطاولة، والأشياء كلها. أغلق الجندي فوهة قاذف النيران، واختفى في الظلام. تقدم بضعة رجال من «الشرطة الخضراء»(*)، ببنادقهم المتدلية بميل على ظهورهم، وغرزوا قفازاتهم في أحزمة بناطيلهم، ومدوا أيديهم

(*) شرطة تابعة للنظام النازي الألماني، كان عناصرها يرتدون بدلات خضراء. (المترجمة).

إلى النار المستعرة، وكأنهم يحاولون منعها من الانتشار، وراحوا يتبادلون الأحاديث ضاحكين مبتهجين.

على مقربة منهم توقفت شاحنة عسكرية أخرى، في صندوقها المفتوح مجموعة من رجال عزل يرتعدون من البرد في ستراتهم المدنية، يحرسهم جنود مدججون بمسدسات رشاشة في وضعية التلقيم، استطاع «أنطون» رؤيتهم في وهج النيران، فعرف من خوذاتهم السوداء أنهم من «الإس إس» (الوحدات الخاصة). تعالت صيحات، وأوامر، فقفز السجناء المقيدون كل اثنين أحدهما إلى الآخر، من الشاحنة، واختفوا في الظلام. كان المنزل، الذي جففه الصقيع، تنتشر النار فيه انتشارها في الهشيم، حتى لقد بدأ «أنطون» يشعر بدفء وهجها وهو جالس في السيارة. ارتفعت ألسنة اللهب الحادة من نافذة السطح المائل على الجهة اليسرى: ها هي النيران تلتهم غرفته أيضًا، لكنه على الأقل يشعر ببعض من الدفء. وفجأة انطلقت ألسنة اللهب من سطح المنزل، وأنارت رصيف القناة إنارة مبهرة، مثلما يحدث في العروض المسرحية. خُيل إليه عند ذاك أنه لمح والدته وهي واقفة بشعر مسدل بين السيارات المركونة هناك، وشخص يركض نحوها: ثمة شيء يحدث في ذلك المكان، لكنه لم يعد قادرًا على الاستيعاب بشكل كامل. وكان ذهنه منشغلًا فوق ذلك بالسؤال: كيف يمكن أن يفعلوا هذا في حالة التعتيم المفروضة؟ لا بد أن الإنجليز سيرون هذه الإنارة، وسيأتون، ويا ليتهم يأتون. نظر إلى اللوحة المنشورة بميل، المثبتة على العارضة العليا للنافذة البارزة، فاستطاع أن يقرأ عليها اسم منزل «خالي الهموم» على

الرغم من تفحمه. كانت الغرف، التي ساد فيها البرد أمدًا طويلًا، تستعر فيها نار جهنم. وكانت قطع سوداء متفحمة تتساقط متناثرة على الثلج في كل مكان.

لم تكد تمضي بضع دقائق حتى بدأ هيكل المنزل يتخلخل، ثم انهار تحت نافورة من شرارات عالية علو الأبراج. نبحت الكلاب. قفز الجنود الذين كانوا يدفئون أنفسهم عند النار إلى الوراء، فتعثر واحد منهم بدراجة «بلوخ» وانطرح على الأرض، فانفجر الآخرون بالضحك. في تلك اللحظة بدأ المدفع الرشاش يدوّي على الطرف الآخر من رصيف القناة. رقد «أنطون» على جنبه، وتكوم على نفسه، واضعًا معصميه المتصالبين تحت ذقنه.



عندما فتح الألماني ذو المعطف الطويل باب السيارة ورآه راقدًا على المقعد، تسمر لحظة. يبدو أنه كان قد نسي وجوده.

قال بالألمانية:

ـ اللعنة!

كان على «أنطون» أن يزحف إلى المساحة الضيقة وراء المقاعد، حيث لم يعد باستطاعته رؤية أي شيء تقريبًا. جلس الألماني نفسه إلى جوار السائق العسكري، وأشعل سيجارة. شغّل السائق محرك السيارة، ومسح البخار عن الشباك الأمامي بكمّ معطفه، وسافر «أنطون» لأول مرة في حياته في سيارة. كانت المنازل غارقة في الظلام، والشوارع ما تزال خالية من الناس، باستثناء مجموعات صغيرة من الألمان هنا وهناك. لم يتجاذب الرجلان أطراف الحديث.

توجهوا إلى قرية «هيمستيده»، وتوقفوا بعد بضع دقائق أمام مركز الشرطة، الذي كان يحرسه شرطيان.

كانت صالة الانتظار الدافئة تغص بالرجال، معظمهم في بزات عسكرية، ألمانية وهولندية. تحلب ريق «أنطون» على الفور، حين نفذت إلى أنفه رائحة البيض المقلي، لكنه لم يرَ أحدًا يأكل. كانت الصالة مضاءة بنور الكهرباء، وكان كل من فيها يدخن. أُمر بالجلوس على كرسي بجانب المدفأة العالية، حيث احتضنته حرارتها. أخذ الألماني يتحدث إلى ضابط شرطة هولندي، مشيرًا بذقنه إلى «أنطون» من حين إلى آخر. استطاع «أنطون» أن يرى ملامحه لأول مرة بوضوح، لكن ما رآه حينذاك في عام ١٩٤٥ كان مختلفًا عما يمكن أن يراه الآن: كان الألماني في نحو الأربعين من العمر، له وجه نحيف قاسٍ ذو ندبة أفقية تحت وجنته اليسرى - تفصيل كوميدي لم يعد يستعمله سوى مخرجي الأفلام الهزلية أو أفلام الرعب السادية من الدرجة الثانية (فوحدها الوجوه الطفولية مثل وجه «هاينريش هيملر» لا زالت مقبولة فنيًّا). لكن ذلك لم يكن أمرًا فنيًّا حينذاك، إنما كان مظهره الحقيقي كـ«نازي متطرف»، ولم يكن يثير الضحك بعد. غادر بعد برهة قصيرة من دون أن يلقي نظرة على «أنطون».

جاء إليه ضابط برتبة رقيب، حاملًا بطانية رمادية على ذراعه، وطلب منه أن يذهب معه. في الممر انضم إليهما شرطي آخر، يحمل في يده حزمة مفاتيح، سأل عندما رأى «أنطون»:

- ما هذا؟ أيجب علينا أن نسجن الأطفال أيضًا؟ أم هو طفل يهودي؟

قال له الرقيب:

ـ لا تسأل كثيرًا.

عند نهاية الممر نزلوا واحدًا وراء الآخر السلم المفضي إلى القبو. التفت «أنطون» إلى الرقيب وسأل:

ـ هل ستأتون بأبي وأمي إلى هنا؟

لم ينظر الرقيب إليه:

ـ لا أعرف شيئًا. نحن لا علاقة لنا بهذه العملية.

كان الطابق السفلي ممرًّا قصيرًا باردًا، تطل عليه من الجانبين بضعة أبواب حديدية مدهونة بدهان أصفر، ومليئة ببقع صدئة، تمتد في أعلاها أنابيب وأسلاك متنوعة. وفوق السقيفة يشتعل مصباح ضعيف من دون زجاج.

سأل الرقيب:

ـ ألا يوجد مكان شاغر؟

ـ لا يوجد. يجب أن ينام على الأرض.

طاف الرقيب ببصره على الأبواب، وكأنه يستطيع رؤية ما خلفها، ثم قال مشيرًا إلى آخر باب على الجانب الأيسر:

ـ ضعه هناك.

ـ لكنها يجب أن تبقى زنزانة انفرادية حسب أوامر المخابرات العامة.

ـ افعل ما أقوله لك.

فتح الشرطي باب الزنزانة، فألقى الرقيب البطانية على السرير القائم بجانب الحائط، وقال مخاطبًا «أنطون»:

ـ إنها مجرد ليلة واحدة. حاول أن تنام.

ثم وجّه كلامه إلى الزاوية التي لم يستطع «أنطون» رؤيتها:

ـ لقد جئتك برفيق، لكن لو تكرمتِ، اتركيه وشأنه، فهو عاش ما يكفي من المآسي بسببكم أنتم.

شعر «أنطون» بيد على ظهره وهو يجتاز عتبة الزنزانة المظلمة. أغلق الباب عليه فلم يعد يبصر أي شيء.



٣

تلمس طريقه في الظلام حتى بلغ السرير. شعر بوجود الشخص القابع في إحدى زوايا الزنزانة في كل مكان حوله. ضم يديه إحداهما إلى الأخرى ووضعهما في حضنه، وراح يصغي إلى الأصوات المترامية من الممر. سمع بعد برهة قصيرة وقع الأحذية وهي تصعد السلم، ثم ساد السكون. أخذ هذه المرة يسمع أنفاس الشخص الآخر.

صوت نسائي ناعم:

ـ لماذا أنت هنا؟

شعر فجأة بأنه نجا من خطر كبير. أوسع فتحتي عينيه عسى أن يرى شيئًا، لكن الظلام الجاثم أمامه مثل ماء أسود وقف له بالمرصاد. بدأ يسمع أصوات أحاديث خافتة في الزنازين الأخرى.

أجاب:

ـ لقد أضرموا النار في بيتنا.

ولم يكد يصدق أن كل ما تبقى من منزله هو حطام يحترق الآن بين منزل «موقع ممتاز» ومنزل «فوق الخيال».

مضى بعض من الوقت قبل أن تسأل:

ـ لماذا فعلوا ذلك؟ وهل فعلوه للتو؟

ـ أجل يا سيدتي.

ـ لماذا؟

ـ انتقامًا لمقتل رجل، لكن لم يكن لنا شأن بمقتله. لم يسمحوا لنا بأخذ أي شيء معنا.

قالت:

ـ اللعنة عليهم..

وأعقبت بعد برهة صمت:

ـ يا يسوع! وهل كنت وحدك في البيت؟

ـ لا، كنت مع أبي وأمي وأخي.

لاحظ أن عينيه تنغلقان من تلقاء نفسيهما، ففتحهما من جديد، لكنه لم يستطع أن يُحدث في الأمر اختلافًا.

ـ وأين هم الآن؟

ـ لا أعرف.

ـ هل أخذهم الألمان؟

ـ أجل، أو على الأقل أخذوا أبي وأمي.

ـ وأخوك؟

ـ هرب، كان يريد...

وأخذ يبكي لأول مرة:

ـ ماذا يجب عليَّ..

وأحس بالخجل من بكائه، لكنه لم يجد مناصًا منه.

ـ تعال اجلس بجانبي.

نهض عن مجلسه، وسار خطوة خطوة باتجاهها.

قالت:

ـ نعم، أنا هنا. امدد يدك.

لمس أصابعها، فأمسكت يده وسحبته إليها. أجلسته على السرير وطوقته بإحدى ذراعيها وضمت رأسه بيدها الأخرى إلى صدرها. كانت تفوح منها رائحة العرق، ولكن رائحة أخرى أيضًا، رائحة حلوة، لم يستطع أن يحدد نوعها، لعلها كانت عطرًا. في ذلك الظلام، كان ثمة ظلام ثان سمع فيه قلبها وهو يدق بسرعة، ربما بسرعة أكبر بكثير من سرعة قلب إنسان يقوم فقط بمواساة إنسان آخر. عندما استعاد هدوءه، بدأ يرى خطًا واهنًا من الضوء يتسلل من أسفل الباب، فسمَّر عليه عينيه. عندما دخل الزنزانة، لا بد أنها رأته من مكانها هذا. لفت بطانيتها عليه وعلى نفسها، وحضنته بقوة. لم تكن بدفء المدفأة التي جلس بجانبها قبل قليل، لكنها في الوقت نفسه كانت تفوقها دفئًا. طفرت الدموع إلى عينيه من جديد، ولكن بإحساس آخر هذه المرة. أراد أن يسألها عن سبب اعتقالها، لكنه لم يجرؤ على السؤال، فهي قد تكون معتقلة بتهمة المتاجرة في السوق السوداء. سمعها تزدرد لعابها.

قالت بصوت هامس:

ـ لا أعرف اسمك ويجب ألا أعرفه أيضًا. ويجب عليك ألا تعرف اسمي كذلك، ولكن هل تعدني بأن لا تنسى شيئًا واحدًا في حياتك كلها؟

ـ ما هو؟

ـ كم عمرك؟
ـ أقارب الثالثة عشرة، سيدتي.
ـ كف عن قول «سيدتي»! اسمعني. سوف يحاولون إقناعك بأشياء كثيرة، لكن لا تنسَ أبدًا أن الألمان هم الذين أضرموا النار في بيتك. من فعل ذلك هو الذي فعله، وليس أحدًا آخر.
قال «أنطون» ساخطًا بعض الشيء:
ـ أعلم هذا! فأنا رأيتهم بأم عيني يفعلون ذلك!
ـ صحيح، لكنهم أحرقوا بيتك لأن ذلك الوغد اُغتيل بالقرب منه. سوف يقولون لك إن الذنب ذنب المقاومة، وهي التي أجبرتهم على فعل ذلك. سوف يقولون لك إن المقاومين كانوا يعرفون أن تصفيتهم له ستؤدي إلى مثل هذه العواقب، ولذلك فإن الذنب ذنبهم.
قال «أنطون» وهو يعتدل في جلوسه بعض الشيء، ويحاول صياغة أفكاره في كلمات:
ـ أوه! ولكن إذا كان الأمر كذلك، فلن... فلن يكون هناك مذنب قط. سيكون بإمكان الجميع أن يفعل ما يريد.
كان يشعر بأصابعها تداعب شعره.
بدأت بنبرة مترددة:
ـ هل تعرف... هل تعرف اسم ذلك الرجل؟
أجاب:
ـ «بلوخ».
وشعر في اللحظة ذاتها بيدها على فمه.

ـ اخفض صوتك.

فهمس قائلًا:

ـ «فاكه بلوخ». كان يخدم بالشرطة. كان عميلًا قذرًا.

فسألت بصوت خافت جدًا:

ـ هل رأيته؟ هل مات حقًا؟

أحنى «أنطون» رأسه بالإيجاب. حين أدرك أنها لن تستطيع رؤيته وهو يحني راسه، وأنها تستطيع أن تحس به في أحسن الأحوال، قال:

ـ نعم، وشبع موتًا.

وتراءت لعينيه بقعة الدم على الثلج.

ـ ابنه رفيقي في الصف. هو أيضًا يدعى «فاكه».

سمعها تتنفس الصعداء.

قالت بعد مضي بضع لحظات:

ـ هل تعرف لو أن المقاومين لم يفعلوا ذلك، لقتل ذلك المدعو «بلوخ» مزيدًا من الناس، ومن ثم...

وسحبت ذراعها من حول كتفيه فجأة وأجهشت بالبكاء. ارتعب «أنطون». أراد أن يواسيها، لكنه لم يعرف كيف عليه أن يفعل ذلك. استوى في جلوسه، ومد يده برفق حتى لمس شعرها: شعرًا سميكًا وشعثًا.

ـ لماذا تبكين؟

أخذت يده وضغطتها على صدرها، وقالت بصوت مخنوق:

ـ ما يحدث شيء فظيع! الحياة جحيم، جحيم! أنا مسرورة بأنها ستنتهي قريبًا، فأنا لم أعد أستطيع..

كان يحس بصدرها الناعم نعومة هلامية في راحة يده، نعومة لم يسبق له أن شعر بمثلها من قبل، لكنه لم يجرؤ على تحريك يده.

ـ ما الذي سينتهي قريبًا؟

أخذت يده بين يديها الاثنتين. أحس من صوتها بأنها قد أدارت إليه وجهها.

ـ الحرب، الحرب طبعًا. إنها مجرد بضعة أسابيع وينتهي كل شيء. الأمريكان وصلوا إلى نهر الراين، والروس إلى نهر «الأودر».

ـ كيف لك أن تكوني متأكدة من هذا؟

لقد قالت ذلك بيقين تام، وهو الذي اعتاد في البيت أن يسمع أشياء غامضة يُعتقد أنها على نحو معين، ويتبين فيما بعد أنها على نحو آخر. لم تجب عن سؤاله. على الرغم من أن الضوء المتسلل من أسفل الباب كان خافتًا جدًّا، إلا أنه بدأ يميز معالم رأسها وجسمها، وكذلك شعرها المشعث المنفوش بعض الشيء: من ذلك المكان الذي تجلس فيه، اقتربت منه ذراع.

ـ هل تسمح لي أن أتحسس وجهك لأعرف كيف تبدو ملامحك؟

وأخذت أناملها الباردة تتحسس برفق جبينه، فحاجبيه، فخدَّيه، فأنفه، فشفتيه. تركها تفعل ذلك وهو جالس في سكون، وقد أمال رأسه إلى الوراء بعض الشيء، فقد كان يشعر بأن ما تفعله شيء مهيب، نوع من الطقوس، مثل تلك الطقوس التي تُمارس في أفريقيا. سحبت يدها فجأة، وتأوهت بعمق.

سألها في ارتياع:

ـ ما بكِ؟

ـ لا شيء. دعك من هذا..

كانت قد انحنت بجذعها إلى الأمام.

ـ هل تتألمين؟

ـ لا. لا شيء. حقًا لا شيء.

واعتدلت في جلستها، ثم قالت:

ـ في إحدى المرات قضيت ليلة أكثر ظلامًا من هذه الليلة. كان ذلك قبل بضعة أسابيع.

ـ هل تعيشين في «هيستيدة»؟

ـ لا تسألني هذا السؤال. من الأفضل لك ألا تعرف شيئًا عني. ستفهم السبب فيما بعد. اتفقنا؟

ـ اتفقنا.

ـ أصغ إليَّ. القمر غير بازغ في هذه الليلة، لكنها مع ذلك ليلة مضيئة. قبل بضعة أسابيع لم يكن القمر بازغًا أيضًا، لكن السماء كانت ملبدة بالغيوم ولم يكن الثلج قد تساقط على الأرض. ذهبت لزيارة صديق ساكن في الحي وبقيت أتسامر معه حتى منتصف الليل، بعد بدء حظر التجوال بكثير. عندما غادرت، كان الظلام حالكًا إلى حد يستحيل معه أن يراني أحد. أما أنا فأعرف الحي جيدًا، فمشيت إلى البيت وأنا أتلمس الجدران والأسياج. لم أكن أرى أي شيء، حتى لو لم تكن لديَّ عينان لما تغير شيء في الموضوع. خلعت حذائي، لكي لا يُسمع وقع خطواتي على الأرض. لم أكن أرى شيئًا على الإطلاق، لكنني في كل خطوة كنت أعرف أين أنا على وجه الدقة، أو هكذا كان

يخيل إليّ. كنت أرى بعين خيالي كل شيء أمامي، فأنا مشيت في ذلك الطريق مئات المرات بل ربما آلاف المرات، وأعرف كل ركن فيه، وكل سياج، وكل شجرة، وكل حافة رصيف، وكل شيء. لكنني فجأة أضعت الطريق، فلم يعد أي شيء في مكانه الصحيح. تحسست شجيرة في المكان الذي كان يجب أن أتحسس فيه إطار نافذة، وتحسست عمود كهرباء في المكان الذي ينبغي أن يكون فيه مدخل مرآب. خطوت بضع خطوات أخرى فلم أعد أتحسس أي شيء. كنت ما أزال أقف على بلاط الشارع، لكنني عرفت أنني قريبة من القناة، فخشيت أن أقع فيها إن خطوت خطوة أخرى. جثوت على يديَّ وركبتيَّ وأخذت أحبو في ذلك المكان برهة من الزمن. لم يكن لديَّ كبريت ولا مصباح يدوي. فقدت الأمل في آخر الأمر، فجلست في مكاني أنتظر انبلاج الفجر. هل لك أن تتصور أنني كنت أشعر بأنني الشخص الوحيد في هذا الكون؟

سأل «أنطون» وقد انبهرت أنفاسه:

ـ وهل بكيت؟

خُيل إليه أنه يستطيع أن يرى في هذا الظلام ما لم يكن بالإمكان رؤيته في ذلك الظلام.

أجابت بضحكة:

ـ لا، لم أبكِ، لكنني كنت خائفة فعلًا. ربما من السكون أكثر من الظلام. كنت أعرف أن الناس يعيشون في الحي، لكنني أحسست أن كل شيء قد اختفى من الوجود، وأن العالم قد

توقف عندي. كنت خائفة، لكن خوفي لم يكن يمت إلى الحرب بصلة. وكنت أشعر فوق ذلك ببرد فظيع.

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ ماذا تتصور؟ كنت قد جلست في الشارع أمام بيتي. هل لك أن تتصور هذا؟ فأنا ما إن خطوت خمس خطوات حتى وصلت إلى البيت.

قال «أنطون» وقد غاب عن باله تمامًا في أي مكان يقع ولأي سبب:

ـ أنا أيضًا حدث معي مثل هذا الشيء، عندما كنت نائمًا في بيت خالي في أمستردام.

ـ لا بد أن ذلك كان في الماضي البعيد.

ـ لا، كان ذلك في الصيف الماضي، عندما كانت القطارات ما تزال تعمل. أعتقد أنني كنت أحلم حلمًا مزعجًا، فاستيقظت من النوم، وأردت أن أقوم من السرير لأذهب إلى المرحاض. كان الظلام دامسًا. لقد اعتدت في البيت أن أقوم من السرير من جهة اليسار، ولكن عندما فعلت ذلك هناك اصطدمت بالحائط. على جهة اليمين حيث يوجد الحائط دائمًا، لم يكن يوجد أي شيء. خفت كثيرًا. كان ذلك الحائط يبدو أكثر قساوة وسماكة من حائط عادي، والمكان الذي لم يكن الحائط موجودًا فيه، بدا مثل وادٍ عميق.

ـ وهل بكيت؟

ـ أكيد، هذا لا شك فيه.

ـ وعندئذ أشعل خالك أو زوجة خالك الضوء، فتذكرت أين أنت.
ـ أجل، خالي. كنت قد وقفت فوق السرير و...
ـ هسس!

طرق سمعها وقع خطوات تهبط السلم. أحاطته بذراعيها من جديد، وأرهفت السمع في سكون. إنها أصوات في الممر وقرقعة مفاتيح، ثم ضوضاء استمرت لحظة قصيرة، لم يستطع «أنطون» أن يحدد ماهيتها، ثم فجأة شتائم وصوت صفعات مكتوم. هناك شخص يُسحل على أرض الممر، في حين يظل شخص آخر في الزنزانة يطلق الشتائم. يُقفل الباب بصفقة مدوية. الرجل في الممر ما يزال يتلقى الصفعات أو الركلات، فهو يصرخ بأعلى صوته. يتعالى وقع أحذية أخرى وهي تهبط السلم، يزداد الصراخ حدة، يبدو أن الرجل يُسحل فوق درجات السلم إلى الطابق العلوي. يسود الصمت، يضحك شخص، ثم تنقطع الأصوات فلا يُسمع أي شيء.

سأل «أنطون» وهو يرتعد من الخوف:
ـ مَن كان ذلك الرجل؟
أجابت:
ـ لا أعرف. أنا أيضًا لا أقيم هنا منذ زمن طويل. هؤلاء الأوباش... أحمد الله أن نهايتهم ستكون على حبل المشنقة، وبأسرع مما يتصورون. صدقني! إن الروس والأمريكان لن يرحموا هؤلاء الأوغاد. دعنا نفكر بأشياء أخرى.
واستدارت إليه، وتخللت شعره بيديها الاثنتين:
ـ ما دام في مقدورنا أن نفعل ذلك.

ـ ماذا تقصدين؟
ـ أقصد، ما داموا تركونا معًا في هذا المكان. أنت سيطلقون سراحك غدًا.
ـ وأنتِ؟
ـ ربما لا.
قالت ذلك بنبرة تدل على أنه يوجد مع ذلك احتمال إطلاق سراحها في اليوم التالي:
ـ لكن أموري ستعود إلى خير ما يرام، فلا تقلق. عمَّ تريد أن نتحدث؟ أم أنك تشعر بالتعب؟ هل تريد أن تنام؟
ـ كلَّا.
ـ حسنًا إذن! تحدثنا كثيرًا عن الظلام، فهل لنا أن نتحدث الآن عن النور؟
ـ أجل.
ـ تخيل معي إذن: نور ساطع. شمس. صيف. وماذا أيضًا؟
ـ الشاطئ.
ـ نعم، الشاطئ عندما لم يكن يعج بالملاجئ والحواجز. والتلال الرملية، والشمس التي كانت تشرق على سفوحها. هل تتذكر كم كانت مبهرة للأبصار؟
ـ طبعًا! والأغصان الواقعة على الأرض كانت باهتة دائمًا من تأثير الشمس.
وفجأة، ومن دون تمهيد، بدأت تتحدث وكأنها تتحدث إلى شخص ثالث يقبع معهما في الزنزانة:

ـ أجل، النور! ولكن النور ليس هو النور فحسب. أقصد... أردت ذات مرة، في الماضي، أن أكتب قصيدة أشبّه فيها النور بالحب، لا بل الحب بالنور. طبعًا، ذلك ممكن أيضًا، يمكنك أن تشبه النور بالحب. لعل ذلك أجمل، لأن النور أقدم من الحب. المسيحيون لا يتفقون مع هذا الرأي، ولكن حسنًا، هم مسيحيون. أم أنك مسيحي؟

ـ لا أظن ذلك.

ـ في تلك القصيدة أردت أن أشبّه الحب بذلك النور الذي يتراءى أحيانًا على الأشجار، بُعيد الغروب: ذلك النور الساحر. إنه ذات النور الذي تزخر به نفس الإنسان الذي يحب إنسانًا آخر. الكره هو الظلام، وهو شيء سيئ، على الرغم من أننا يجب أن نكره الفاشين، وهذا ليس بالأمر السيئ. لو سألتني هل هذا ممكن، لأجبتك بأنه ممكن، لأننا نكرههم باسم النور، في حين هم يكرهون الآخر باسم الظلام. نحن نكره الكره، لذلك فإن كرهنا أحسن من كرههم. ولكن، لذلك أيضًا نحن نعاني أكثر منهم. فالأمور بالنسبة إليهم في غاية البساطة، أما بالنسبة إلينا فهي معقدة. يجب أن نتطبع ببعض خصالهم كي نقدر على محاربتهم، وهذا يعني أن نتخلى عن جزء من خصالنا، في حين هم ليسوا بحاجة إلى ذلك، فهم يستطيعون إبادتنا من دون أن تهتز لهم شعرة. يجب علينا أولًا أن نحطم جزءًا من أنفسنا كي نستطيع تحطيمهم. أما هم فلا يحتاجون لفعل ذلك، ويستطيعون أن يبقوا كما هم، ولهذا السبب هم يتمتعون بهذه القوة كلها.

لكنهم مع ذلك سيخسرون في نهاية المطاف، لأن نفوسهم لا تزخر بالنور. الأمر الوحيد الذي يجب أن نحرص عليه هو أن لا نتطبع بخصالهم كلها، وأن لا نتخلى عن خصالنا كلها، لأننا لو فعلنا ذلك، لمنحناهم الفرصة لأن ينتصروا علينا..

وتأوهت من جديد، لكنها تابعت قبل أن يستطيع التفوه ببنت شفة. لم يفهم كلمة واحدة مما قالت، لكنه كان يشعر بالاعتزاز لأنها تحادثه كما لو أنه إنسان بالغ.

ـ كما أنه يوجد شيء آخر له صلة بذلك النوع من النور. عندما يحب الإنسان إنسانًا آخر، يقول إنه يحبه لأنه إنسان جميل جدًا بطريقة أو بأخرى، جميل الطلعة أو الروح، أو جميل الطلعة والروح على حد سواء، في حين لا يرى الآخرون من هذا الجمال شيئًا، ولا يكون هو على شيء من الجمال في أغلب الأحيان. ولكن الإنسان الجميل دائمًا وأبدًا هو الإنسان الذي يحب، وذلك لأنه يحب، فحبه هو الذي يجعله يتألق بذلك النور. هناك رجل يحبني ويراني بطريقة أو بأخرى في غاية الجمال، مع أنني لست جميلة على الإطلاق. إنه جميل، مع أنه في غاية القبح من نواحٍ عديدة. وأنا أيضًا جميلة، ولكن فقط لأنني أحبه، مع أنه لا يعرف ذلك. هو يظن أنني لا أحبه، لكنه مخطئ في ظنه. أنت الوحيد الذي تعلم بحبي له، مع أنك لا تعرف من أكون ومن يكون هو. هو رجل متزوج، وعنده ولدان في مثل عمرك ما يزالان في حاجة إليه، مثلما أنت في حاجة إلى أبيك وأمك..

وأمسكت عن الكلام فجأة.

سأل «انطون» بصوت خافت:

ـ أبي وأمي! أين عساهما يكونان الآن يا ترى؟

ـ لا بد أنهما في سجن من السجون. أظن أنك ستراهما غدًا.

ـ ولكن لماذا يُسجنان في مكان غير الذي أنا فيه؟

ـ سؤال وجيه! لأننا متورطون مع أوغادا! ولأن الفوضى مستشرية في البلاد، فهم يفعلون ما يريدون. إنهم يتبرزون في سراويلهم من الخوف في هذه اللحظة، فلا تقلق. أما أنا فأشعر بقلق بالغ على أخيك.

قال:

ـ عندما هرب، أخذ معه مسدس «بلوخ».

وتمنى أن لا ترى في الأمر سوءًا.

مضت بضع ثوانٍ قبل أن تقول:

ـ يا يسوع..

أحس من نبرة صوتها بأن ذلك شيء قاتل. ما الذي حدث لـ«بيتر» يا ترى؟ فجأة لم يعد يستطيع تحمل المزيد، فكوَّم نفسه في حضنها، واستسلم في تلك اللحظة لنوم عميق.

٤

بعد ساعة، أو ربما ساعة ونصف الساعة، استيقظ «أنطون» على ذلك الصراخ الذي كان يدوي منذ سنوات عديدة في أرجاء أوروبا كلها. لم يكد يفتح عينيه حتى أعشاه ضوء مصباح يدوي مرة أخرى. أمسكوه من ذراعه، وسحبوه من فوق السرير إلى الممر بسرعة بلغت من القوة أنه لم يتمكن من رؤية رفيقته في الزنزانة. كان الممر يعج بالألمان ورجال الشرطة. صفق ضابط من «الإس إس» باب الزنزانة، ضابط مرسوم على قبعته جمجمة وعظمتان متصالبتان، وعلى ياقة سترته نجوم وأوسمة فضية، وهو رجل وسيم في نحو الخامسة والثلاثين من العمر، له وجه نبيل متناسق القسمات، مثل الوجوه التي كان «أنطون» يراها كثيرًا في الصور المنشورة في كتب الشباب.

صعد السلم وهو يصرخ فيهم بالألمانية حينًا وبالهولندية حينًا آخر:

- يسجنون صبيًا في هذا العمر! ويسجنونه أيضًا مع تلك الإرهابية! هل فقد الجميع صوابه؟ وتلك الشمطاء الشيوعية اللعينة يجب

ان لا تكون هنا أيضًا. كان يستطيع أن يصطحبها إلى أمستردام، إلى مكتبه في شارع «الأوتيربا». من حسن الحظ، لم يأتوا لتحريرها، وإلا لكلف ذلك حياة بضعة موظفين هنا! ثم ما حظيرة الخنازير هذه؟ ومن أعطى الأوامر على هذا النحو؟ واحد من المخابرات العامة، أليس كذلك؟ طبعًا، عميل مزدوج آخر! لا بد أنه أراد أن يخبئ دليلًا صغيرًا هنا، في «هيمستيده»، ليلعب دور بابا نويل بعد الحرب، الصديق الحميم للمقاومة، بالسرور «الجيستابو» به! وهذا الصبي يجب أن يكون سعيدًا لبقائه على قيد الحياة. كيف جاء هذا الدم على وجهه؟

كان «أنطون» قد وقف في صالة الانتظار للمرة الثانية، ورأى سبابة مغمدة بالقفاز مصوبة نحوه. دم؟ وتحسس وجنتيه. دلّه شرطي على مرآة حلاقة مدورة، معلقة على مشبك معدني مثبت على الحائط. وقف «أنطون» على رؤوس أصابعه، ورأى في الجهة المكبرة منها آثار الدم المتخثر التي تركتها أصابعها على وجهه الأبيض وشعره.

ـ هذا ليس دمي!

صاح الضابط:

ـ إنه دمها إذن! هذا ما كان ينقصنا! إنها مصابة بجراح. استدعوا الطبيب على الفور، فهو ما يزال بحاجة إليها. أما بالنسبة إلى هذا الصبي، فخذوه إلى «مركز قيادة المدينة» ليقضي الليلة هناك، وليرجعوه إلى أهله في الصباح. هيا، اسرعوا! ماذا تنتظرون أيها الهولنديون الأغبياء! لا عجب في أنكم تُقتلون الواحد تلو

الآخر. ذلك الأحمق «بلوخ»، المفتش العام للشرطة، لا يحلو له الذهاب على دراجته الهوائية إلا في الظلام!

اقتاده ألماني بخوذة إلى خارج المبنى وهو متدثر بالبطانية. كانت الليلة منيرة كالكريستال. كانت تقف أمام الباب سيارة مرسيدس، للضابط طبعًا، سطحها من قماش الكتان، ولها ضاغطتان كبيرتان على جانبي غطاء المحرك. كان الألماني قد تسلح ببندقية على ظهره، وربط أطراف معطفه الطويل ذي اللون الأخضر القاتم حول ساقيه، الأمر الذي جعله يمشي مشية الدب الخرقاء بالساقين المبتعدتين إحداهما عن الأخرى. كان على «أنطون» أن يجلس خلفه على الدراجة النارية ويتشبث به جيدًا. حبك البطانية حول نفسه، ولفَّ ذراعيه حول الكتفين العريضتين، وألصق صدره بالظهر المدجج بالبندقية.

اجتازا الشوارع المقفرة تحت النجوم وهما ينزلقان ويتأرجحان، صوب مدينة «هارلم» التي تستغرق الرحلة إليها أقل من عشر دقائق. كان الثلج يُسحق تحت عجلتي الدراجة النارية، وهدير المحرك يبدو بكل صخبه غير قادر على خلخلة السكون. كانت تلك هي أول مرة يركب فيها «أنطون» دراجة نارية. على الرغم من البرد القارس، بذل قصارى جهده لكي لا يعود إلى النوم في الحال. كانت الليلة مضيئة وظلماء في الوقت نفسه. كانت رقبة الألماني، التي تكاد تلامس عينيه، شريطًا من الأديم مكسوًّا بشعر أسود يفصل جلد معطفه عن فولاذ خوذته. رجع «أنطون» بمخيلته إلى ما حدث معه في المسبح في السنة الماضية: كان المسبح يُخلى عادة في ساعة محددة لـ«قوات الجيش الألماني»، ولكن لشدة ما تباطأ في حجرة

استبدال الملابس، تأخر به الوقت. وسمع صوت قافلة من الجنود وهم يصلون إلى ساحة المسبح، مطلقين حناجرهم للغناء، قارعين الأرض بأحذيتهم العسكرية. «هاي-لي، هاي-لو، هاي-لا!». وما لبثوا أن دخلوا الصالة مخلخلين سكونها بضجيجهم، وضحكهم، وصخبهم. لم يسمع صوت أبواب حجرات استبدال الملابس، فقد خلعوا ملابسهم في الصالة العامة، وساروا بعد مضي دقيقة واحدة بأقدامهم الحافية على الأرض المبللة باتجاه حوض السباحة. حين ساد الصمت، تجرأ «أنطون» على الخروج، فرآهم عند نهاية الممر الفاصل بين حجرات استبدال الملابس، خلف الباب الزجاجي، وقد تحولوا على نحو مفاجئ وغير مفهوم إلى بشر مثل كل البشر، رجال عاديين، وجميعهم عراة، بأجسام بيضاء ووجوه ورقاب سمراء، وسواعد مسمرّة إلى الكوعين. استطاع أن يجد منفذًا إلى الخارج، فرأى في صالة الملابس (التي لا يستخدمها في الحالات العادية سوى الفقراء من الناس) بدلاتهم العسكرية المتروكة على المشاجب، وأقنعتهم، وأحزمتهم، وأحذيتهم العسكرية: ذلك التهديد كله، وذلك العنف كله المنهمك في أخذ قسط من الراحة... بالحركة نفسها التي ينهض بها الإنسان المخدَّر بالنعاس من فراشه، بالحومان نفسه المتميز بانعدام الوزن، تفك البدلات العسكرية نفسها من المشاجب، وتحوم في الهواء صوب كومة الحطب المشتعلة، النار المتلظية، بالقرب من رواقٍ خشبي لفيلًا بيضاء - ولكن من حسن الحظ يحدث هذا كله تحت المياه، في قناة مائية، أو في حوض سباحة، فها هي لظاها تؤول إلى الانطفاء.

انتفض من إغفاءته. كانا قد وقفا في محمية «ده هاوت»، عند المعبر المؤدي إلى الخندق المحفور حول «مركز قيادة المدينة»، فرأى الأسلاك الشائكة في كل مكان. سمح لهما أحد الحراس بالعبور. في فناء المركز المظلم كانت شاحنات وسيارات تروح وتجيء، وأشعة خافتة أفقية تلوح في مصابيحها الأمامية، المموهة بتغطية زجاجها وتركيب رفارف صغيرة فوقها. كان هدير محركاتها وصفير أبواقها وأصوات الصراخ والضجيج تتناقض تناقضًا عجيبًا مع خفوت الضوء الذي يمليه توخي الحذر.

أسند الجندي دراجته النارية على دعامتها، واصطحب «أنطون» إلى داخل المبنى. كانت الحركة هنا أيضًا ما تزال في أوجها، فقد كان العساكر يروحون ويجيئون، ويتصاعد رنين الهواتف وأصوات الآلات الكاتبة. كان على «أنطون» أن ينتظر على مقعد خشبي في حجرة صغيرة دافئة. نظر عبر بابها المفتوح، المطل على ممر طويل، وإذ به يرى السيد «كورتيفيخ» يخرج من باب إحدى الغرف، بصحبة جندي من دون قبعة ومتأبط بعض الأوراق، ويقطع الممر، ويختفي في الباب المقابل. لا بد أنهم عرفوا ما الذي فعله. حين خطر في باله أن والديه قد يكونان أيضًا هنا، تثاءب، واتكأ على جنبه واستغرق في النوم.



عندما استيقظ من النوم، التقت عيناه بعيني رقيب كهل، يرتدي بذلة عسكرية فضفاضة، وينتعل حذاء كبيرًا وطويلًا طوله ثلاثة أرباع الساق، فحيّاه الرقيب بإحناءة لطيفة من رأسه. وجد نفسه راقدًا في

غرفة أخرى، تحت بطانية من الصوف وعلى أريكة حمراء. كان ضوء النهار قد طلع. أجاب «أنطون» ابتسامة الرقيب بمثلها. خطر بباله أن منزله لم يعد موجودًا، لكن خاطره هذا اختفى على الفور. سحب الرقيب كرسيًا إلى جانبه، ووضع فوقه كوبًا من الحليب الساخن، وطبقًا عليه ثلاث شرائح كبيرة بيضاوية الشكل من الخبز الأسمر، مدهونة بشيء شفاف له لون الزجاج المصنفر. علم «أنطون» بعد سنوات طويلة، عندما توقف في ألمانيا أثناء سفره إلى بيته في «توسكانا»، أن ذلك الشيء يُدعى دهن الإوز: «شمالتس». في حياته كلها لم يأكل شيئًا أطيب من ذلك الخبز، ولا حتى أغلى الوجبات في أرقى مطاعم العالم، بما فيها مطعم «بوكيو» في مدينة «ليون» الفرنسية، ومطعم «لاسيري» في باريس، اللذان توقف فيهما في طريق عودته من «توسكانا»، ولا استطاعت أغلى مطاعم العالم، بما فيها «لافيتا روسيلدي» و«شوميرتا» الفرنسيان، أن تقدم حليبًا يضاهي ذلك الحليب الساخن. الإنسان الذي لم يعانِ في حياته من الجوع، يستطيع الاستمتاع بتناول الطعام أكثر من غيره، لكنه لا يعرف قيمة هذه النعمة.

قال الرقيب بالألمانية:

- لذيذ، أليس كذلك؟

بعد أن جاءه بكوبٍ ثانٍ من الحليب، وراقبه بابتهاج وهو يلتهم هذا الكوب أيضًا، اقتاده إلى المرحاض ليغسل وجهه على مغسلة صغيرة. رأى «أنطون» في المرآة آثار دمها على وجهه وقد تحول لونها إلى بني غامق، فراح يزيل بتردد، وشيئًا فشيئًا، الأثر الوحيد المتبقي

منها عنده. بعد ذلك، طوَّق الرقيب كتفيه وذهب به إلى مكتب قائد المركز. تردد في الدخول على عتبة المكتب، لكن الرقيب أومأ له بأن يذهب للجلوس على الكرسي ذي الذراعين، الموضوع أمام طاولة المكتب.

كان قائد المركز، الحاكم العسكري للمدينة، يتحدث بالهاتف، فألقى نظرة خاطفة على «أنطون» من دون أن يراه حقًا، لكن بإحناءة أبوية باعثة على الاطمئنان. كان رجلًا قصيرًا وسمينًا، ذا شعر حليق أشيب، مرتديًا بدلة الجيش الألماني فضية اللون، وواضعًا حزامه بالمسدس إلى جانب قبعته على طاولة المكتب، حيث وُضعت أيضًا أربع صور مؤطرة لم يرَ منها «أنطون» سوى الجانب الخلفي المسنَد بدعامات صغيرة مثلثة الشكل. كانت صورة هتلر معلقة على الحائط المقابل له. مدَّ بصره عبر النافذة إلى الأشجار العارية من الأوراق، المكسوة بالصقيع، الهادئة البال التي لا تشهد الحروب ولا تعرفها. وضع قائد المركز السماعة على جهاز الهاتف، كتب ملاحظة في الدفتر، بحث عن شيء ما في الملفات، ثم وضع إحدى يديه على الأخرى فوق الورق النشاف، وسأل «أنطون» هل نام جيدًا. كان يتكلم الهولندية بلكنة ثقيلة، لكنها مفهومة.

أجاب «أنطون»:

- أجل يا سيدي.

قال قائد المركز:

- ما حدث البارحة شيء فظيع.

وهز رأسه برهة من الزمن.

ـ الحياة كلها دموع! الخراب نفسه في كل مكان. بيتي في «البنز» مقصوف أيضًا. كل شي مدمَّر. الأولاد ميتون.

وبقي ينظر إلى «أنطون» وهو يهز رأسه، وقال:

ـ أنت تريد قول شيء ما. قل ما عندك.

ـ أتساءل هل أبي وأمي موجودان هنا؟ البارحة أخذوهما أيضًا.

كان يدرك أنه لا ينبغي أن يتحدث عن «بيتر»، حتى لا يدلي بمعلومات قد تجعل محدثه يقتفي أثره.

عاود قائد المركز التصفح في أوراقه، ثم قال:

ـ فرع آخر قام بتلك العملية. آسف، لا أستطيع أن أفعل أي شيء. كل شيء مختلط الآن. أعتقد أنهما في مكان قريب من هنا. يجب أن ننتظر. الحرب بالأصل لن تطول أكثر من هذا. كل شيء سيصبح مثل حلم مزعج. هه؟

وضحك عند العبارة الأخيرة، ثم مدَّ ذراعيه الاثنين باتجاه «أنطون»:

ـ والآن ماذا يجب أن نفعل بك؟ هل تريد أن تبقى عندنا؟ هل تريد أن تصبح جنديًا؟

ابتسم «أنطون» أيضًا، ولم يعرف بمَ يجيب.

ـ ماذا تريد أن تصبح في المستقبل؟

وألقى نظرة على بطاقة صغيرة فضية:

ـ «أنطون إيمانويل فيلم ستينفايك».

عرف «أنطون» أنها بطاقته الشخصية.

ـ لا أعرف بعد. ربما طيارًا.

ابتسم قائد المركز، لكن ابتسامته اختفت على الفور، وقال:

ـ أوه!

ونزع الغطاء عن قلم حبر سميك برتقالي اللون:

ـ والآن دعنا نتحدث في الموضوع. هل لديك عائلة في «هارلم»؟

ـ كلّا يا سيدي.

رفع إليه قائد المركز عينيه:

ـ ليست لديك عائلة على الإطلاق؟!

ـ فقط في أمستردام. خالي وزوجته.

ـ هل تظن أنك تستطيع أن تعيش عندهما فترة طويلة؟

ـ أكيد.

ـ ما اسم خالك؟

ـ «فان ليمت».

ـ أهو الاسم الأول؟

ـ كلّا. اسمه الأول «بيتر».

ـ ومهنته؟

ـ طبيب.

شعر «أنطون» بالسرور لفكرة إقامته في بيت خاله فترة من الزمن. كان غالبًا ما يفكر بمنزله الجميل في شارع «أبولو»، فقد كان ذا رونق سحري غامض بطريقة أو بأخرى: ربما بسبب المدينة الكبيرة المحيطة به.

وبينما يكتب قائد المركز الاسم والعنوان، قال بصوت رزين بالألمانية:

ـ «فويبوس أبولو»! إله النور والجمال!

نظر في ساعة يده فجأة، ووضع قلمه على المكتب، ونهض واقفًا. قال:

ـ لحظة واحدة.

وأسرع إلى الخروج من الغرفة. في الممر صاح بشيء لأحد الجنود، فغادر الأخير راكضًا بخطوات صاخبة. حين عاد، قال لـ«أنطون»:

ـ بعد قليل ستذهب قافلة صغيرة إلى أمستردام، تستطيع أن تسافر معها.

ثم نادى:

ـ «شولتس»!

تبين أن هذا الاسم هو اسم الرقيب. أمره باصطحاب «أنطون» إلى أمستردام. وقال إنه هو نفسه سيكتب رسالة قصيرة إلى السلطات هناك، وإلى أن ينتهي من كتابة الرسالة يجب عليه أن يُلبس الولد ثيابًا دافئة. ثم توجه إلى «أنطون»، وصافحه بيد ووضع يده الأخرى على كتفه:

ـ رحلة سعيدة يا سيادة الجنرال في القوات الجوية. كن قويًا.

ـ أجل يا سيدي. وداعًا يا سيدي.

ـ أنا بخدمتك يا صغيري.

وعقف سبابته وأصبعه الوسطى وقرص بهما خد «أنطون» على سبيل المداعبة، ثم اقتاد «شولتس» «أنطون» إلى خارج المكتب.

في المخزن البارد المثقل برائحة العفونة أخذ «شولتس» يبحث

عن ثياب وهو يتكلم بلهجة لم يفهم منها «أنطون» كلمة واحدة. كانت المعاطف والأحذية العسكرية مرتبة في صفوف طويلة، والخوذات الجديدة مصفوفة فوق الرفوف. ظهر «شولتس» بكنزتين من الصوف السميك فضي اللون، وطلب من «أنطون» أن يرتدي إحداهما فوق الأخرى، ثم عقد شالًا حول أذنيه، ووضع خوذة فوق الشال. عندما أخذت الخوذة الثقيلة تتذبذب فوق أذنيه، حشا «شولتس» الورق خلف بطانتها الجلدية، وأحكم شدَّ رباطها فاعتدلت بعض الشيء. وقف «شولتس» على مسافة منه، ونظر إليه، فهز رأسه غير راضٍ عن مظهره. التقط معطفًا من أحد الصفوف في أقصى اليسار، وقاسه على جسمه، ثم أخرج مقصًّا ضخمًا من أحد الأدراج، ومدَّ المعطف على الأرض، وراقبه «أنطون» بعينين متسعتين وهو يفصِّل معطفًا على مقاسه: قاصًّا شريطًا عريضًا من الأسفل ومن الأكمام. شدَّ «شولتس» حزامًا رثًّا حول خصر «أنطون» من أجل أن يُبقي كل شيء في مكانه. أعطاه في آخر الأمر قفازين كبيرين مبطنين، ثم انفجر بالضحك، وقال جملة غير مفهومة، وضحك بصوت أعلى.

ليت رفاقه يستطيعون رؤيته على هذه الهيئة! لكن هؤلاء جالسون الآن في بيوتهم وهم يشعرون بالضجر ولا يدرون شيئًا مما يجري. في الطابق العلوي ارتدى «شولتس» هو أيضًا معطفًا وخوذة، وبعد أن أحضر من عند قائد المركز الرسالة التي وضعها في جيب معطفه الداخلي حين وصوله إلى الممر، خرجا من المبنى.

كانت زخات جليد لامع على شكل إبر رفيعة تتساقط من السماء الداكنة. كانت القافلة العسكرية الصغيرة تقف في انتظارهما عند

المرآب على الناحية الأخرى من الساحة المسيّجة: أربع شاحنات كبيرة، مغطاة صناديقها بأقمشة قنب رمادية، وفي مقدمتها عربة طويلة مفتوحة، بجلس على مقعدها الأمامي بجانب السائق ضابط متذمر من تأخيرهما، وعلى المقعدين الخلفيين أربعة جنود ملتفعين بملابس سميكة، وواضعين رشاشاتهم على حجورهم. ركب «أنطون» مقصورة الشاحنة الأولى، وجلس بين جندي متجهم الوجه وراء المقود وبين «شولتس». ما أكثر ما حدث مع «أنطون»! «أنطون» الذي كان ما يزال صغيرًا على التفكير في الماضي، كل حدث كان يعيشه، يطغى على ما يسبقه من أحداث ويكاد يلغيها من ذاكرته.

خرجوا من «هارلم» عبر ضواحيها، وبلغوا طريق أمستردام الطويل ذا الاتجاهين، الممتد على طول القناة المائية القديمة. كان الطريق خاليًا من حركة المرور. على جانبه الأيسر كانت الأسلاك الموجهة للقطارات والترامات تمتد وفق التماوجات الأنيقة لسكة الحديد على الأرض، وخطا السكة ينتصبان هنا وهناك مثل مجستي الحلزون، الأعمدة أيضًا واقعة في بعض الأماكن. كانت الأراضي على كل الجهات رازحة تحت طبقة من الجليد. كانوا يسيرون ببطء، ولا يتجاذبون أطراف الحديث بسبب الضوضاء في المقصورة. كل شيء كان من الحديد القذر، المصلصل، الذي يخبره بطريقة أو بأخرى عن الحرب أكثر من كل ما سمعه عنها من قبل. النار وهذا الحديد هما الحرب بعينها.

عبروا شوارع قرية «هالف فيغ» من دون أن يصادفوا أحدًا، واجتازوا مصنع السكر المتوقف عن العمل، وبلغوا الجزء الأخير

من الطريق الذي يبعد عشرين كيلومترًا عن أمستردام. رأى «أنطون» المدينة تلوح في الأفق، خلف الجسر الرملي، الذي أقيم هناك ذات يوم لتشييد طريق سريع يحيط بالمدينة، حسبما أخبره والده. كانوا يعبرون حقول الخُث الرازحة تحت الثلوج، عندما غيرت السيارة الأمامية طريقها على نحو مفاجئ إلى حافة الطريق، وأخذ الجنود يلوحون بأذرعهم، ويصرخون، ويقفزون من العربة. في تلك اللحظة رأى «أنطون» الطائرة أيضًا، وهي تطير بالعرض فوق الطريق على مسافة بعيدة، وحجمها لا يزيد على حجم البعوضة. داس السائق على الفرامل بقوة وهو يزأر:

ـ هيا اقفز!

وقفز من الشاحنة من دون أن يطفئ المحرك، وحذا «شولتس» الجالس على طرف «أنطون» الآخر حذوه. تعالى الصراخ من كل مكان، وجثا الرجال الذين كانوا في المقدمة خلف سيارتهم، ساندين رشاشاتهم الجاهزة للإطلاق على صدورهم. رأى «أنطون» من طرف عينه شخصًا ينادي عليه ويلوح له، كان «شولتس»، لكنه لم يستطع تحويل عينيه عن ذلك الشيء الصغير الذي عاد إلى الطريق في حركة نصف دائرية واتجه إليه في خط مستقيم، وحجمه يكبر شيئًا فشيئًا. إنه «سبيتفاير»! لا، «موسكيتو»! لا، «سبيتفاير»! تسمّر في مكانه وأخذ يحدق في ذلك الحديد المرتج الذي يسرع نحوه كما لو كان مغرمًا به: إنه لن يلحق الأذى به، به هو، فهو يقف إلى جانبهم، ولا شك في أنهم يعرفون ذلك، فيوم أمس كان... ورأى فرقعات لامعة تحت جناحيها، أمورًا تافهة، ليست بذات أهمية. كان على الأرض أيضًا قد

شُرع بإطلاق النيران، وتصاعد الدوي والأزيز والمعمعة من جميع الجهات، حتى لقد شعر «أنطون» بدوي الانفجارات تهز كيانه، ولأنه ظن أن الطائرة ستصدمه، غطس إلى ما تحت لوحة القيادة وهو يحس بهدير المحرك يمر من فوقه مثل المحدلة.

بعد برهة قصيرة سُحب إلى تحت المقود ومنه إلى الخندق الجانبي، فرأى عشرات الجنود ينهضون واقفين على يمين الطريق ويساره. كان أنين يتناهى إلى سمعه من جوار الشاحنة الأخيرة التي يتصاعد منها الدخان. حين توارت الطائرة بين الغيوم، وبدا أنها لن تعود، ركض معظم الجنود إلى ذلك المكان. ذهب «أنطون» إلى الطرف المقابل ليلحق بالرقيب، وقلبه ما يزال يخفق بشدة، وشظايا الجليد التي يبلغ حجمها حجم إبر الفونوغراف تعصف بوجهه. على الطرف الآخر من الشاحنة، قريبًا من درجة الصعود إليها، أدار اثنان من الجنود شخصًا على ظهره برفق وروية. كان الشخص هو «شولتس». كان صدره من الجانب قد تحول إلى مستنقع داكن من الدماء والأشلاء، والدم يسيل من أنفه وفمه. كان ما يزال على قيد الحياة، ولكن من شدة ما كان وجهه متشنجًا من الألم، أحس «أنطون» بأنه يجب أن يفعل له شيئًا على الفور. لم يكن بسبب رؤيته لذلك الدم كله، بقدر ما كان بسبب شعوره بالعجز وقلة الحيلة، أن تحول عنهم فجأة وقد انتابه الغثيان والتعرق. انتزع الخوذة عن رأسه، وفك الشال عن أذنيه، وتحسس بيده رفرف الإطار المرتج، بينما القيء يندفع من فمه ملء حنجرته. في الوقت نفسه تقريبًا شبت النار في الشاحنة الأخيرة.

بعد ذلك لم يكد يستوعب شيئًا مما حدث. وضع أحدهم الخوذة على رأسه من جديد، واقتاده إلى العربة المفتوحة. أصدر الضابط أوامره بصوت مزمجر، فأرقدوا «شولتس» والجرحى الآخرين، وربما الموتى أيضًا، في الشاحنة الثالثة، وصعد الجنود الآخرون كلهم إلى الشاحنتين الأولى والثانية. ما إن مضت بضع دقائق حتى كانت القافلة العسكرية قد استأنفت طريقها، تاركة الشاحنة المحترقة وراءها.

بينما تقترب أمستردام، بقي الضابط الجالس أمامه يصرخ في وجه السائق من دون توقف. فجأة، سأل «أنطون» بالألمانية من يكون بحق الشيطان، «اللعنة!»، وإلى أين هو ذاهب؟ فهم «أنطون» سؤاله، ولكن لشدة ما تقطعت أنفاسه من الخوف والارتباك، لم يستطع الإجابة عن السؤال، الأمر الذي جعل الضابط يضرب الهواء بيده ويقول إنه هو أيضًا يرى هذا كله قرفًا بقرف. لم يكن وجه «شولتس» يفارق عيني «أنطون». كان ممددًا بالقرب من الشاحنة. كان يريد إخراجه من المقصورة، وهو الآن سيموت حتمًا..

دخلوا المدينة عبر الجسر الرملي. بعد مسافة منه، على إحدى النواصي، نهض الضابط عن مقعده وأشار إلى سائقي الشاحنتين الأوليين أن يسيرا على نحو مستقيم ـ لمح «أنطون» قيأه على غطاء محرك الشاحنة الأمامية ـ ثم أومأ إلى سائق الشاحنة الثالثة أن يلحق به. ساروا برهة من الزمن في شارع محاذٍ لقناة عريضة يكاد يخلو من الناس؛ من حين إلى آخر كانوا يعبرون بشارع فرعي تبحث فيه مجموعات من نساء وأطفال في ثياب بالية عن شيء ما بين خطي سكة الترام الصدئين، في الأماكن التي كسروا الحجارة فيها. ثم عبروا

حارات ضيقة هادئة بمنازل آيلة للسقوط، ووصلوا إلى بوابة مستشفى «الفيستر». خلف البوابة كان المستشفى مدينة قائمة بذاتها، بشوارع ومبانٍ كبيرة. توقفوا عند أحد العنابر حيث ينتصب سهم إشارة مكتوب عليه بالألمانية «مستشفى ميداني». ظهرت في الحال بضع ممرضات من المبنى، كان مظهرهن يختلف تمامًا عن مظهر «كارين»، فقد كنَّ يرتدين سترات داكنة طويلة إلى الكاحلين، وقبعات بيضاء أصغر حجمًا بكثير تضم شعورهن مثل الأكياس. ترجل الضابط والجنود الذين كانوا جالسين في المقاعد الخلفية من السيارة، ولكن حين همَّ «أنطون» باللحاق بهم، منعه السائق من ذلك.

عادا هما الاثنان إلى المدينة. أخذ «أنطون» ينظر حوله وهو يشعر بثقل عظيم في رأسه. بعد انقضاء بضع دقائق عبرا بالجهة الخلفية لمتحف «رايكز» الذي زاره مع والده في السنة الماضية، ووصلا إلى ساحة رحبة يحيط سياج بمركزها، ويقوم فيها مبنيان محصَّنان ضخمان، مثلثا الشكل. على نهايتها الأخرى، قبالة متحف «رايكز»، يقوم مبنى على طراز معبد يوناني بقيثارة على سطحه، وتحت قوصرته مكتوب بأحرف كبيرة: «مبنى الحفلات الموسيقية». أمامه مبنى منخفض مكتوب عليه بالألمانية «نادي إيريكا للجيش». على طرفيه الأيسر والأيمن فيلَّات كبيرة، بدا واضحًا أن الألمان قد استولوا على عدد منها. توقفا عند إحدى هذه الفيلَّات. ألقى حارس ببندقية على كتفه نظرة على «أنطون»، وسأل السائق هل هذا الصبي من دفعة الاستدعاء الأخير!

في الصالة أيضًا أخذوا يسخرون منه: من هذا الصبي الصغير

الذي يرتدي خوذة ويلبس معطفًا أكبر بكثير من مقاسه، بيد أن ضابطًا كان يهمُّ في تلك اللحظة بصعود السلم وضع حدًّا لسخريتهم. كان يلبس حذاء عسكريًا لامعًا، ويتزين بأنواع مختلفة من النياشين والأوسمة والشارات، ويتقلد بقلادة «الصليب الحديدي». لعله كان جنرالًا. توقف عن السير، وخلفه أربعة من الضباط الشباب، وسأل عما يحدث. لم يفهم «أنطون» إجابة السائق الذي أسرع إلى الوقوف باستعداد، لكنها كانت بطبيعة الحال عن الهجوم الجوي. بينما الجنرال يصغي إليه، أخرج سيجارة مصرية من علبة صغيرة، وراح يدقها على غطاء العلبة الذي رأى «أنطون» اسم «استامبول» مكتوبًا عليه، فأسرع أحد الضباط إلى إشعال عود كبريت له. ألقى الجنرال رأسه إلى الوراء، نفث دخان سيجارته بخط مستقيم في الهواء، صرف السائق بإشارة من يده، وأمر «أنطون» باللحاق به إلى الطابق العلوي. أخذ الضباط الآخرون يتهامسون ويتضاحكون قليلًا. انحنى ظهر الجنرال المستقيم إلى الأمام، في زاوية قدَّرها «أنطون» بعشرين درجة على الأقل.

في غرفة كبيرة، أمر الجنرال «أنطون» بإيماءة تعبر عن انزعاجه بأن يخلع ذلك اللباس السخيف قبل كل شيء. قال إن مظهره يشبه مظهر صبي بائس من الحي اليهودي «بياليستوك»، ما جعل الضباط يبتسمون من جديد. بينما «أنطون» ينفذ الأمر، فتح الجنرال بابًا وزمجر بشيء في غرفة جانبية. انتحى الضباط الآخرون جانبًا، ومضى واحد منهم إلى حافة النافذة وجلس عليها بأناقة، وأشعل سيجارة.

حين جلس «أنطون» أمام طاولة المكتب، دخلت فتاة جميلة

رشيقة بثوب أسود، وشعر أشقر مرفوع من الجانبين، لكنه مسدل من الخلف. وضعت أمامه فنجان قهوة بحليب؛ على حافة الطبق كانت ثمة قطعة من الشوكولاتة بالحليب.

قالت له بالهولندية:

- تفضل! لا بد أنك ستحبها.

شوكولاتة! كان يعرف من السماع فقط أنه يوجد شيء اسمه شوكولاتة، شيء شبيه بالجنة. لكن الجنرال لم يمنحه الفرصة ليأكلها، فقد أراد أن يسمع منه ما حدث من البداية. لعبت الفتاة دور المترجم. حين سرد «أنطون» الجزء الأول من القصة، المتعلق بالاعتداء وإضرام النار في بيته، وبكى قليلًا (لكن ذلك كان في زمن موغل في القدم)، أصغى إليه الجنرال دونما حركة، ما عدا أنه كان يمرِّر راحة يده برفق على شعره الممشط المنعَّم حينًا، وظهر أصابعه على ذقنه الأملس اللامع حينًا آخر. ولكن عند كل مرحلة تالية من مراحل القصة، بدا عليه وكأنه لا يستطيع أن يصدق أذنيه. عندما سمع أن «أنطون» سُجن في زنزانة تحت مركز الشرطة، صاح بالألمانية: «لا! هذا غير معقول!». لم يذكر «أنطون» أن شخصًا آخر كان مسجونًا معه في الزنزانة نفسها. وعندما سمع أنه نُقل بعد ذلك إلى «مركز قيادة المدينة»، لم يستطع استيعاب هذا الأمر أيضًا: «شيء فاضح! ألا توجد دور للأطفال في «هارلم»؟! مركز قيادة المدينة! هذا تجاوز لكل الحدود!». ثم يرسله قائد المركز مع قافلة عسكرية إلى أمستردام ليذهب إلى خاله، وطائرات العدو تقصف في كل مكان! «هل فقد الجميع صوابه في «هارلم»؟ ألم يستطع واحد منهم على

الأقل أن يفكر بعقله؟ إنها لانتهاكات صارخة!». ورفع ذراعيه وهوى بهما، لكنه في اللحظة الأخيرة ترك يديه المبسوطتين تحطان برفق ولين على سطح المكتب. انفجر الضابط الجالس على حافة النافذة ضاحكًا من امتعاض الجنرال متعدد الألوان، فقال الأخير: «اضحك ما شاء لك هواك أن تضحك!» وهل كان السادة في «هارلم» يبلغون من الفطنة ما قد يجعلهم يحمّلون «أنطون» رسالة؟ أوراقه الثبوتية، على سبيل المثال؟

أجاب «أنطون»:

ـ أجل.

ولكن في تلك اللحظة تراءى له الرقيب «شولتس» وهو يضع الرسالة في جيب معطفه الداخلي: في المكان الذي أصيب فيه بذلك الجرح الفظيع بعد مضي نصف ساعة.

عندما بدأ يبكي مرة أخرى، قام الجنرال عن مقعده منزعجًا.

ـ خذوه من هنا وهدّئوا من روعه. واتصلوا بـ«هارلم» على الفور، أو لا داعي للاتصال، اتركوهم يحترقون في دهونهم. استدعوا خال الصبي ليأخذه من هنا.

وضعت الفتاة يدها على كتف «أنطون»، واصطحبته إلى خارج الغرفة.



حين ظهر خاله بعد انقضاء ساعة من الزمن، كان ما يزال يبكي في غرفة الانتظار وقد اصطبغت أطراف فمه بلون الشوكولاتة البني، كان قد وضع على حضنه المجلة الألمانية «سيجنال» وهي مفتوحة

على صورة معركة جوية، مرسومة على نحو مأساوي. رمى خاله المجلة على الأرض، وجثا أمامه على ركبتيه، واحتضنه بصمت، لكنه نهض على الفور وقال:

ـ هيا يا «أنطون»، فلننصرف من هنا.

نظر «أنطون» في عيني خاله:

ـ هل سمعت ما حدث يا خالي «بيتر»؟

ـ أجل.

ـ يجب أن آتي بمعطفي..

ـ فلننصرف من هنا.

وأمسكه خاله من يده، ومن دون معطف ولكن بالكنزتين الصوفيتين إحداهما فوق الأخرى، خرج إلى النهار الشتوي. أجهش بالبكاء، لكنه لم يعد يعرف سبب بكائه، وكأن دموعه جرفت معها ذكرياته الأخيرة. أحس بالبرد في يده الأخرى، فوضعها في جيبه، فتحسس شيئًا لم يعرفه. نظر: إنه حجر الزهر.

الجزء الثاني

١٩٥٢

١

ما تبقى هو تداعيات الحدث. تصعد سحابة الرماد التي أطلقها البركان إلى الغلاف الجوي، تدور حول الأرض ويهطل رمادها سنوات طويلة على القارات كلها.

حين مضت بضعة أيام على تحرير هولندا في مايو ولم يصل أي خبر عن والديه و«بيتر»، ركب خاله دراجته الهوائية في الصباح الباكر، وذهب إلى «هارلم» ليسأل عن أخبارهم هناك. من الواضح أنهم ما يزالون محتجزين، على الرغم من أن العادة لم تدرج على حجز السكان في مثل عمليات الانتقام هذه، ولكن حتى لو كانوا قد نُقلوا إلى معسكر اعتقال، في قرية «فوخت» أو في مدينة «آمرسفورت»، لكان ينبغي أن يكونوا طلقاء الآن. فالوحيدون الذين لم يعودوا إلى بيوتهم بعد، هم الباقون على قيد الحياة في معسكرات الاعتقال الألمانية.

بعد ظهر ذلك اليوم، ذهب «أنطون» مع زوجة خاله إلى مركز المدينة. بدت المدينة مثل شخص كان يرقد على فراش الموت، وتورد وجهه فجأة، وفتح عينيه، وعاد إلى الحياة بأعجوبة. كانت

الأعلام ترفرف من إطارات النوافذ المفتقرة إلى الدهان، والموسيقى والرقص وأمارات الابتهاج تملأ الشوارع المزدحمة التي تنمو الأعشاب والنباتات الشوكية بين بلاطها. كان الناس الذين شحبت وجوههم، وهزلت أجسامهم، يحتشدون ضاحكين حول الجنود الكنديين السمان الذين يعتمرون قبعات «البيريه» بدلًا من الطاقيات، ولا يرتدون تلك البدلات الفضية أو السوداء أو الخضراء، الضيقة مثل الدروع، بل بدلات باللونين البيج والبني الفاتح، فضفاضة ومريحة، مثل ملابس النزهة، ولا تكاد تُظهر فروقات واضحة بين الضباط والجنود. كان الناس يلامسون سيارات الجيب والمركبات المدرعة كما لو أنها أشياء مقدسة، ومَن يجيد الإنجليزية يشارك في هذه الجنة السماوية التي نزلت على الأرض، ويمكن فوق ذلك أن يحصل على سيجارة. كان الفتية من عمر «أنطون» قد جلسوا باعتزاز فوق مبردات السيارات المزينة بنجوم بيضاء داخل دوائر، لكن «أنطون» لم يشاركهم في ذلك؛ لا لأنه قلق على والديه و«بيتر»، فهو لم يكن يفكر بهم، بل لأن كل هذا لم يشكل جزءًا منه، ولن يشكل جزءًا منه أبدًا. عالمه كان ذلك العالم الآخر الذي وصل حينها، لحسن الحظ، إلى نهايته، والذي لم يكن يرغب بالتفكير فيه مجددًا، لكنه مع ذلك كان عالمه، إذ إنه بالإجمال، لم يتبقَّ له الكثير في هذا العالم.

حين اقترب وقت العشاء عادا إلى البيت، وذهب «أنطون» إلى غرفته التي كان خاله وزوجته قد فرشاها له خصيصًا. لم يكن لدى خاله وزوجته أولاد، وكانا يعاملانه معاملة الابن الحقيقي، ودائمًا باهتمام أكبر مما لو كان ابنهما الحقيقي، وفي الوقت نفسه بصرامة

أقل. في بعض الأحيان كان يتساءل: كيف يمكن أن تكون حياته لو عاد وعاش مع والديه من جديد، في «هارلم»، فكانت هذه الفكرة تسبب له الحيرة والارتباك، فيسرع إلى إبعادها عن رأسه. كان يحب الإقامة في بيت الدكتور في شارع «أبولو»، وذلك لأنه لم يكن يشعر بأنه ابن لخاله وزوجته.

اعتاد خاله أن يطرق الباب قبل أن يدخل إلى غرفته. حين رأى «أنطون» وجهه، عرف الخبر الذي يحمله إليه. كان المشبك الفولاذي، الذي زمَّ به خاله ساق بنطاله أثناء قيادته الدراجة الهوائية، ما يزال يطوق كاحله الأيمن. جلس على كرسي المكتب، وقال لـ«أنطون» أن يتهيأ لسماع خبر مفجع. لم يدخل والده ووالدته السجن على الإطلاق. لقد أعدما رميًا بالرصاص في تلك الليلة، مع تسعة وعشرين أسيرًا آخرين. أما «بيتر» فلم يكن أحد يعرف ما الذي حدث معه، لذلك لا يزال ثمة أمل بشأنه. كان خاله قد ذهب إلى شرطة «هارلم»، لكنهم لم يكونوا يعرفون شيئًا عن أحد سوى عن الأسرى. بعد ذلك ذهب إلى رصيف القناة ليستعلم من الجيران. لم يكن أحد من آل «آرتس» المقيمين في «قصر النعيم» في المنزل، أما آل «كورتيفيخ» فكانوا موجودين، لكنهم لم يرغبوا في استقباله. وأخيرًا في منزل آل «بويمر» سمع ذلك الخبر. كان السيد «بويمر» قد رأى ما حدث. لم يتطرق السيد «فان ليمت» إلى التفاصيل، ولا سأل عنها «أنطون». كان يجلس على سريره، والحائط إلى جانبه الأيسر، ويحدق في ألسنة اللهب المرسومة على الأرضية الفضية. تولاه شعور بأنه كان يعرف مسبقًا ما حدث. أبلغه الخال «فان ليمت» أن السيد «بويمر» وزوجته شرًّا

بشدة حين سمعا أنه، أي «أنطون»، ما يزال حيًّا يرزق. فك المشبك عن كاحله وبقي ممسكًا به بين يديه. كان له شكل حدوة الفرس. قال إنه من البديهي أن يبقى «أنطون» ساكنًا عنده.

لم يصل الخبر الذي مفاده أن «بيتر» قُتل هو أيضًا بالرصاص في تلك الليلة، إلا في شهر يونيو. وكان حينذاك مثل خبر يصل من عصور ما قبل التاريخ، شيء لا يمكن تصوره الآن. كانت فترة الخمسة شهور تلك، الممتدة بين يناير ١٩٤٥ ويونيو ١٩٤٥، بالنسبة إلى «أنطون» أطول بما لا يُقارن من الفترة الممتدة بين يونيو ١٩٤٥ والوقت الحالي، وفي ذلك التشوه في الزمن كَمُن عجزه فيما بعد في أن يشرح لأولاده كيف كانت الحرب. لقد ارتحلت عائلته إلى منطقة قلما يفكر فيها، ولكن أحيانًا في لحظات غير متوقعة تظهر شذرات منها: عندما ينظر عبر النافذة في المدرسة أو في المقصورة الخلفية للترام: إنها بؤرة مظلمة من البرد، والجوع، وإطلاق الرصاص، والدم، وألسنة اللهب، والصراخ، والزنازين، بؤرة كائنة في أعماق نفسه وتكاد تكون محكمة الإغلاق. كان يبدو له في تلك اللحظات وكأنه يتذكر حلمًا، لكنه لا يعرف ما الذي حلم به بقدر ما يعرف أن كابوسًا جثم على صدره. فقط في قلب ذلك الظلام الدامس كان يشع أحيانًا ضوء مبهر للأبصار: أنامل تلك الفتاة وهي تلامس وجهه. لم يعرف أكان لها علاقة بالاعتداء أم لا، ولا عرف ماذا حلَّ بها بعد تلك الليلة. ولا أراد أن يعرف.

اجتاز المرحلة الثانوية مثل أي طالب ليس بالمتفوق ولا بالكسول، والتحق بكلية الطب. في ذلك الوقت كان قد صدر كثير من المنشورات

عن احتلال هولندا، لكنه لم يقرأ أيًا منها، ولا قرأ الروايات أو القصص عن تلك الفترة. كما أنه لم يذهب إلى «المؤسسة الحكومية لتوثيق وقائع الحرب» حيث كان بإمكانه أن يسمع هناك ما عُرف عن تصفية «فاكه بلوخ»، وعن مقتل «بيتر» وكيف لقي مصرعه بالضبط. الأسرة التي كان فردًا فيها قد أُبيدت عن بكرة أبيها، وهذه المعرفة كانت كافية بالنسبة إليه. الأمر الوحيد الذي كان يعرفه هو أن تلك العملية لم يحققوا فيها وإلا لقاموا باستجوابه. أيضًا الرجل الألماني ذو الندبة على وجهه لم يُلاحَق البتة (ولكن ربما قامت «الجيستابو» بتصفيته: هذا أمر غير مهم، فقد كان أقل شأنًا من كل المتورطين في تلك العملية). لا بد أنه شارك في تلك العملية بمبادرة منه على نحو ما. لم يكن إضرام النار في المنازل التي يُقتل النازيون بالقرب منها، أمرًا غير معتاد، ولكن أن يواجه ساكنوها عقوبة الإعدام أيضًا، فذلك عمل إرهابي لم يكن يُمارَس إلا في بولونيا وروسيا - ولكن لو حدث ذلك هناك، لقُتل «أنطون» أيضًا، حتى ولو كان رضيعًا في المهد.

٢

إن الأمور التي تلمُّ بالإنسان لا تُنسى بسهولة. حين كان طالبًا جامعيًا في السنة الثانية، عام ١٩٥٢، تلقى في نهاية سبتمبر دعوة من زميل له لحضور حفلة في مدينة «هارلم». لم يكن قد عاد إلى تلك المدينة منذ أن غادرها مع قافلة عسكرية ألمانية قبل سبع سنوات. في البداية لم يرغب في الذهاب إليها، لكنها بقيت تشغل باله طوال الوقت. أخذ بعد الغداء رواية لكاتب شاب من «هارلم» كان قد اشتراها لنفسه مؤخرًا، وصعد إلى الترام المتجه إلى المحطة، وقد تولاه شعور الإنسان الذي يذهب لأول مرة في حياته إلى بيت الدعارة.

بعد أن عبر القطار الجسر الرملي، مرَّ من تحت أنبوب فولاذي ضخم، ينتهي أحد طرفيه على الجهة الأخرى من الطريق، ويلفظ سيلًا من وحل رمادي على الأرض التي كانت في السابق حقول استخراج الخُث. كانت الساحة العسكرية المحترقة قد اختفت. كان «أنطون» يراقب زحام الشارع مسندًا ذقنه على يده. كان الترام

أيضًا قد عاد إلى عمله من جديد. حين اجتاز قرية «هالف فيغ»، رأى مدينة «هارلم» تلوح في الأفق، وهي لا تختلف كثيرًا عن تلك المدينة المرسومة في لوحات «فان راوسديل»، على الرغم من أنه في ذلك العصر كانت الغابات، والحقول التي يُنشر فيها النسيج بهدف تبييضه، تترامى في المكان الذي قام فيه منزله ذات يوم. لكن السماء ما تزال هي نفسها: الغيوم الكثيفة كثافة جبال الألب، وقد اتكأت عليها أشعة ثقيلة عريضة من الضوء. ما رآه لم يكن مدينة مثل معظم المدن الأخرى على وجه البسيطة: كانت تختلف عنها مثلما يختلف هو عن الناس الآخرين.

لو التقاه أحد وهو ينظر من خلال النافذة، وقد جلس على مقعد خشبي باهت من الدرجة الثالثة، في مقصورة قطار مصادر من شركة «سكة الحديد الألمانية»، لرأى شابًا طويل القامة، في العشرين من العمر، بشعر أسود مسترسل لا ينفك ينسدل على جبينه، فيعيده كل مرة إلى الوراء بحركة خفيفة من رأسه. كانت هذه الحركة ذات جاذبية خاصة لسبب أو لآخر، ربما لأنها تتكرر كثيرًا فتعبر عن شيء من الصبر. كان له حاجبان داكنان، وبشرة حنطية نضرة تزداد دكنة حول العينين، ويرتدي بنطلونًا رماديًا، وسترة زرقاء من قماش سميك، وربطة عنق عليها شعار النادي المشترك فيه، وقميصًا تجعدت ياقته عند الزاويتين. كان الدخان الذي ينفثه من بين شفتيه المزمومتين يمكث لحظة على زجاج النافذة على شكل ضباب خفيف.

استقل الترام إلى منزل صديقه. كان صديقه يقيم هو الآخر في

جنوب «هارلم»، لكن عائلته انتقلت إلى ذلك المنزل بعد انتهاء الحرب، لذلك لم يتوقع أن تُطرح عليه أسئلة عن الماضي. عندما انعطف الترام إلى محمية «ده هاوت»، رأى مدة دقيقة كاملة ما كان في السابق «مركز قيادة المدينة». كانت الأسلاك الشائكة والخنادق قد اختفيا من حوله؛ لم يبقَ من المبنى نفسه سوى فندق مهجور آيل للسقوط بنوافذ مسدودة بلوحات من الخشب؛ المرآب، الذي كان مطعمًا قبل الحرب، تحول إلى أطلال. من المحتمل أن لا يعرف صديقه ماذا كان في هذا المبنى في السابق.

قال صديقه عندما فتح الباب:

ـ جئت مع ذلك!

ـ أنا آسف.

ـ لا عليك! هل استطعت أن تعثر على طريق البيت بسهولة؟

ـ إلى حدٍّ ما.

في الحديقة الخلفية للفيلّا، تحت أشجار باسقة، كانت تقوم مائدة عليها أطباق ملأى بسلطات البطاطس، وبكل ما لذ وطاب من المأكولات، وقناني الشراب، وصحون مصفوف بعضها فوق بعض، وأطقم الشوك والسكاكين والملاعق. على طاولة أخرى وُضعت الهدايا حيث أضاف «أنطون» كتابه إليها. كان الضيوف منتشرين وقوفًا وجلوسًا في كل مكان على البساط العشبي. بعد أن قدمه صديقه إلى الجميع، انضم إلى شلة نصف سكرى من معارفه في أمستردام، يحملون كؤوس البيرة في أيديهم ويقفون في حلقة على حافة المياه، لابسين هم أيضًا سترات فضفاضة

متهدلة على أجسادهم اليافعة النحيفة. بدا واضحًا أن الأخ الأكبر لصديقه ممسك بزمام الأمور. كان يدرس طب الأسنان في مدينة «أوتريخت»، وينتعل في قدمه اليمنى حذاءً كبيرًا أسود، لا شكل له. كان يخطب في الشباب:

- أجل، اسمعوني! طبعًا أنتم أولاد مدللون، ويجب أن أعاملكم من هذا المنطلق. الأمر الوحيد الذي يشغل بالكم، ما عدا الاستمناء طبعًا، هو كيف يمكنكم التهرب من الخدمة العسكرية.
- سهل عليك أن تتشدق بهذا الكلام يا «خيرت جان». فأنت تعرف أنهم لن يقبلوك بسبب حافرك ذاك.
- دعني أقل لك شيئًا آخر يا أبله. لو كان عندك ذرة واحدة من الرجولة، لما التحقت بالخدمة العسكرية فحسب، بل وتطوعت للذهاب إلى كوريا أيضًا. أنتم لا تعرفون ما الذي يحدث هناك. هناك المتوحشون يقرعون على بوابة الحضارة المسيحية!

وهزَّ سبابته في الهواء:

- الفاشيون أطفال صغار مقارنة بهم. يجب أن تقرأ «آرثر كوستلر».
- لماذا لا تذهب أنت وتحطم رؤوسهم بحذائك المضحك يا «كوازيمودو»؟

فضحك «خيرت جان»:

- تصويب جيد!

علق شاب آخر:

- كوريا أصبحت مثل جامعة أمستردام بالضبط. هي أيضًا تمتلئ شيئًا فشيئًا بأوغاد غير مؤهلين.

قال «خيرت جان» وهو يرفع كأسه:

ـ أيها السادة! فلنشرب نخب سقوط الفاشية الحمراء، في داخل البلاد وخارجها!

قال شاب لم يكن قد استوعب نبرة الحديث:

ـ أنا أيضًا أشعر بأنني يجب أن أقوم بواجبي، ولكن يبدو أن كثيرين ممن كانوا في «الإس إس» منخرطون في الجيش. سمعت أنهم يُعفون من الملاحقة القانونية، إذا ما التحقوا بالجيش.

ـ وما المشكلة؟ لقد عفا الزمن على «الإس إس» يا صديقي. في كوريا يستطيعون أن يصلحوا حالهم.

«يصلحوا» قال «أنطون» فيما بينه وبين نفسه: «يصلحوا حالهم!».

نظر من بين شابين إلى الجهة المقابلة من بركة الماء، إلى الدروب الهادئة حيث يذهب الناس ويجيئون على دراجاتهم الهوائية، وشخص يمشي الهوينى مع كلبه. تقوم فيلّات هناك أيضًا. خلفها بقليل روضة الأطفال، التي لا يمكن رؤيتها من هنا، والتي كان يقف في الطابور أمام مطبخها المركزي؛ وراءها ببضعة شوارع، قليلًا إلى اليسار، خلف الأراضي، المكان الذي حدث فيه كل شيء. ما كان ينبغي أن يأتي إلى هنا. ما كان ينبغي أن يعود إلى «هارلم» بأي حال من الأحوال، كان عليه أن يدفن الماضي، مثلما يدفن الناس أمواتهم.

قال «خيرت جان»:

ـ حكيم في حالة تأمل!

وحين نظر إليه «أنطون»:

ـ أجل، أنت يا «ستيفايك». والآن أخبرنا بما توصلت إليه.

ـ ماذا تقصد؟

ـ أيجب أن نهاجم الشيوعيين أم علينا أن نتقاعس عن ذلك؟

قال «أنطون»:

ـ أنا نلت نصيبي.

في تلك اللحظة انبعث صوت الغناء من جهاز الفونوغراف القائم في الشرفة الزجاجية:

ثانكس فور ذا ميموري..

ابتسم «أنطون» لهذه المصادفة، لكنه حين رأى أن الآخر لم يلحظ ابتسامته، رفع كتفيه وانتحى جانبًا. امتزج صوت الموسيقى مع الظل الموشي بالشمس تحت الأشجار، فتشكل خليط أوري نار ذاكرته بطريقة أو بأخرى. ها هو في «هارلم». إنه يوم دافئ من أيام نهاية الصيف، لعله آخر يوم دافئ في هذه السنة، وهو عائد إلى «هارلم». هذا شيء غلط، ولا ينبغي أن يعود إليها قط، حتى ولو عُرضت عليه وظيفة يكسب منها مائة ألف فلورينا في السنة، لكنه ما دام موجودًا فيها، فيجب عليه أن يودعها إلى الأبد: الآن وعلى الفور.

ـ وأنت أيها الشاب؟

جفل من الصوت، ونظر في وجه المضيف. رجل قصير القامة، بشعر أشيب مسرَّح إلى جانب، يرتدي بدلة غير لائقة به، بنطالها ذو أرجل قصيرة إلى ما فوق الكاحلين، كما درجت عليه العادة عند شريحة من الطبقات الراقية في هولندا. بجانبه تقف زوجته، وهي سيدة ذات ظهر محدودب تبدو في غاية الرقة والنحافة في لباسها الأبيض، وكأنها ستتلاشى بفرقعة خفيفة في أية لحظة وتتحول إلى غبار متطاير.

أجاب بابتسامة، مع أنه لم يعرف عمّ سأل مضيفه:

ـ نعم، سيد «فان ليبيب»!

ـ هل أنت مستمتع بالحفلة؟

ـ أحاول كل جهدي.

ـ أحسنت! لكنك شاحب كثيرًا يا صديقي.

قال:

ـ نعم، أظن أنني سأذهب للمشي قليلًا، أرجو ألا تؤاخذني.

ـ نحن هنا لا نؤاخذ أحدًا على شيء. حرية، سعادة. اذهب لتفرغ ما في معدتك. ذلك سيجعلك ترتاح.

مرَّ من جانب أفراد العائلة الذين كانوا يحتسون الشاي وهم جالسون على كراسي حديقة بيضاء، ودخل المنزل، وخرج من الباب الرئيسي إلى الشارع. عطف إلى حارة فرعية، وعبر بعد برهة قصيرة بركة الماء. حين وصل إلى الطرف المقابل، نظر إلى الحفلة المقامة في الحديقة. كان صوت الموسيقى الواصل من فوق الماء يكاد يكون بالوضوح نفسه الذي كان عليه هناك. في تلك اللحظة رآه «خيرت جان»:

ـ هيْه! يا «ستيفايك» الشقي! مكتب التجنيد يقع في الاتجاه الآخر!

لوح له «أنطون» تلويحة تدل على أنه يقدر مزاحه حق التقدير. ثم مضى من دون أن يلتفت إلى الوراء مرة أخرى.

لم يسلك طريقَ ما بين الأراضي، بل سلك الشارع الذي يتحول بانعطاف طفيف إلى رصيف القناة. فكر بأن ما يفعله عمل خاطئ؛

خاطئ برمته: «المجرم يعود إلى مكان جريمته». توتر فجأة عندما رأى الشكل الهندسي المتموج الذي رُصفت به حجارة الشارع، هذا الديكور الذي لم يلفت انتباهه في الماضي، لكنه وهو يراه الآن يدرك أنه كان موجودًا دائمًا على هذا النحو. حين وصل إلى القناة المائية، أرغم نفسه على تثبيت نظره على الجهة المقابلة. كانت المنازل الريفية، والمزارع الصغيرة، والطاحونة الهوائية، والمروج الخضراء قد بقيت من دون أي تغير. كانت الغيوم قد اختفت، والأبقار ترعى بهدوء في شمس الأصيل. هناك، خلف الأفق تقع أمستردام التي يعرفها الآن أكثر من «هارلم»، لكنه يعرفها مثل الذي يعرف وجه الآخر أكثر من وجهه، لأنه لم يرَ وجهه قط.

قطع الشارع، ووصل إلى الرصيف المشيَّد حديثًا على طول الضفة الخضراء. سار مسافة قصيرة، ثم أدار رأسه في حركة مفاجئة ناظرًا إلى الطرف الآخر.

٢

إنها المنازل الثلاثة، ومساحة فارغة بين المنزل الأول والثاني، مثل سن مخلوعة. لم يكن قد بقي من منزله سوى السياج. كان يطوق أجمة كثيفة من القراص والشجيرات، التي تتخللها أشجار صغيرة معترشة، مثل التي يراها المرء أحيانًا في لوحات القرن السادس عشر، حيث يقف ملاك على ربوة ويحدق غراب بنظرات حاقدة في رجل قبيح الشكل. كانت الأعشاب الضارة قد نمت في مكان منزله أكثر منها في الأراضي الواقعة في الخلف، لعل ذلك الرماد كله هو الذي جعل التربة هنا في هذه الخصوبة كلها. تذكر القصة التي رواها له خاله، وهي أن فوق التلال الواقعة في شمال فرنسا توجد مثل هذه الأماكن في الحقول الزراعية، فيتركها الفلاحون من دون حراثة، لاعتقادهم أنها مقابر جماعية من زمن الحرب العالمية الأولى. لا بد أن حجارة البيت وقطعًا من الجدران والأساس ما تزال موجودة في ظل نباتات القراص هذه، ولا بد أن القبو ما يزال موجودًا تحت هذه التربة - القبو الذي سُلبت منه دراجته القديمة - وامتلأ بالأنقاض. على الرغم من

أنه لم يخطر بباله أن منزله قد آل إلى هذه الحال، إلا أنه كان على هذه الحال خلال السنوات الماضية كلها، من دون انقطاع، مثل كاسحة جليد تشق نهرًا متجمدًا، لحظة تلو اللحظة.

سار بخطوات وئيدة، مائلًا برأسه على كتفه بعض الشيء، ملقيًا شعره إلى الوراء بين الفينة والأخرى، حتى إذا ما بلغ المكان الذي جلس فيه في السيارة الألمانية، نظر من جديد إلى المكان الفارغ. بينما تعالى زقزقة عصافير الدوري فوق الأشجار الصغيرة، تراءى له منزله ينتصب من جديد، مبنيًا من أحجار شفافة ومن الزجاج والخيزران المحفورين في ذاكرته: النافذة البارزة التي تعلوها الشرفة الصغيرة لغرفة النوم، والسطح المائل بنافذة غرفته على الجانب الأيسر. وعلى اللوحة المنشورة على نحو مائل، المعلقة تحت الشرفة:

«خالي الهموم»

كان اسم منزل «كورتيفيخ» قد اختفى تحت طبقة من الدهان، بيد أن اسمي «موقع ممتاز» و«قصر النعيم» ما يزالان على حالهما. نظر إلى المكان الذي انطرح فيه «بلوخ» في عصر ما قبل التاريخ. تمثل لعينيه مظهره على تموجات الشكل الهندسي لبلاط الشارع، في هيئة الخط الذي رسمته الشرطة بطبشورة فاقعة اللون حول جثته. اعترته رغبة في أن يلمس ذلك المكان، أن يضع يديه فوقه، فلم ترق له تلك الرغبة. مع ذلك راح يقطع الشارع في تمهل، لكنه قبل أن يصل إلى الطرف الآخر، رأى حركة أمام نافذة «موقع ممتاز». حين نظر جيدًا، تبين السيدة «بويمر». كانت قد رأته وأخذت تلوح له.

جفل من رؤيتها. لم يخطر بباله لحظة واحدة أنها أو أحدًا من الجيران الآخرين ما يزال يعيش هنا، ولا استطاع أن يتصور ذلك. ما كان يهمه هو المكان فحسب، وليس السكان، وحتى عندما كان يفكر في هذا المكان، كان آل «بويمر» وآل «كورنيفيغ» وآل «آرتس» يغيبون عن باله. وأما أن يبقى الساكنون هنا هم أنفسهم... أراد أن يطلق ساقيه للريح، لكن السيدة «بويمر» كانت قد وقفت في فتحة الباب:

ـ «طوني»!

كان ما يزال بمقدوره الانصراف. لعل تربيته هي التي دفعته إلى عبور بوابة حديقتها وقد ارتسمت ابتسامة على وجهه:

ـ مرحبًا، سيدة «بويمر».

ـ «طوني» يا بني!

أمسكت يده، وطوقت بذراعها الأخرى خصره وحضنته بحركة سريعة، وخرقاء، مثل شخص لم يحضن أحدًا منذ زمن بعيد. كانت أكبر سنًا وأكثر ضمورًا من الماضي، وكان شعرها، الذي غزاه الشيب، مجعدًا تجعيدًا ناعمًا. لم تترك يده، قالت وهي تجره من فوق العتبة:

ـ تفضل بالدخول.

كانت الدموع تترقرق في عينيها.

ـ في الواقع يجب عليَّ أن...

هتفت من خلال باب الردهة:

ـ انظر، مَن هنا!

في مقعد وثير من القرن الماضي، لم يكن في ذلك الوقت قد أصبح حديثًا من جديد، بل ما يزال من الطراز القديم (مثلما هو الآن للمرة الثانية)، كان السيد «بويمر» جالسًا وقد هرم وضمر إلى حد أن قمة رأسه لم تعد تصل إلى الخشب المنقوش في قمة ظهر المقعد. كانت ساقاه متواريتين تحت بطانية بنية اللون مربعة النقش، وفوقها يداه وهما تتحركان باستمرار؛ رأسه أيضًا ينحني انحناءات متتابعة بلا توقف. عندما مدّ «أنطون» يده لمصافحته، رفرفت إليه اليد الأخرى مثل طائر جريح، فأمسك بها، لكنه أحس أنها ليست يدًا، بل صورة يد باردة لا حياة فيها.

سأله السيد «بويمر» بصوت خافت متهدج:

- كيف حالك يا «كيس»؟

نظر «أنطون» إلى السيدة «بويمر»، فأومأت له إيماءة تنم عن أن وضعه قد آل إلى ما هو عليه.

أجابه «أنطون»:

- بخير يا سيد «بويمر». شكرًا. وأنت كيف حالك؟

من الواضح أن مجرد طرح السؤال قد أرهق السيد «بويمر». لقد أحنى رأسه بالإيجاب ولم يقل أي شيء آخر، لكنه ظل ينظر إلى «أنطون» بعينيه الصغيرتين الزرقاوين النديتين. كانت أطراف فمه تلمع من اللعاب، وبشرة وجهه رقيقة مثل ورق السجائر، وما تبقى من شعره مصطبغ بلون التبن الذي يتذكره «أنطون»، لعله كان كستنائي اللون في الماضي. كان الراديو المصنوع من بلاستيك «الباكليت» ذي اللون البني الغامق، وشكل البيضة المقطوعة بالطول، يبث برنامج

الأطفال. كانت السيدة «بويمر» قد بدأت بلملمة المائدة. من الواضح أنهما فرغا للتو من تناول الطعام.

ـ دعيني أساعدك.

ـ لا داعي، تفضل بالجلوس. سأعد لك فنجانًا من القهوة.

جلس «أنطون» جلسة امتطاء الحصان على الكرسي القريب بجانب الموقد، الذي يعرفه منذ نعومة أظفاره، والذي له مقعد على شكل سرج الجمل. لم يحوِّل السيد «بويمر» عينيه عنه، فابتسم له «أنطون» وجال ببصره فيما حوله. لم يكن أي شيء قد تغير. حول طاولة الطعام تقوم الكراسي الأربعة ذات الظهور الحافلة بالنقوش، المدهونة بالورنيش الأسود، التي تزينها نتوءات بارزة تجعلها تشبه الطراز القوطي وتثير الرعب في النفوس، حتى إن «أنطون» كان يخاف منها في الماضي، عندما كان يأتي إلى هنا ليحصل على المأكولات اللذيذة. لا يزال الصليب بأيقونة المسيح الملتوية المصغرَّة معلقًا فوق الباب. كانت الغرفة تثقلها رائحة الحموضة، فقد كانت النوافذ كلها مغلقة، وأيضًا الأبواب ذات الشبابيك الصغيرة من الزجاج المعشق بالرصاص. في الراديو قالت امرأة بصوت محرَّف: «يا كتكوت! إنني أراك يا محبوب!». تجشأ السيد «بويمر» فجأة، فأخذ ينظر حوله في اندهاش، وكأنه سمع صوتًا من مكان ما.

صاحت السيدة «بويمر» من المطبخ:

ـ لماذا لم تأتِ من قبل يا «طوني»؟

نهض عن مقعده وذهب إليها. في الممر رأى سريرهما قد وُضع في الغرفة الخلفية، ربما لأن السيد «بويمر» لم يعد بإمكانه صعود

السلم. صبت السيدة «بويمر» سيلًا رفيعًا من الماء من الغلاية ذات المنبه على البن.

ـ هذه هي المرة الأولى التي أرجع فيها إلى «هارلم».

قالت السيدة «بويمر» بصوت خافت:

ـ ساءت صحته كثيرًا في الآونة الأخيرة. تظاهر بأنك لا تلاحظ ذلك.

قال «أنطون» في نفسه: طبعًا، وماذا تتوقعين؟ أن أنفجر بالضحك، وأصيح: «لا تنطق بهذه الترهات»؟ لكنه أدرك على الفور أن ذلك قد يكون الأسلوب الأمثل، فقال:

ـ هذا أمر بديهي.

ـ هل تعرف أنك لم تتغير أبدًا؟ أنت الآن أطول قامة من أبيك، لكنني عرفتك على الفور. هل ما زلت مقيمًا في أمستردام؟

ـ أجل، سيدة «بويمر».

ـ أعرف ذلك لأن خالك جاء إلينا بعد التحرير بفترة وجيزة. لقد رآك زوجي وهم يأخذونك معهم في السيارة الألمانية، ولم نستطع أن نعرف بعد ذلك هل كنت ما تزال على قيد الحياة. لم يكن لأحد أن يعرف أي شيء في ذلك الزمن الفظيع. لو تعرف كم تحدثنا عنك. تعال.

عادا إلى الغرفة. عندما رأى السيد «بويمر» «أنطون»، مدّ إليه يده مرة ثانية، فصافحه «أنطون» بصمت. مدّت السيدة «بويمر» المفرش العجمي، الذي يتذكر «أنطون» زخرفه، على الطاولة، وصبت القهوة.

ـ هل تشربها بسكر وحليب؟
ـ بحليب فقط، لو سمحت.
صبت قليلًا من الحليب المغلي من وعاء معدني صغير في الفنجان المنخفض العريض. قالت وهي تقدم إليه الفنجان:
ـ كنت لا ترغب في رؤية هذا المكان مرة أخرى. لكنني أتفهم شعورك، فما حدث كان في غاية الفظاعة. لكن شخصًا آخر جاء عدة مرات، ووقف ينظر إلى مكان بيتكم من الرصيف المقابل.
ـ مَن كان؟
ـ لا أعرف. رجل غريب.
ومدت إليه يدها بعلبة الكعك:
ـ «كاكيه»؟
ـ لو تكرمت.
ـ هل أنت مرتاح في الجلوس هناك؟ تعال واجلس إلى الطاولة.
فقال ضاحكًا:
ـ اعتدت أن أجلس في هذا المكان، ألا تتذكرين؟ عندما كان زوجك يقرأ لي من رواية «الفرسان الثلاثة».
أطفأت السيدة «بويمر» الراديو، وجلست بميل إلى الطاولة. جارته في الضحك، لكن ما لبثت أن اختفت ضحكتها واحمرَّ وجهها. حوَّل «أنطون» عينيه عنها. التقط بإبهامه وسبابته قشدة الحليب المتشكلة فوق القهوة، من وسطها بالتحديد، ورفعها في روية، فانطوت مثل المظلة. وضعها على حافة الطبق، وأخذ رشفة من المشروب الخفيف. أحس بأنها تنتظر منه شيئًا، سؤالًا عن الماضي، وبأن عليه أن يبادر إلى

فتح الموضوع، لكن لم تكن لديه أية رغبة في الحديث عنه. لعلهما يعتقدان أنه ما يزال يعاني مما حدث في الماضي، وأنه ما يزال يحلم به كل ليلة، لكنه في الواقع قلما يفكر فيه. وهو الآن جالس في هذه الغرفة في حضرة شخصين عجوزين، أو في حضرة واحد منهما على الأقل، مثل شخص لا يمت لنفسه بصلة. نظر إلى السيدة «بويمر». كانت الدموع تترقرق في عينيها للمرة الثانية.

سألها:

- هل السيد «كورتيفيخ» ما يزال يعيش هنا؟

- لا، لقد انتقل من هنا بعد التحرير ببضعة أسابيع. لا أحد يعرف إلى أين. لم يودعنا، ولا ودعنا «كارين». كان ذلك غريبًا جدًّا، أليس كذلك يا «بيرت»؟

بدت وكأنها تريد أن تحاول مرة أخرى استدراج زوجها إلى الحديث، وبدا أن السيد «بويمر» يوافقها في الرأي وذلك بهز رأسه، ذلك الهز الموافق الذي لن يتوقف إلا حين موته، هكذا شهد معها أنه رأى ذلك غريبًا جدًّا. لم تقدم له فنجانًا من القهوة، ذلك لأن الفنجان سيفرغ حتمًا من محتواه قبل أن يصل إلى فمه. عندما لا يكون لديهما ضيوف، تقوم هي طبعًا بإشرابه وإطعامه.

قالت السيدة «بويمر»:

- كنا جيرانًا تسع سنين وعشنا فترة الحرب كلها معًا، ثم يرحلان فجأة من دون أن يقولا كلمة واحدة! لن يكون بمقدوري قط أن أفهم الناس! بقيت أحواض السمك على رصيف بيته أيامًا طويلة، في انتظار عمال البلدية لأخذها من هناك.

قال «أنطون»:

ـ كانت أحواض السحالي.

ـ أحواض من الزجاج على كل حال. أوه! كان رجلًا تعيسًا جدًا. لقد جاء لزيارتنا بضع مرات، بعد أن ماتت زوجته. هل تتذكر السيدة «كورنيفيخ»؟

ـ على نحو غامض جدًا. ليس تمامًا.

ـ كان ذلك في ١٩٤٢ أو ١٩٤٣. كم كان عمرك حينذاك؟

ـ عشر سنين.

ـ الآن يعيش مكانه زوجان لطيفان في مقتبل العمر مع طفليهما الصغيرين.

أحواض السحالي. كان «أنطون» يتذكر السيد «كورنيفيخ» رجلًا ضخم البنية، متجهم الوجه، يلقي عليه السلام ولا يخوض معه في أية أحاديث. كان ما إن يعود إلى البيت حتى يخلع سترته، ويشمِّر عن ساعديه بطي كُمي قميصه طيات عديدة على نحو غريب، فيتشكل كمَّين متفخين على ذراعيه المكسوتين بالشعر، ثم يصعد عادة إلى الطابق العلوي، ويقوم بعمل سري، كان «أنطون» شديد الفضول إلى معرفته. أما «كارين» فكانت غالبًا ما تتشمس في مقعد مريح وقد ضمت شعرها الأشقر الداكن، وحسرت ثوبها عن ساقيها حتى الفخذين، حتى إنه كان يلمح أحيانًا سروالها الداخلي. كان لها عينان زرقاوان زرقة فاتحة تميلان بعض الشيء إلى الجحوظ، وربلتان مكتنزتان بقوام جميل، تذكرانه بالمقطع العرضي لجناحي الطائرة المصور في مجلة «عالم الطيران». كان حين يفكر فيها وهو راقد

في سريره في الليل، ينتصب عضوه الذكري في أغلب الأحيان، لكنه لم يكن يعرف ما الذي يجب عليه فعله، فلا يبقى أمامه سوى الاستغراق في النوم. كان إذا ما دخل إلى حديقتها عبر فتحة السياج، أبدت استعدادها الدائم لأن توقف حمامها الشمسي وتلعب معه لعبة النرد. كان في عينيها حوَل طفيف يليق بها جدًّا. ذات يوم، وبعد أن انتزعت منه وعدًا بالكتمان، أطلعته على هواية والدها. في الطابق العلوي، كانت تقوم على مدار الغرفة الخلفية طاولات صغيرة، فوقها عشرة أحواض أو خمسة عشر حوضًا فيها سحالي. أخذت تلك الحيوانات، الساندة قوائمها الصغيرة إلى لحاء الشجر، تحدق فيه بصمت غريب ـ من الماضي البعيد، بعمق وسكون مثل سكونها هي نفسها. كان بعضها قد لوى جسده على شكل حرف «S»، وينظر في عبوس شديد، وكأن عيونه لا تعرف لغة أخرى: عيون من شدة الجدية فيها، لا تتحرك ولا تتزعزع إلى درجة لا تكاد تطاق.

وضع «أنطون» فنجانه على رف الموقد، إلى جانب الساعة. خلص من الطريقة التي تحدثت بها السيدة «بويمر» عن «كورتيفيخ» إلى أنها لا تعرف ما الذي حدث بالضبط لجثة «بلوخ» في تلك الليلة. أدرك عندئذ أنه ربما هو الشخص الوحيد الذي يعلم بما حدث، ما عدا آل «كورتيفيخ» أنفسهم. حتى إنه لم يطلع خاله وزوجة خاله على الأمر، ربما لشعوره بأنه كلما كان عدد الناس المطلعين على ذلك الفعل السخيف قليلًا، لبدا ذلك الفعل أقل سخافة مما هو عليه.

سأل:

- والساكنون بجانبهم؟

ـ السيد «آرتس» وزوجته. إنهما ما يزالان يسكنان هناك، لكن حتى الآن لم يلقيا علينا التحية. لا بد أنك تتذكر ذلك، فأنت لم تكن تزورهما قط. إنهما منزويان إلى أقصى درجات الانزواء. قبل فترة قصيرة، أراد السيد «خرونيفيلد» أن تفعل البلدية شيئًا من أجل هذه الأعشاب الضارة التي تنمو هنا بجانبنا..

ـ «خرونيفيلد»؟

ـ جارنا الجديد الذي يسكن مكان «كورتيفيخ». لا بد أنك رأيت تلك الأعشاب الضارة التي تنمو في المكان الذي كان يقوم فيه منزلكم.

قال «أنطون»:

ـ أجل.

ـ تلك البذور كلها تتطاير إلى حديقتنا وحديقتهم، وليس بإمكاننا التخلص منها. أراد السيد «خرونيفيلد» أن تقوم البلدية بفعل شيء ما. كتب لها رسالة، ووقعناها نحن أيضًا، ولكن السيد «آرتس» رفض أن يوقعها. ما رأيك أنت؟! هل التوقيع يحتاج إلى عناء كبير؟!

ونظرت إليه بامتعاض.

هزَّ «أنطون» رأسه موافقًا.

ـ ما ينمو هناك شيء لا يُصدق حقًّا!

قال ذلك بنبرة جعلت السيدة «بويمر» تدرك أنها لم تكن لبقة في الحديث.

لقد بدأت باضطراب مفاجئ:
- أقصد...
- أعرف ما تقصدينه يا سيدة «بويمر». الحياة يجب أن تستمر.
قالت وقد سُرَّت لتفهمه وحمله العبء عنها:
- كم أنت شاب عاقل يا «طوني»!
ونهضت عن مجلسها:
- هل تريد فنجانًا آخر من القهوة؟
- لا، شكرًا.
صبت القهوة لنفسها، وقالت:
- أنت تذكرني بذلك المسكين «بيتر». إنك لا تشبهه أبدًا، لكنه هو أيضًا كان عاقلًا مثلك. ودائمًا لطيفًا، ودائمًا خدومًا.
وأعادت قطعة السكر التي تمسك بها بين فكي الملقط الفضي إلى علبة السكر:
- تعرف! رأيت أن مصيره كان الأسوأ على الإطلاق. ذلك الشاب الطيب. طبعًا مصير أبيك وأمك أيضًا، ولكن «بيتر»، كان في ذلك الوقت أصغر منك الآن. تألمتُ بشدة، عندما سمعت ذلك الخبر. لقد رأيته وهو يحاول مساعدة ذلك الرجل، أقصد «بلوخ»، فهو لم يكن متأكدًا من أنه قد فارق الحياة. طبعًا، كان «بلوخ» وغدًا، أعرف ذلك جيدًا، لكنه كان إنسانًا في آخر الأمر. صبي طيب القلب مثل «بيتر». طيبة قلبه كلفته حياته.
أطرق «أنطون» وحنى رأسه بنعم. مرَّ بيديه على الجلد البني لسرج الجمل الذي ربما كان احترق هو أيضًا، لو كان لـ«بيتر» ما أراد. لو

المنزل إلى رماد: مقعد السيد «بويمر» الوثير، ومطبخ السيدة «بويمر»، وأيقونة المسيح على الصليب، والكراسي المرعبة حول طاولة الطعام. لأصبح هنا هو المكان الذي تنمو فيه الأعشاب الضارة، ولكان والداه الآن يعيشان في المنزل المجاور «خالي الهموم». لعل شيخوخة السيد «بويمر» وزوجته كانت ستشفع لهما في إعفائهما من الإعدام، ولكن أي حياة كان سيعيشها «بيتر» يا ترى؟ لو بقي على قيد الحياة، لكان الآن قد أنهى خدمته العسكرية: وفي عام ١٩٤٧، أثناء العمليات العسكرية في الهند الشرقية، خدم في فرقة «السابع من ديسمبر»، وربما أضرم النار بنفسه في قرى «الكامبونغ» أو سقط هناك. هذه الأشياء كلها لا يمكن تصورها. «بيتر» لم يبلغ من العمر سوى السابعة عشرة، ثلاث سنوات أصغر من «أنطون» الآن، وهذا أيضًا لا يمكن تصوره. إنه، أي «أنطون»، سيبقى الأخ الأصغر إلى الأبد، حتى ولو بلغ الثمانين من العمر. هذه الأشياء كلها لا يمكن تصورها.

رسمت السيدة «بويمر» إشارة الصليب على صدرها، وقالت بصوت منخفض:

ـ خيرة الناس هم الذين يأخذهم الله إليه أولًا.

ناجى «أنطون» نفسه: على هذا، فإن «فاكه بلوخ» كان خير الناس جميعًا!

لكنه قال:

ـ أجل.

ـ لا يمكن لأحد أن يعرف الحكمة من التدابير الإلهية. لماذا يجب

أن يُقتل «بلوخ» أمام منزلكم أنتم بالذات؟ كان من الممكن جدًّا أن يُقتل أمام منزلنا أو أمام منزل «كورتيفيخ». لقد تحدثنا كثيرًا عن هذا الأمر، أنا وزوجي. كان يقول دائمًا إن الله رأف بنا، ولكن كيف يمكنك أن تفسر هذا؟ ألا يعني هذا أن الله لم يرأف بكم؟ ولماذا لم يرأف بكم؟

قال «أنطون» وهو يشعر بأنه يتجاوز حدوده:

- ثم قال زوجك إن الله لم يرأف بنا لأننا كافرون.

أخذت السيدة «بويمر» تنتف بصمت زغب مفرش الطاولة بملقط السكر. كانت الدموع تترقرق في عينيها للمرة الثالثة.

- الحنون «بيتر». المطرفان أبوك وأمك. ما أزال أراه أمام عيني وهو يمر من هنا، أقصد أباك، بسترته السوداء وقبعته البولر، ومظلته المطوية. كان ينظر إلى الأرض على الدوام. كان عندما يخرج مع أمك، يمشي دائمًا خطوة أمامها، مثلما يفعل سكان الهند الشرقية. لم يحدث قط أن ألحق ضررًا بإنسان.

قال السيد «بويمر» بغتة:

- الخيار المخلل مثل التماسيح.

نظرت إليه زوجته و«أنطون»، لكنه أخذ هو أيضًا يرمقهما بنظرات بريئة.

سمرت السيدة «بويمر» عينيها من جديد في يديها:

- كم كانت معاناتهما كبيرة... لا بد أن خالك أخبرك عن ذلك. عندما هجمت أمك على ذلك الرجل... قُتلا بكل بساطة، مثل الحيوانات.

أحس «أنطون» برعدة في ظهره، من رقبته وحتى عجزه، وكأنه تعرض لصدمة كهربائية.

تلعثم:

- سيدة «بويمر»، أرجوك، إذا ممكن...

- طبعًا يا بني. إنني أتفهم شعورك، فقد كان شيئًا فظيعًا إلى أقصى درجة.

كان عليه أن يغادر على الفور. نظر في ساعة يده من دون أن يرى كم كان الوقت.

- أوه، يجب أن أذهب. لا تؤاخذيني، فأنا كنت...

- حسنًا يا بني.

قامت عن مجلسها هي أيضًا، وسوَّت ثنيات ثوبها من الأمام بيديها الاثنتين.

- هل حقًا هذه هي المرة الأولى التي تعود فيها إلى «هارلم»، يا «طوني»؟

- أجل.

- عليك إذن أن تعرج في طريقك على النصب التذكاري.

ردد في اندهاش:

- نصب تذكاري!

قالت:

- هناك، في المكان الذي وقع فيه الحادث.

وأشارت إلى ركن الغرفة، حيث تقوم طاولة صغيرة مستديرة،

عليها مزهرية تبرز منها أرياش كبيرة بيضاء مثل أرياش النعامة، أو لعلها كانت أرياش النعامة فعلًا.

ـ لم أسمع أي شيء عنه.

قالت السيدة «بويمر»:

ـ كيف يمكن هذا؟ قبل حوالي ثلاث سنوات دشنه عمدة المدينة. وحضر التدشين عدد كبير من المدعوين. أملنا أن نراك هناك، فقد كانت صحة زوجي جيدة إلى حد ما في ذلك الوقت، لكنني لم أر خالك حتى. هل تريد أن أذهب معك؟

ـ إن لم يكن عندك مانع، فإنني أفضل أن...

فقالت:

ـ طبعًا..

وامسكت يده بيديها الاثنتين:

ـ أتفهم أنك تريد زيارته وحدك. مع السلامة يا «طوني»! أنا مسرورة جدًّا برؤيتك، وأنا على يقين من أن ذلك ينطبق على زوجي أيضًا، وإن لم يستطع أن يبدي لك سروره.

ونظرا، ويد أحدهما تطوق يد الآخر، إلى السيد «بويمر». كان قد أغلق عينيه مستنزف القوى. بعد أن قالت له السيدة «بويمر» إن يديه كبيرتان مثل يدي والده بالضبط، تبادلا تحية الوداع. وعدهما «أنطون» بالعودة لزيارتهما في المستقبل القريب، لكنه كان يعرف أنه لن يعود لرؤية هؤلاء الناس مرة أخرى. لن يرجع إلى «هارلم» على الإطلاق.

حين خرج من باب المنزل، صعق من رؤية المساحة المضيئة على جانبه الأيسر، المساحة التي كانت قائمة دائمًا بوجود منزله. رأى

من فوق الأنقاض الساكنين الجدد في حديقة المنزل الذي كان في السابق «فوق الخيال»: رجل أشقر نحيف مع امرأة قصيرة من الهند الشرقية، كلاهما في نحو الخامسة والثلاثين من العمر، الرجل يلعب كرة قدم مع صبي صغير، في حين تراقبهما المرأة وطفلها الرضيع على ذراعيها.

كانت ساعة الشفق. كانت الشمس قد غربت للتو، وغرق رصيف القناة والمروج الخضراء في ضوء لا ينتمي إلى أي شيء، فلا هو بضوء النهار ولا بضوء الليل: إنه ينبعث من عالم آخر لا يتحرك فيه شيء ولا يتغير، ويسمو بهذه الأشياء كلها بعض الشيء. نظر إلى النهاية الأخرى من رصيف القناة، حيث يبتعد الطريق عن المياه، فرأى سياجًا بطول رجل قائمًا على الرصيف الذي لم يكن موجودًا في الماضي. لم تكن ثمة حركة مرور، فقطع الشارع على نحو مائل، في خط مستقيم، باتجاه النصب التذكاري.

كان السياج البالغ عرضه بضعة أمتار يتكون من شجيرات «الرودودندرون»، التي تتلألأ أوراقها في الضوء الساحر. كان يطوق جدارًا منخفضًا من القرميد، ينتصب فوق مركزه ذي الشكل المربع تمثال رمادي لامرأة محملقة العينين، مسدلة الشعر، ممدودة الذراعين إلى الأمام، منحوت بأسلوب كتيب جامد متناسق الأبعاد، شبيه بالأسلوب المصري. في أسفله تاريخ الحادثة مع النص التالي:

سقطوا

في سبيل المملكة والوطن

على طرفيه الأيمن والأيسر، على لوحتين من البرونز، أسماء القتلى في أربعة صفوف، حيث يعلن الصف الأخير:

«ج. ي. سورخدراخر» ٣/ ٦/ ١٩١٩

«ف. ل. ستينفايك» ١٧/ ٩/ ١٨٩٦

«د. ستينفايك ـ فان ليمت» ١٠/ ٥/ ١٩٠٤

«ج. تاكيس» ٢١/ ١١/ ١٩٢٣

«ك. هـ. س. فيرمان» ٨/ ٢/ ١٩٢١

«أ. فان در زون» ٥/ ٥/ ١٩٢٠

نفذت الأسماء إلى عيني «أنطون». ها هم هنا، مسجلون ومحفوظون في أبجدية برونزية، أسماؤهم ليست مصنوعة من البرونز حتى، بل محفورة في البرونز: الرجال الذين قفزوا من الشاحنة العسكرية وهم مكبلون بالقيود. والدته المرأة الوحيدة بينهم، ووالده الشخص الوحيد من مواليد القرن الماضي. هذا كل ما تبقى منهما، فما عدا بضع صور قديمة يحتفظ بها خاله وزوجته، لم يبق منهما شيء، سوى اسميهما المكتوبين هنا، وهو نفسه. حتى إنه لم يُعثر على قبريهما.

لعل أعضاء اللجنة المحلية المعنية بالنصب التذكارية عن الحرب تباحثوا عما إذا كان هذا النصب هو المكان المناسب لتسجيل أسمائهم. لعل بعض الموظفين أبدى ملاحظة بأن آل «ستينفايك» لم يكونوا من الأسرى، ومن ثم لم تتم تصفيتهم حقًا، بل قُتلوا مثل الحيوانات، ما حدا بموظفي اللجنة المركزية أن يسألوا: ألا يستحقون في هذه الحالة نصبًا تذكاريًا، ما جعل أعضاء اللجنة المحلية يتوصلون

إلى تسوية لا يُسجل بموجبها اسم «بيتر» على هذا النصب. فهو، انطلاقًا من حسن النية على الأقل، واحد من قتلى المقاومة المسلحة الذين تُخصص لهم نصب تذكارية أخرى. فلا ينبغي بحق السماء خلط الأسرى، والمقاومين، واليهود، والغجر، والمثليين، بعضهم مع بعض، وإلا لعمت الفوضى واختلط الحابل بالنابل.

كان درب الملاحين ما يزال موجودًا. كان الجليد قد ذاب عن المياه. حين رأى السيدة «بويمر» تراقبه من نافذتها، لم يغادر من الطريق نفسه الذي جاء منه.

٤

لم يعد إلى حفلة «فان ليتيب» أيضًا، بل استقل أول قطار متجهًا إلى أمستردام. عندما وصل إلى البيت، كان خاله وزوجته ما يزالان جالسين إلى المائدة، وقد فرغا للتو من تناول العشاء. كان المصباح مضاءً. سأله خاله ساخطًا بعض الشيء، لماذا لم يتصل إذا كان ينوي التأخر في العودة إلى البيت.

أجاب «أنطون»:

- كنت في «هارلم».

نظر خاله وزوجته أحدهما إلى الآخر. كان صحنه قد وضع على الطاولة، فجلس في مكانه. التقط بأصابعه ورقة خس، وأزاح رأسه إلى الوراء وأسقطها في فمه.

سألته زوجة خاله:

- هل أقلي لك بيضة؟

هزَّ رأسه بلا، وبلع الخس، ثم سأل خاله:

- لماذا لم تخبرني بأنهم أقاموا نصبًا تذكاريًا عندنا على رصيف القناة؟

وضع السيد «فان ليمت» فنجان قهوته على الطاولة، ومسح فمه، وراح يحدق فيه.

ـ لقد أخبرتك بذلك يا «أنطون»!

ـ متى؟

ـ قبل ثلاث سنوات. دُشن في سنة ١٩٤٩. تلقينا دعوة لحضور التدشين، وسألتك هل تريد الذهاب، لكنك لم ترغب في ذلك.

قالت السيدة «فان ليمت»:

ـ ما أزال أتذكر جيدًا ماذا قلت في ذلك الوقت..

وسكبت السلطة في صحنه ووضعت الصحن أمامه:

ـ قلت: فليفرحوا هم بتلك الحجارة، فأنا لا شأن لي بها.

سأل السيد «فان ليمت»:

ـ ألا تتذكر؟

هزَّ «أنطون» رأسه بلا ولزم الصمت. أخفض عينيه إلى مفرش الطاولة الأبيض، وسحب فيه أربعة خطوط بشوكته ببطء، وهو يشعر لأول مرة بشيء من الخوف، بشيء يمتصه: هوة ظلماء تقع فيها الأشياء من دون أن تصل إلى القعر، مثل حجر يرميه إنسان في بئر، ولا يسمع وقع ارتطامه بالأرض.

في الوقت الذي كان لا يزال يفكر فيه بمثل هذه الأشياء، تساءل ذات مرة ما الذي يمكن أن يحدث لو حفر نفقًا في عرض الكرة الأرضية، وقفز فيه ببدلة مضادة للاحتراق. بعد مدة معينة يمكن تحديدها بعمليات حسابية سيصل إلى جهتها الأخرى، بقدميه أولًا، ولكن من دون أن يخرج على سطحها. سيتوقف هناك لحظة، ثم

يختفي في عمق النفق من جديد وهو مقلوب رأسًا على عقب. وبعد سنوات، يمكن تحديدها أيضًا بشكل حسابي، سيتوقف عن النّوَسان في مركز الكرة الأرضية، ويحوم هناك وهو في حالة انعدام الوزن، ليفكر في مجرى الأمور إلى أبد الآبدين.

الجزء الثالث

١٩٥٦

١

تابع «أنطون» دراسته الجامعية مثل أي طالب ليس بالمجتهد ولا بالكسول. عندما ترك منزل خاله في شارع «أبولو» وانتقل إلى مسكن في مركز المدينة بعد تقديمه لامتحانات السنة الثالثة في عام ١٩٥٣، بدأت مرحلة جديدة من حياته. عندما سكن في شقته الصغيرة المظلمة فوق دكان الأسماك، في حارة فرعية بين شارع «برينسن خراخت» وشارع «كايزر خراخت»، حيث تفصله عن جيرانه الساكنين على الطرف المقابل مسافة لا تتجاوز خمسة أو ستة أمتار، ابتعدت أحداث «هارلم» في يناير ١٩٤٥ حتى توارت وراء الأفق. كان ذلك شبيهًا بالحالة التي يعيشها رجل عندما يطلق زوجته: يقيم علاقة مع امرأة أخرى كي ينسى زوجته، لكنه بذلك لا يفصل بينها وبين زوجته. ربما تسير الأمور بشكل أفضل مع المرأة الثانية، وإن كان ذلك مرجحًا أكثر مع المرأة الثالثة. كما أن الذي أبعد إلى ما وراء الأفق يجب أن يبقى مُبعدًا، ولكن تلك مهمة لا سبيل إلى تحقيقها، إذ إن الأشياء كلها تلامس بعضها بعضًا في هذه الحياة. البداية لا تختفي على الإطلاق، ولا حتى مع النهاية.

مرة كل بضعة أشهر كان يصاب بصداع نصفي يستمر يومًا واحدًا، ويضطره إلى الرقود في الظلام، لكنه لم يكن يتقيأ من جراء الألم إلا نادرًا. كان يقرأ كثيرًا، لكن ليس عن الحرب، ونشر في إحدى المرات بضع قصائد عن الطبيعة في مجلة الطلاب، باسم مستعار «أنطون بيتر». كان يعزف على البيانو ويفضل عزف سيمفونيات «شومان»، ويستهويه الذهاب إلى الحفلات الموسيقية. أما دار المسرح فلم يعد يفضل الذهاب إليها، منذ تلك المرة التي أصيب فيها بإعياء شديد لسبب لم يفهمه. لقد حدث ذلك أثناء عرض مسرحي رائع لـ«بستان الكرز» للكاتب «تشيخوف»، من إخراج «شاروف». أثناء مشهد يجلس فيه رجل مطرق الرأس إلى الطاولة، وتقف امرأة في الخارج على المصطبة وهي تصيح بشيء لأحد الأشخاص، استولى عليه إحساس رهيب وغامض في الوقت نفسه، ولكن من شدة قوته، اضطر أن يخرج من الصالة على الفور. ما إن وصل إلى الشارع المزدحم بالناس والترامات والسيارات حتى اختفى ذلك الإحساس بشكل كامل، حتى لقد تساءل بعد مضي بضع دقائق هل ما حدث له قبل قليل كان حقيقيًا.

كل أسبوع كان يذهب على دراجته النارية بحقيبة ملابسه المتسخة إلى بيت خاله في شارع «أبولو»، حيث يبقى في أغلب الأحيان لتناول العشاء. مع مرور الوقت بدأ يلاحظ السلوك الراقي المتبع في منزل خاله والطريقة التي تُرتب بها الأشياء كلها، فما من شيء تالف، أو من دون دهان، أو ذي طابع مؤقت، أو من نوعية رديئة. الطعام يُقدم في الأطباق، والنبيذ يسكب في الدورق، ولا أحد من دون سترة الطقم

أو بربطة عنق مفكوكة. كان عندما يأتي خاله أو زوجة خاله لزيارته، يرى على وجهيهما أنهما يلاحظان عنده الحالة المعاكسة، فيقول خاله إنه هو أيضًا كان طالبًا في يوم من الأيام.

في ١٩٥٦ نجح في امتحانات السنة الأخيرة، وبدأ بالعمل كطبيب تحت التدريب في عدد من المستشفيات. في ذلك الوقت قرر التخصص بالتخدير. كان يعلم بطبيعة الحال أنه لو تخصص في الأمراض الداخلية أو أمراض القلب وفتح عيادة خاصة، لاستطاع أن يكسب منها ضعفين أو ثلاثة أضعاف ما قد يكسبه من التخدير، لكنه في تلك الحالة لن يملك أي متسع من الوقت لنفسه، وسيتعرض هو نفسه بعد فترة وجيزة لقرحة معدية أو مرض قلبي، في حين يستطيع كطبيب تخدير أن يغلق باب المستشفى وراءه في نهاية الدوام ويصبح حرًّا. هذا الشيء ينطبق على الجراحة العامة أيضًا، لكن الجراحة العامة لا يمارسها إلا الجزارون. كما أن الأسباب التي دفعته إلى اختيار التخدير لم تكن بالأسباب السلبية فحسب. كان مفتونًا بالتوازن الدقيق الذي يجب أن يحافظ عليه، عندما يغرز الجزارون مشارطهم في جسم الإنسان: ذلك التوازن الحرج بين الحياة والموت، وتلك الرعاية التي يقدمها لذلك المخلوق المسكين الذي لا حول له ولا قوة أثناء غيبوبته. كان لديه إلى ذلك تصورات روحانية على نحو أقل أو أكثر، وهي أن التخدير لا يُفقد المريض إحساسه، بقدر ما يُفعّل المواد الكيماوية التي تجعله غير قادر على التعبير عن ألمه، ويمحو من ذاكرته فيما بعد الألم الذي عاناه أثناء العملية، في حين تكون صحته قد تحسنت، فعندما يفيق المرضى

من التخدير، ترى عليهم دائمًا أنهم عانوا من الألم. لكنه حين صرح برأيه هذا، في إحدى المرات، لزملائه الذين كانوا يخوضون في الحديث عن المراكب الشراعية، رمقه هؤلاء بنظرات تنم عن أنه من الأفضل أن يحتفظ بمثل هذه الأفكار لنفسه، إذا كان يريد أن يبقى واحدًا من ناديهم.

وأيضًا توجد السياسة التي تمضي في عملها من دون كلل أو ملل، لكنه لم يكن يتابع أخبارها إلا نادرًا، وخاصة الداخلية منها. كان يقرأ العناوين الرئيسية في الصحف، لكنه ينساها على الفور. عندما سأله زميل إنجليزي له عن تركيبة النظام السياسي في هولندا، لم يستطع أن يجيبه بشيء، كان جهله بها مثل جهله بتركيبة النظام السياسي في ألمانيا أو فرنسا. فيما يتعلق بالصحف اليومية، كان يقضي معظم وقته في حل الكلمات المتقاطعة. لم يكن يستطيع أن ينأى بنفسه عنها، إذ كان يتمتع بمهارة عالية في حلها. كان إذا ما رأى على إحدى طاولات القراءة لغزًا غير مكتمل الحل في جريدة، دفعه طموحه إلى إكمال ما عجز الرجل السابق، أو المرأة السابقة، عن إكماله بسبب خطأ مرتكب في مكان ما. حتى إذا ما فرغ من الحل، نظر برضا إلى المربع المكتمل. كانت الحروف، التي يقوم معظمها بوظيفتين، في كلمة أفقية وكلمة عمودية، والكلمات التي يرتبط بعضها ببعض بطريقة رائعة، تشعره بسعادة غامرة. كان يرى فيها لمسة شعرية.

على أنه في تلك السنة نفسها، في ١٩٥٦، كان عليه أن يشارك في التصويت في الانتخابات. أثناء عشائه الأسبوعي في شارع «أبولو»

سأله خاله لأي حزب سيصوت. أجاب بأنه سيصوت لليبراليين، وحين سأله خاله عن السبب، لم يستطع أن يجد إجابة أفضل من أنه سيفعل ذلك اقتداءً بأصدقائه. رأى السيد «فان ليمت» أن دافعه ذاك من أسوأ الدوافع التي يمكن أن تخطر على بال، ثم استطاع خلال بضع دقائق أن يحمله على تغيير رأيه، فقد قال: إن الليبرالية الحالية تجمع بين مبدأ التشاؤم بالتضامن الإنساني، والرأي القائل بأن الفرد يجب أن يكون حرًّا قدر الإمكان. لكن الإنسان إما أن يكون متشائمًا ومن ثَم يقبل بالقوانين المفروضة، وإما أن يكون متفائلًا فيتحرر والحال هذه من القوانين، إذ من المستحيل أن تجتمع فيه هاتان الصفتان. الإنسان لا يستطيع أن يجمع بين تشاؤم التوجه الاشتراكي وتفاؤل التوجه التحرري الفوضوي. وهذا ما يفعله الليبراليون بالضبط. قال: لذلك فإن المسألة في غاية البساطة وهي أن على الإنسان أن يعرف فقط أهو متفائل أم متشائم، فماذا يكون هو؟ رفع «أنطون» عينيه إليه لحظة، ثم أطرق من جديد وأجاب:

- متشائم.

هكذا صوت للحزب الديمقراطي الاشتراكي، مثلما فعل خاله، الذي كان واحدًا ممن يشغلون مناصب رفيعة في الحزب، ويُختار منهم عادة عُمد المدن والوزراء. اكتشف «أنطون» بعد حين أنه لا يكاد يوجد إنسان واحد يصوت من منطلق عقلاني، بل من منطلق مصلحته الشخصية، أو لأنه يجد في حزب معين ما هو مألوف لديه، أو لأن رئيس القائمة الانتخابية محل ثقته، أي في الواقع من منطلق فيزيائي - بيولوجي بحت، لذلك عاد يصوت

للأحزاب ذات الميول اليمينية، عندما واتت فرصة مناسبة، حيث تشكل حزب جديد قال إن التمييز بين اليسار واليمين قد أصبح عادة قديمة. حتى حينذاك لم يكن اهتمامه بالسياسة الداخلية إلا في حده الأدنى، يكاد يشبه اهتمام الشخص الناجي من حادثة جوية بالطائرات الورقية.

٢

بدأت الشيوعية، ومعها السياسة العالمية، تستأثر بتفكيره في وقت متأخر من تلك السنة. في النصف الثاني من عام ١٩٥٦ عاش قراء الجرائد في مدينتهم الفاضلة: الاضطرابات في بولندا، فضائح في العائلة المالكة، الهجوم الفرنسي الإنجليزي على مصر، الثورة في هنغاريا وتدخل الاتحاد السوفيتي فيها، ووصول فيدل كاسترو إلى كوبا. قبل بضعة أسابيع من ذلك العمل البطولي في الكاريبي، كان صدى أزيز الدبابات الروسية التي اجتاحت بودابست ما يزال يتردد في هولندا، ويُسمع بأوضح صوره على بعد مرمى حجر من مسكن «أنطون». في المبنى الضخم المنحدر من القرن الثامن عشر «فيليكس ميريتيس» كان يوجد المقر الرئيسي للحزب الشيوعي. كانت الحشود الغاضبة تصول وتجول في المدينة، وتقوم بتخريب كل ما يمت للشيوعيين بصلة، بدءًا من مكاتبهم وحتى نوافذ منازلهم، تساعدها في ذلك الصحافة التي تنشر عناوينهم: كانت تنشر بحجة الموضوعية في التغطية الإعلامية أن منزل القيادي فلان المقيم في

العنوان كذا قد تعرض يوم أمس إلى ضرر طفيف فحسب. فيتعرض المنزل في اليوم التالي إلى أضرار جسيمة. بعد إنجاز العمل اللازم، كانت الحشود تجتمع أمام مبنى «فيليكس ميريتيس»، في شارع «كايزر خراخت»، الذي بقي محاصرًا على مدى يومين كاملين من قبل الآلاف من الناس.

كان المبنى قد تحول إلى حصن منيع. كانت نوافذ الطابق الأرضي كلها مسدودة بلوحات من الخشب، ولم يبق شباك واحد من شبابيك الطابق العلوي سالمًا. كان رجال بخوذات يرابطون على السطح، وفي بعض الأحيان نساء أيضًا، فكن يتعرضن بشكل مضاعف إلى هتافات عدائية. من كان يريد الدخول إلى المبنى أو الخروج منه، يحسن صنعًا إذا طلب حماية الشرطة. كان رجال الشرطة المسلحون بالهراوات والمسدسات الملقمة يحاولون تجميع الحشود في الجهة المقابلة من القناة، لكنهم هم أنفسهم كانوا معرضين لخطر الإصابة بالحجارة المتطايرة في الهواء من دون توقف. كان الرجال المرابطون على السطح يُرشقون أيضًا بالحجارة، التي تصل أولًا إلى داخل المبنى عبر النوافذ، ويوجهون بين الفينة والأخرى خراطيم المياه إلى المجموعات التي تحاول الاقتراب من المبنى. في القناة كان يقف قارب شرطة ذو لون فضي من أجل انتشال الذين يسقطون في المياه.

لكن «أنطون» لم يكن يكترث بهذا كله، فضلًا عن أن يشارك فيه. كما أنه كان ينأى بنفسه عن النقاشات حول هذا الموضوع. كان يلازمه شعور بأن ما يحدث لعبة أطفال على الرغم من هوله وفظاعته، ولديه

انطباع بأن العديد من الناس مسرورون لما يحدث في بودابست، لأنه شيء يثبت أنهم على حق في رأيهم بالشيوعية. أكثر ما كان يزعجه هو الضجيج المستمر. كان الشارع الضيق الذي يعيش فيه يستخدمه المتظاهرون من أجل الوصول إلى الجهة الخلفية لمبنى «فيليكس ميريتيس»، وإلى شارع «بريتسن خراخت»، حيث تحدث هجمات أيضًا، حتى بعبوات ناسفة، كما أخبره بائع الأسماك. حين يئس من توقف الضجيج، ذهب إلى دار السينما لحضور فيلم «الختم السابع»، وعندما عاد إلى البيت، أدار آلة التسجيل على السيمفونية الثانية للموسيقار «مالر»، ورفع صوتها إلى أقصى درجاته، لكن الضجيج لم يتوقف طوال الليل. عزم أمره على الذهاب لقضاء الليلة التالية في شارع «أبولو» حيث ينعم كل شيء بالهدوء، لكنه بعد انتهاء دوامه في مساء اليوم التالي لم يتصور أن تستمر الضوضاء لليلة ثانية، لذلك عاد إلى بيته.

كان الظلام قد بدأ بالهبوط، واشتعلت الشموع خلف العديد من النوافذ. كانت الأعلام منكسة على بيوت لا حصر لها ولا عد. لكي يحمي دراجته النارية من التعرض للتلف في الصراع الجاري، ركنها في مكان يبعد بضع بنايات عن بيته، وذهب سيرًا على الأقدام إلى شارعه.

لقد اشتد الازدحام والاضطراب. بذل كثيرًا من العناء للوصول إلى بابه عبر الزحام، وما إن وصل إلى مدخل مبناه حتى انفجر الوضع. ظهرت فجأة من شارع «كايزر خراخت» سيارات الشرطة بصفارات الإنذار المدوية والمصابيح المشتعلة، وراحت تخترق صفوف

الجماهير المحتشدة وهي تزيد من سرعتها، ثم تفرمل، ثم تعود إلى زيادة سرعتها. وظهرت خيول يمتطيها رجال شرطة شاهرين سيوفهم، ودراجات نارية مزودة بعربات جانبية، أخذت تسير على الرصيف حينًا ووسط الشارع حينًا آخر، ورجال شرطة بخوذات ينحنون خارج العربات ويضربون الناس بمقابض هراوات طويلة سوداء. دبَّ الذعر في الصفوف المحتشدة بين المباني، لكن «أنطون» أحس بشيء من الارتياح، الأمر الذي أدهشه دهشة عظيمة. كان قبل لحظات يشعر بالانفعال والتوتر، أما الآن والناس يتلقون الضربات ويصرخون، ويتداسون أو يحاولون الوصول إلى بر الأمان وقد تضرجوا بالدماء، يشعر هو بطمأنينة غريبة. ازدحم مدخل المبنى، الذي يفضي أيضًا إلى باب دكان الأسماك، والذي لا يزيد على مترين مربعين، بحشد من الناس الذين راحوا يتدافعون ويدفعونه على باب بيته. كان يمسك بالمفتاح، لكنه أدرك أنه لا ينبغي أن يفتح الباب، حتى ولو تسنى له الالتفات إليه، إذ إن السلم وغرف بيته ستعج بالناس في طرفة عين، وبعد أن يغادر الضيوف سيكون أثاث منزله قد اختفى أيضًا. كان يقف أمامه رجل ضخم البنية، يدفعه بظهره بكل ما أوتي من قوة، أو بدا الأمر كذلك، فقد كان الآخرون هم من يدفعون الرجل نفسه. كان يحمل في يده اليمنى حجرًا رماديًا كبيرًا، وقد رفعه مضطرًا إلى ما فوق كتفه. أدار «أنطون» رأسه إلى الجانب من أجل أن يحمي أنفه ومن أجل ألا يختنق، فرأى من طرف عينه أظافر الرجل المتسخة والمسامير اللحمية على أصابعه.

ركض الجميع من المدخل فجأة. التفت إليه الرجل الواقف أمامه

كأنما ليرى الشخص الذي تحسسه بظهره طيلة ذلك الوقت، ثم خرج إلى الشارع، والتفت إليه مرة أخرى، وبقي واقفًا.

قال:

ـ مرحبًا «طون».

نظر «أنطون» إلى الوجه العريض الخشن، فتعرفه فجأة.

ـ أهلًا «فاكه».

٢

مضت بضع ثوانٍ وكل منهما ينظر إلى الآخر، «فاكه» بالحجر في يده، و«أنطون» بالمفتاح. كان الاضطراب ما يزال يسود الشارع، لكن مركز العنف كان قد انتقل إلى شارع «برينسن خراخت».

قال «أنطون»:

ـ تفضل بالدخول.

تردد «فاكه». نظر يمنة ويسرة كأنما يصعب عليه أن يترك ما يحدث وراءه، لكنه أدرك أن لا مناص من القبول.

ـ سأدخل لحظة يسيرة.

بينما «أنطون» يسمع الوقع الثقيل للأقدام وراءه على درجات السلم الخشبي، لم يستطع أن يصدق بأنه «فاكه بلوخ» فعلًا. لم يكن يفكر فيه على الإطلاق، في حين كان الأخير حيًّا يُرزق ويعيش في هذه الدنيا. لم يصافح أحدهما الآخر. عن أي موضوع يجب أن يتحدث معه؟ ولماذا دعاه بحق السماء إلى بيته؟ في الغرفة، أضاء المصباح وأسدل الستائر.

ـ ماذا تريد أن تشرب؟

فزع حين وضع «فاكه» الحجر على البيانو، الذي كان قد جاءه هدية في عيد ميلاده، لم يضعه بعنف لكن بصخب استخلص منه «أنطون» أن طلاءه قد تعرض للضرر.

ـ كأسًا من البيرة، إذا عندك منها.

صب «أنطون» لنفسه كأس نبيذ من زجاجة مفتوحة من اليوم السابق. أخذ «فاكه» يتململ باحثًا عن وضعية جلوس مريحة في الكرسي، الذي له شكل فراشة هائلة الحجم. جلس «أنطون» على الكنبة السوداء ذات النوابض المتخلخلة.

قال:

ـ في صحتك.

ولم يعرف ماذا عليه أن يقول أكثر من ذلك.

رفع «فاكه» كأسه، ثم التهم نصف الكأس في جرعة واحدة. مسح فمه بظهر يده، وأخذ ينظر إلى خزانة الكتب ورف السدميات.

ـ طالب، أليس كذلك؟

أومأ «أنطون» بالإيجاب. أومأ «فاكه» أيضًا، ثم نهض عن مقعده نصف نهوض، وجلس جلسة مواربة ليستشعر هل هذه الوضعية أفضل.

ـ غير مريح؟

قال «فاكه»:

ـ يا له من كرسي مزعج!

ـ مع أنه من الطراز الحديث. تعال، اجلس هنا.

بادل أحدهما المقعد مع الآخر. أخذ «فاكه» يحدق فيه، وكأنه يستطيع رؤيته من هذا المقعد على نحو أفضل.

ـ هل تعرف أنك لم تتغير أبدًا.

ـ سمعت هذا مرارًا.

ـ لقد عرفتك مباشرة.

قال «أنطون»:

ـ أنا احتجت بعضًا من الوقت، فأنا لم أكن أرى أباك كثيرًا.

أخرج «فاكه» كيس تبغ من جيبه الداخلي، وأخذ يلف سيجارة. حين ضيّفه «أنطون» سيجارة من علبة «بالو دراي»، هز رأسه بلا. لعله ما كان ينبغي أن يقول له ذلك، لكن ما قاله صحيح، فهو نسخة طبق الأصل من والده، ما عدا أنه أصغر سنًّا وأكثر نحافة، وبطريقة أو بأخرى أكثر انتفاخًا. ورأى إلى ذلك أنه لا ينبغي أن يظهر له كثيرًا من التبجيل. تمنى لو يرن الهاتف، فيرد عليه ويقول للطرف الآخر، أيًا كان، إنه آتٍ إلى المستشفى في الحال ليسعف تلك الحالة المستعجلة. كان الجو باردًا ورطبًا في الغرفة.

قال:

ـ سأشعل المدفأة.

ونهض عن مجلسه، وفتح صنبور الوقود. فرغ «فاكه» من لف سيجارته، فانتزع التبغ الزائد من طرفيها وأعاده إلى الكيس الذي يمسكه بين أصبعيه البنصر والخنصر.

سأل:

ـ ماذا تدرس؟

ـ طب.

قال «فاكه» قبل أن يستطيع «أنطون» سؤاله:
- أنا أعمل في محل أدوات منزلية. تصليحات وما شابه.
انتظر «أنطون» حتى وصل ما يكفي من الوفود إلى المدفأة.
- في «هارلم»؟
رمقه «فاكه» بنظرة تقول هل فقد عقله.
- «هارلم»! هل تظن أننا ما زلنا نسكن في «هارلم»؟
- وكيف لي أن أعرف؟
- ألم يخطر ببالك أننا اضطررنا للانتقال من هناك بعد الحرب؟
أجاب «أنطون»:
- أجل، هذا جائز.
ورفع غطاء المدفأة، وألقى فيها عود كبريت مشتعلًا:
- أين تسكن الآن؟
- في «دين هيلدر».
انطفأ عود الكبريت في طريقه إلى قعر المدفأة، فأشعل عودًا آخر، وألقاه فيها والتفت إلى «فاكه».
- وهل جئت إلى أمستردام فقط لترشق بالحجارة؟
أجاب «فاكه» وهو يحدق فيه:
- أجل، شيء غريب، أليس كذلك؟
وضع «أنطون» الغطاء على المدفأة وجلس في مكانه. لو يقترح عليه من دون لف ودوران إنهاء هذه المقابلة، لربما يقبل «فاكه» بهذا الاقتراح على الفور، لكن إدراكه هذا جعله يعاند رغبته كي لا يظن «فاكه» أنه يستطيع التخلص منه بسهولة.

سـأله:

ـ هل ما تزال أمك على قيد الحياة؟

أومأ «فاكه» بنعم، وأجاب بعد مضي بضع ثوان:

ـ أجل.

لقد قالها بنبرة فيها نوع من الاعتراف، وكأن «أنطون» سأله: «هل ما تزال أمك أنت على قيد الحياة؟». لم يكن «أنطون» يقصد ذلك، لكنه عندما رأى وجهه، اعتقد أنه ربما قصد ذلك فعلًا.

سـأل:

ـ كيف تعمل في محل صيانة أدوات منزلية وقد درست الثانوية العامة؟

ـ درست نصف سنة، نعم.

ـ كيف ذلك؟

فسأل «فاكه» وهو يدفع التبغ الزائد إلى داخل السيجارة برأس عود الكبريت:

ـ وهل يهمك أن تعرف ذلك حقًا؟

ـ لماذا أسأل إذن؟

ـ بعد الحرب ألقوا القبض على أمي، وسجنوها في معسكر اعتقال. انتهى الأمر بي إلى الإقامة في مدرسة داخلية كاثوليكية كانت فرعًا من المدرسة الصناعية الأسقفية. أجبروني على العيش فيها، مع أنني لست كاثوليكيًّا.

ـ وماذا كانت تهمة أمك؟

ـ اسأل السادة في «لجنة المحاكمات الخاصة»! أعتقد أن تهمتها كانت الزواج من أبي.

علم «أنطون» من النبرة التي قال بها «فاكه» هذه الجملة أنه رددها كثيرًا، وأنه لسبب أو لآخر ليس هو من ابتدعها.

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ بعد تسعة شهور أخلوا سبيلها، ولكن أثناء فترة سجنها كان أناس آخرون قد سكنوا في بيتنا. عُرض علينا مسكن في «دين هيلدر» حيث لم يكن أحد يعرفنا. هناك التحقت بالمدرسة المهنية.

ـ لماذا لم تكمل دراستك الثانوية؟

أجاب «فاكه» بوجه متقزز وكأنه يشم رائحة نتنة:

ـ أنت لا تعرف شيئًا، أليس كذلك؟ ماذا تظن؟ اضطرت أمي أن تصبح خادمة لتعيلنا أنا وأخواتي. صارت واحدة من أولئك النسوة اللاتي تراهن في الساعة السادسة والنصف من الصباح وهن يمشين في الشارع بمناديل على رؤوسهن وحقائب تسوق في أيديهن. كانت تضع في تلك الحقيبة فُرشاتها ومماسحها ومنظفاتها، لأن تأمين تلك الأغراض كان من مسؤوليتها. كانت عندما تعود إلى البيت قبل وقت العشاء بقليل، لا تكاد تقدر على المشي. وإذا أردت أن تعرف كل شيء، فإنها الآن في المستشفى، والقيح ينز من ساقها اليمنى المتحولة إلى كتلة صفراء ببقع بنية. أما ساقها اليسرى فقد بُترت قبل أسبوعين. والآن، هل أنت راضٍ يا دكتور؟

وجرع ما في كأسه، وخبط الكأس على الطاولة، ثم اتكأ إلى ظهر المقعد:

ـ هذا هو الفرق بيني وبينك، أليس كذلك؟ كنا في الصف نفسه. أبواك يُقتلان ومع ذلك تدرس طب. وأبي يسقط صريعًا فينتهي الأمر بي إلى تصليح السخانات!

فقال «أنطون» على الفور:

ـ ولكن أمك ما تزال على قيد الحياة، وأخواتك أيضًا.

وزن كلماته، فقد وصلا إلى نقطة حرجة، ثم تابع في حذر:

ـ ثم ألا يوجد فرق بين موت أبيك وموت أبويَّ؟

فسأل «فاكه» بعدوانية:

ـ وما هو الفرق؟

ـ أبواي كانا بريئين.

قال «فاكه» من دون أن يتردد لحظة واحدة:

ـ وأبي أيضًا.

وراح يحملق في عيني «أنطون». سكت «أنطون» في ذهول. لعل «فاكه» يعني ما يقول، ولعله في الواقع مقتنع بما يقول.

قال بإشارة من يده:

ـ حسنًا، حسنًا، فما أعرفه سمعته من الناس، ولكن...

ـ بالضبط.

ـ ولكن إذا كنت ترى الفرق بيني وبينك كنوع من الظلم الاجتماعي، فإنني لا أستطيع أن أفهم قصدك من هذا الحجر.

وأشار برأسه إلى الحجر الذي وضعه «فاكه» فوق البيانو كأنما لتوجيه إهانة شنيعة له:

- إنك والحال هذه يجب أن تكون شيوعيًا.

قبل أن يجيب «فاكه»، أخذ «أنطون» كأسه، وترك آخر قطرات النبيذ تسيل في حنجرته.

قال «فاكه» بهدوء ولكن بنبرة فيها غضب شديد:

- الشيوعية أبشع ما في الوجود. انظر إلى ما يحدث في بودابست. تطلَّع شعب بأكمله إلى الحرية يجابه بعنف دموي.

قال «أنطون» في انزعاج:

- «فاكه»! أنا أيضًا لست شيوعيًا، ولكن ليس من الضروري أن أحفظ العناوين الرئيسية في الجرائد عن ظهر قلب.

- طبعًا، لأن سيادة الدكتور يستطيع أن يعبر عن أفكاره بنفسه! لا تؤاخذني على أنني لست بمستوى ذكائك المتقد! الناس هناك يقتل بعضهم بعضًا، هل هذا أفضل؟ ماذا تظن أن المفوضين السياسيين يعملون هناك؟ الآن تُرتكب مذابح جماعية، أم أنك لا تظن ذلك؟ ألم تقرأ ما نشرته جريدة «هيت بارول» عن الفظاعات التي يرتكبها الجنود المنغوليون هناك؟

ردد «أنطون»:

- الجنود المنغوليون؟! ما الذي تقصده يا «فاكه»؟ أجاء الدور على المنغوليين لأن يُبادوا بالغازات السامة؟

قال «فاكه» وهو يرمق «أنطون» بنظرة تنم عن أنه يجب أن يتوخى الحذر في أقواله:

ـ لا، يا ابن الكلب! لا أعرف ما الذي تريد الوصول إليه، لكنني أستطيع أن أقول لك إن والدي كان على حق في رأيه بالشيوعيين على كل حال. كل ما تسمعه الآن، كان يقوله هو دائمًا في ذلك الوقت. لم تكن مصادفة أن قتله أولئك الشيوعيون الأوغاد أنفسهم. كانوا هؤلاء الأوباش أنفسهم الذين تراهم الآن على السطح بخوذات على رؤوسهم القذرة. وأنت تدافع عنهم، يا للعجب! كانوا يعرفون أن الرد سيكون الانتقام، ومع ذلك أطلقوا النار عليه أمام منزلك، من دون أن يهتموا بأي شيء، وإلا لكلفوا خاطرهم التّن بإخفاء الجثة. ذلك لم يعجّل نهاية الحرب حتى بثانية واحدة.

نهض عن مقعده، واتجه بكأسه صوب الطاولة الصغيرة الموضوع عليها موقد الغاز، والتي وضع عليها «أنطون» زجاجة البيرة المفتوحة. في تلك اللحظة لاحظ «أنطون» أن المدفأة لم تشتعل بعد، فقام هو أيضًا من مجلسه، وشق قطعة ورق من جريدة، وأشعل النار فيها، وألقاها على طبقة الوقود السوداء المتلألئة. صب لنفسه كأسًا أخرى من النبيذ، ولأن «فاكه» لم يعد إلى الجلوس، فقد بقي هو أيضًا واقفًا. تصاعدت من الشارع أصوات الصراخ وصفارات الإنذار مرة أخرى.

قال «أنطون» وهو يمسك عنقه بيده الفارغة:

ـ أهلي لم يقتلهم الشيوعيون، بل قتلهم أصدقاء أبيك.

ـ ولكن أولئك الشيوعيين كانوا يعرفون أن ذلك سيحدث.

ـ ألذلك هم السبب في...

ـ طبعًا، وإلا مَن إذن؟

قال «أنطون»:

ـ «فاكه»! أستطيع أن أتفهم رغبتك في الدفاع عن أبيك، فقد كان أباك في نهاية الأمر. ولكن لو كان أبوك أبي، ولو عكسنا الحالة كلها، فهل كنت ستدافع عنه أيضًا؟ دعنا «لا نضحك على بعض» ونسمي الأشياء بأسمائها. الشيوعيون قتلوا أباك عمدًا، لأنهم كانوا على قناعة بأنهم يجب أن يفعلوا ذلك. أما أهلي فقد قتلهم الفاشيون تعسفًا، الفاشيون الذين كان أبوك واحدًا منهم. أليست هذه هي الحقيقة؟

استدار «فاكه» ربع استدارة، وبقي واقفًا بظهره إلى «أنطون» من دون أن يحرك ساكنًا، وقد انحنى بقامته بعض الشيء:

ـ هل تريد الادعاء بأن أبي كان السبب في مقتل أهلك؟

أدرك «أنطون» أنه يعير الآن انتباهه لكل كلمة من كلماته. نظر في المرآة العالية ذات الإطار المنقوش، المعلقة فوق رف المدفأة، التي اشتراها من سوق السلع المستعملة بعشرة فلورينات ليضفي حجمًا أكبر على غرفته، فرأى على صفحتها البالية «فاكه» وقد أغلق عينيه.

سأله «أنطون»:

ـ لماذا لا تستطيع أن تحب أباك من دون أن تبرر سلوكه؟ أن تحبَّ قديسًا ليس بالأمر الصعب. إنه مثل حبك للحيوانات. لماذا لا تستطيع أن تقول ببساطة: «أبي كان على خطأ عظيم، لكنه كان أبي وأنا أحبه على الرغم من كل شيء»؟

ـ لكنه لم يكن على خطأ، اللعنة! على الأقل، ليس بالطريقة التي تقصدها أنت.

قال «أنطون»، موجهًا كلامه إلى ظهر «فاكه»:

ـ ولكن لو افترضنا أنك توصلت إلى يقين تام بأنه ارتكب أفعالًا فظيعة. لا أدري أية أفعال بالضبط. لك أن تتخيل ما يحلو لك... أما كان لك أن تحبه؟

التفت إليه «فاكه»، وحدجه بنظرة خاطفة، ثم راح يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا. قال بعد برهة يسيرة:

ـ على خطأ... على خطأ... يعيرونه بأنه كان على خطأ، لكنهم في الوقت نفسه يفكرون بالطريقة نفسها التي كان يفكر بها عن الشيوعيين. أنصت إلى ما يحدث في الشارع! هل تستطيع أن تخبرني فيمَ يختلف عن الجبهة الشرقية؟! أما ما حدث لليهود، فهو لم يكن يعلم به، ولم يعلم به قط. لذلك لا تستطيع أن تلومه على ما فعله الألمان بهم. كان يخدم في الشرطة، ويؤدي ببساطة واجبه كما هو مطلوب منه. قبل الحرب أيضًا، كان يلقي القبض على الناس من دون أن يعرف المصير الذي يؤولون إليه. نعم كان فاشيًّا، لكنه كان فاشيًّا فاضلًا، وعن قناعة. كان يرى من الضروري أن تتغير الأوضاع في هولندا، وأن لا تعود إلى ما كانت عليه في عهد رئيس الوزراء «كولاين»، عندما كان يُجبَر على إطلاق الرصاص على العمال. لم يكن يسير مع التيار بشكل أعمى كما يفعل معظم الهولنديين. ثم هل تستطيع أن تقول لي لو أن هتلر انتصر في الحرب، كم من الهولنديين كانوا

سيستمرون حتى الآن بالقتال ضده؟ لا تدعني أضحك يا رجل! فعندما بدأ هتلر ينهزم، أصبحوا كلهم بقدرة قادر مقاومين. كل أولئك الجبناء.

بدأت أصوات فرقعات مكتومة متواترة تنبعث من المدفأة، التي كان كثير من الوقود قد وصل إلى قعرها. ألقى عليها «فاكه» نظرة الخبير وقال:

- إنها لا تنبئ بخير.

لكنه لم ينحرف عن مسار موضوعه. مضى إلى النافذة، وجلس على حافتها وهو يمسك كأسه بيديه الاثنتين وقال:

- هل تعرف متى انتسب أبي إلى الحركة النازية؟ في سبتمبر ١٩٤٤، بعد «الثلاثاء الهائج»، عندما تبين أنها قضية خاسرة، وهرب كل أولئك الفاشيين المنافقين إلى ألمانيا، أو راحوا يدعون فجأة بأنهم كانوا دائمًا من المقاومين. في ذلك الوقت رأى أبي أن الوضع يتطلب القيام بعمل جدي، هذا ما أخبرتنا به أمي مرارًا وتكرارًا. لقناعته تلك اغتالوه، وليس لسبب آخر، وذلك كلف أهلك حياتهم. لو لم يفعلوا ذلك، لكان أبوك وأمك الآن من الأحياء. ولربما كان أبي قد أمضى بضع سنوات في السجن، وعاد منذ زمن طويل إلى عمله في سلك الشرطة.

نهض عن مقعده ومضى إلى البيانو، ونقر على بضعة مفاتيح من الأوكتاف الأوسط. امتزجت النغمات مع فرقعات المدفأة، فتشكل مزيج، ذكّر «أنطون» بسيمفونيات «سترافينسكي». لقد فاقمت كل

كلمة من كلمات «فاكه» من صداع رأسه. كيف يستطيع المرء أن يعيش في مثل هذه الكذبة؟ السبب هو الحب، الحب الذي يُعمي المرء عن أخطاء مَن يحب.

قال:

ـ وأنا أسمعك تتحدث على هذا النحو، أظنك ترى أن اسم أبيك كان يجب أن يكتب على ذلك النصب التذكاري.

ـ أي نصب تذكاري؟

ـ ذلك النصب المقام على رصيف القناة عندنا.

ـ وهل يقوم هناك نصب تذكاري؟

ـ أجل، عرفت ذلك مؤخرًا. اسما أبويَّ وأسماء الأسرى التسعة والعشرين مكتوبة عليه. أكان يجب أن يُكتب عليه اسم «فاكه بلوخ» أيضًا؟

نظر إليه «فاكه» وأراد أن يقول شيئًا، لكنه نشج بالبكاء فجأة. كان نشيجه يبدو وكأنه يصدر عن شخص آخر يستخدم جسده لهذا الغرض فحسب، قال: «اللعنة...» ولكن لم يكن واضحًا أقال ذلك ردًا على كلام «أنطون»، أم توبيخًا لنفسه على بكائه:

ـ عندما كانت النار تضطرم في بيتك، وصلنا خبر موت أبي، هل حدث وفكرت بهذا الأمر؟ أنا فكرت بما حصل لك، ولكن هل فكرت أنت بي؟

واستدار إليه نصف استدارة، ثم عاد فوقف في وضعه السابق نفسه. مرر يديه على عينيه بيأس، وأمسك بالحجر بغتة. نظر حوله، ثم نظر إلى «أنطون» الذي رفع ذراعيه إلى وجهه وصاح:

- «فاكه»!

لكن «فاكه» خرج عن طوره، وقذف الحجر على المرآة. تكوم «أنطون» على نفسه. استطاع وقد أشاح بوجهه أن يرى الزجاج وهو ينكسر إلى رقائق كبيرة تتساقط على غطاء المدفأة، التي بدأت تتعالى منها أصوات طقطقة خفيفة، وتتشظى عليه. وقع الحجر على رف المدفأة في دوي هائل واستقر عليه. بينما «أنطون» ينظر إلى الحطام بقلب خافق، سمع وقع أقدام «فاكه» وهو يهبط السلم بسرعة.

انزلقت قطعة الزجاج الأخيرة من إطار المرآة، وتهشمت بصخب هي الأخرى. بعد ذلك مباشرة دوى صوت انفجار مكتوم من المدفأة، فانقذف غطاؤها إلى الأعلى بمقدار خمسة سنتيمترات، وانطلقت منها سحابة من السخام. طوق «أنطون» رقبته بيديه مشابكًا أصابعه بعضها ببعض، وتنفس تنفسًا عميقًا. راوده إحساس بأنه يوشك على الانفجار بالضحك: المرآة المهشمة، والمدفأة المنتفضة، والصراخ في الشارع، لكنه لم يقدر على ذلك من شدة الألم في رأسه. يا له من هراء! انتشر السخام في الغرفة كلها، فأدرك أنه يحتاج إلى ساعات طويلة حتى يتمكن من تنظيفها.

سمع وقع خطوات «فاكه» وهو يصعد السلم من جديد، فأدرك في تلك اللحظة أنه لم يسمع صوت إغلاق الباب. بحث بحركة تلقائية عما يستطيع الدفاع به عن نفسه، فأمسك بمضرب التنس الخاص به. ظهر «فاكه» في فتحة الباب، وألقى نظرة سريعة على خراب الغرفة. قال:

- أريد أن أقول لك إنني لن أنسى أبدًا ما حدث في الصف.

ـ وما الذي حدث؟

ـ حين دخلت إلى الصف، وأنا جالس في بدلة القرود تلك.

ـ يا إلهي! نعم، أتذكر ذلك!

تردد «فاكه». لعله أراد مصافحة «أنطون»، لكنه اكتفى برفع يده في آخر الأمر، وهبط السلم من جديد. بعد برهة قصيرة ترامى صوت إغلاق الباب.

أجال «أنطون» بصره فيما حوله. كان ستار من الشحم قد تشكل على الأغراض كلها؛ على الكتب والسدسيات هو الأسوأ على الإطلاق، من حسن الحظ كان غطاء البيانو مغلقًا. كان يجب عليه أن ينظف الغرفة أولًا، سواء أكان يعاني من ألم رأس أم لا يعاني. أزاح الستارة إلى جانب وفتح النوافذ على مصاريعها. بينما الضوضاء تقتحم الغرفة، وقف ينظر إلى شظايا الزجاج. كانت جهتها الخلفية ذات لون أسود باهت. لم يكن قد بقي من المرآة سوى إطارها الذي تبرز منه بضع شظايا حادة، ولوحتها الخلفية ذات اللون البني الغامق، التي ألصق عليها ورق الجرائد ذات يوم، وأُنتزع القسم الأكبر منها فيما بعد. كان الملاكان المذهّبان، بطبقهما من الفاكهة وذيليهما المصنوعين من أوراق شجر مجعدة، ما يزالان ينظران إليه من فوق بنظرات ملائكية لم تتغير. لا بد أن يتخلص من هذا الحجر أولًا، حتى إذا اضطر إلى رميه من النافذة، فلن يلفت انتباه أحد. سار بحذر شديد كي لا يتزحلق على الزجاج المتناثر على حصيرة القش، حتى إذا ما بلغ رف المدفأة، وقف وهو يحمل الحجر في يده، وقرأ سطرًا مكتوبًا بالإيطالية

على قصاصة الجريدة الملصقة على لوحة المرآة: في الثاني من يوليو عام ١٨٥٤، أقيم حفل ديني مهيب في كنيسة القديسة مريم، أم المعونة الدائمة..

لو لم يقرأ هذه القصاصة، لما عرف بهذا الخبر قط.

الجزء الرابع

١٩٦٦

١

بالنسبة إلى الحب أيضًا، كان يترك الأمور تأتي كما يحلو لها أن تأتي. كانت الفتيات اللاتي يأتين لزيارته ويجلسن على الكنبة ذات الحشو الهابط، عادة بسيقان مضمومة إلى أحضانهن، يتغيرن كل بضعة أشهر. في كل مرة كان عليه أن يشرح عمل السدسية، لكنه لم يكن يمل من إعادة الشرح على الإطلاق. كان بطريقة أو بأخرى مفتونًا بتلك الآلات النحاسية الرائعة ذات المرايا الصغيرة والأقواس المدرجة والمناظير الصغيرة التي تُرصد بها السماء والنجوم في الليل. في أغلب الأحيان، لم يكنَّ يفهمن من الشرح شيئًا، ولكن ما كنَّ يفهمنه دائمًا هو الحب الذي يشرح به عمل هذه الآلات، والذي ينلن منه جانبًا. أحيانًا كانت الكنبة تبقى خالية بضعة أسابيع، الأمر الذي لم يكن يزعجه كثيرًا: الذهاب إلى الحانات لالتقاط إحداهن لم يكن من أساليبه.

قدم مشروع تخرجه في سنة ١٩٥٩، وحين حصل على إجازة في التخدير، استأجر شقة بمساحة أكبر وإضاءة وفيرة، بالقرب من ساحة

«الايدسي بلاين». أصبح منذ ذلك الوقت يمشي كل صباح بضع مئات من الأمتار للوصول إلى مستشفى «فيلهيلمينا» الذي سُمي مؤقتًا، أثناء الحرب، بمستشفى «الفيستر». كانت شوارع المجمع الطبي الضخم تزدحم دائمًا بسيارات الإسعاف، والزائرين، والمرضى الذين بدأوا يمشون بضع خطوات وقد ارتدوا معاطفهم فوق بيجاماتهم المخططة. كان الأطباء يسيرون من مبنى إلى آخر في معاطفهم البيضاء المتهدلة، من بينهم «أنطون» وقد أمال رأسه على كتفه قليلًا، ويلقي شعره إلى الوراء بين الحين والآخر وهو يتهادى في مشيته بعض الشيء، الأمر الذي كان يلفت أحيانًا انتباه الممرضات العابرات إليه ويثير ودادهن، فينتهي بهن المطاف عادة على كنبة بيته. اضطر عدة مرات إلى العبور بالقسم الذي كُتب عليه «المستشفى الميداني» بالألمانية أثناء الحرب، لكن تفكيره بـ«شولتس» الذي حُمل إلى داخله جريحًا أو ميتًا قلَّ بمرور الوقت.

التقى بزوجته الأولى عام ١٩٦٠، أثناء قضائه لإجازة أعياد الميلاد في لندن. في النهار كان يتجول في المدينة، ويشتري ألبسة في شارع «ريجنت ستريت»، ويزور دكاكين أدوات الملاحة الفلكية القديمة التي كان يعرف عددًا منها خلف المتحف البريطاني، وفي الليل غالبًا ما كان يذهب لحضور الحفلات الموسيقية. في ذلك الوقت كان يرى كثيرًا من الرجال بقبعات البولر والمظلات المطوية، حتى عندما كان يرتاد المطاعم لتناول الغداء، كانت المشاجب تعج بهذه الأشياء العزيزة على نفسه. في ظهر يوم ماطر، عندما كان يهم على وجهه، ووجد نفسه في شارع «وايت هول»، بين تلك المباني

الضخمة المهيبة، حيث يقوم «الخيالة» بعرض رقصات غير مفهومة مثل ديكة متبخترة، قرر أن يدخل دير «وستمنستر» الذي لم يكن قد زاره من قبل.

كان الدير يعج بالسياح الأجانب والزائرين من المناطق القريبة. كان قد اشترى دليلًا سياحيًا ذا لون أحمر بنفسجي يجده المرء في إنجلترا وحدها، وفي كل أرجائها. فقط في صحن الكنيسة حتى مدخل منصة الكورال، كانت الخريطة تشير إلى وجود مائة وسبعين قبرًا من قبور النخبة من أبناء الوطن خلال ستة قرون، فما كان منه إلا أن أغلق الكتيب. كانت المنحوتات والكتابات المنقوشة منتشرة في كل مكان، على الأرض، وعلى الجدران والأعمدة؛ التماثيل والأضرحة مصفوفة في أمكنة العبادة مثل قطع أثاث معروضة في مزاد علني من الدرجة الثانية. في الممر الضيق الممتد على طول منصة الكورال، كان الأموات راقدين في رتل أحادي، مثلما يرقد المرضى أحيانًا على النقالات في الممر عند صالات العمليات، ولكن هؤلاء راقدون على ظهورهم، في توابيت من الرخام، وتحت تخدير أبدي. تخيل كيف سيكون الوضع هنا يوم القيامة، عندما يُبعث هؤلاء كلهم من قبورهم ويأخذ بعضهم بالتعرف إلى بعض، هذه المئات من الأبطال والنبلاء والفنانين: أكثر النخب رقيًا في المملكة المتحدة.

كانت العائلة المالكة راقدة خلف المذبح الرئيسي. بين هذه الجموع من الملوك والملكات كان الناس الذين لن يحظوا بالرقود هنا قط يسيرون ببطء، وقد توقفوا عن السير عند «كرسي التتويج» من شدة الزحام. لقد افتتن «أنطون» نفسه بهذا العرش الذي شهد تتويج

ملوك المملكة المتحدة كلهم تقريبًا منذ بداية القرن الرابع عشر. وهو عرش أثري من خشب البلوط، محلًى بنقوش بسيطة، ومسند ظهره حافل بالحروف الأولى من الأسماء التي نُقشت فيه في قرن من القرون، ولم يُرمم انطلاقًا من مبدأ الحفاظ على التراث، وتحت مجلسه الخشبي حجر كبير: «حجر المصير». فتح «أنطون» دليله من جديد: كان «حجر المصير» وسادة النبي يعقوب، وقد وصل إلى إيرلندا عن طريق مصر وإسبانيا في القرن الثامن قبل الميلاد، وبلغ بعد ألف وأربعمائة سنة اسكوتلندا، ثم انتهى به المطاف في إنجلترا، حيث يمكن رؤيته في هذه اللحظة في هذا المكان. مثلما توجد الحقيقة الحقة للملوك الراقدين حوله في مسرحيات «شكسبير» وحدها، هكذا بدت الحقيقة الجوهرية لهذه الأساطير عن الحجر. فقط عندما كان للإيرلنديين المطالبين بالعرش دم ملكي فعلًا، كان الحجر يتأوه أثناء تتويجهم عليه، وإلا فلا. انفجر «أنطون» بالضحك وقال بصوت عالٍ:

- وهو كذلك!

فسألته فتاة كانت تقف إلى جواره:

- ما هو؟

نظر إليها، وفي تلك اللحظة حُسم كل شيء.

كانت نظرتها، نظرة عينيها، وشعرها الكستنائي الشَعِث السميك. كانت تدعى «ساسكيا دخراف»، وتعمل مضيفة لدى شركة الطيران الملكية الهولندية. بعد أن زارا معًا جناح «زاوية الشعراء»، رافقها إلى مقصدها. كان عليها أن تذهب إلى أحد نوادي «سانت جيمس[1]

لتأتي بوالدها من هناك. كان والدها يذهب كل سنة في أعياد الميلاد إلى لندن لزيارة أصدقائه من زمن الحرب. عندما وصلا إلى مبنى النادي، واتفقا على موعد في أمستردام، نزل أحد الجنرالات السلم، وركب سيارة كانت تنتظره بسائق عسكري.

بعد انقضاء أسبوع، أثناء لقائهما الأول في بهو فندق «ديس إنديس»، في لاهاي، عندما سأله السيد «دخراف» بأسلوب لبق عن عائلته، أجاب «أنطون» بأن والده كان سكرتيرًا في المحكمة الابتدائية في «هارلم»، ولكن والديه كليهما قد ماتا منذ زمن بعيد. لم يخبر السيد «دخراف» بقصته إلا بعد مضي ستة شهور، في عصر يوم حار خانق، في أثينا حيث كان والد خطيبته سفيرًا فيها. بعد أن أصغى السيد «دخراف» إلى قصته، لزم الصمت وألقى ناظريه عبر ظل الغرفة إلى الحديقة الزاهية، التي تفوح منها رائحة طيبة، وتضج بهسيس الجداجد، وتقوم فيها نافورة صغيرة يندفع منها الماء في هدير. كان نادل في سترة بيضاء يحدث رنينًا بمكعبات الثلج على مصطبتها، حيث تجلس «ساسكيا» وأمها. في البعد كان يلوح من خلال أشجار السرو والصنوبر معبد «أكروبوليس». كل ما قاله السيد «دخراف» بعد مضي بضع دقائق كان:

- حتى الخير ينطوي على جانب من الشر في هذه الدنيا. لكن الجانب الآخر موجود أيضًا.

كان هو نفسه عضوًا في الهيئة المركزية لحركات المقاومة أثناء الحرب، وقد خولته وظيفته تلك لأن يكون على اتصال مباشر مع حكومة المنفى في لندن. لم يكن هو الآخر يتحدث كثيرًا عن تلك

الحقبة. ما كان «أنطون» يعرفه عنه، إنما سمعه من «ساسكيا»، التي لم تكن تعرف سوى نصف الحقيقة، لكنه لم يكن يحتاج إلى معرفة كل شيء عنه. ربما كان بوسعه أن يقرأ عنه في تحقيقات «اللجنة البرلمانية لتقصي الحقائق»، لكنه لم يفعل ذلك.

تزوجا بعد انقضاء سنة على لقائهما الأول. لم يحضر خاله حفلة الزفاف، فقد كان حادث مرور أحمق قد أودى بحياته. بعد زواجه بزمن قصير، حصل «أنطون» على عقد عمل ثابت، فاستطاعا بمساعدة مالية من السيد «دخراف» شراء بيت صغير في المنطقة نفسها، خلف مبنى الحفلات الموسيقية.

٢

في بداية يونيو من سنة ١٩٦٦، أثناء موجة حر شديد، كانت «ساسكيا» ستذهب لحضور جنازة أحد أصدقاء والدها، صحفي بارز تعرفه منذ أيام الحرب. سألت «أنطون» عما إذا كان يرغب في الذهاب معها، وعندما استطاع الحصول على إجازة ليوم واحد من عمله، أراد بدوره أن يصطحب ابنتهما «ساندرا»، التي كانت في ربيعها الرابع. سألته «ساسكيا»:

- هل ذهابها ضروري يا «طون»؟ الموت لا يعني شيئًا للأطفال.

فأجاب:

- لم أسمع بمثل هذا القول السخيف من قبل!

بدت إجابته أقسى مما أراد، فقدم إليها اعتذاره وطبع قبلة على خدها. قررا الذهاب إلى الشاطئ بعد انتهاء التشييع.

كان والد زوجته، البالغ من العمر ما بلغه القرن، قد أحيل إلى التقاعد لتوه، ويقيم في مزرعة في مقاطعة «خيلدرلاند». كان ينوي أن يأتي بالسيارة إلى الجنازة. اتصلت به «ساسكيا» وطلبت منه أن

يأتي لاحتساء فنجان من القهوة ثم يأخذهم معه. لكنه أجاب بأول جواب خطر في باله مثل إنسان ريفي أخرق: لن يروا حتى خياله في أمستردام، ماذا يظنون، أيجب أن يأتي لكي تهاجمه عصابات «البروفو»(*)؟ ضحك عندما قال ذلك، لكنه لم يأت، مع أنه كان قد واجه في حياته من التحديات ما هو أكثر خطورة.

كانت الجنازة تقام في قرية شمال أمستردام. وركنوا السيارة على أطراف القرية، وذهبوا سيرًا على الأقدام إلى الكنيسة الصغيرة، والعرق يتصبب منهما في ثيابهما الداكنة، أما «ساندرا» المرتدية اللباس الأبيض فلم تزعجها الشمس. كانت ساحة القرية تعج بالناس، معظمهم من الرجال والنساء المسنين الذين يعرف بعضهم بعضًا. كانوا يتبادلون التحية، ليس بحزن وأسى وإنما ضاحكين، ويسرفون في احتضان بعضهم بعضًا. كان هناك العديد من المصورين. وصلت سيارة «كاديلاك» سوداء كبيرة، ونزل منها وزير كان في الآونة الأخيرة يظهر كثيرًا في الأخبار المتعلقة بأعمال الشغب في أمستردام. أخذ الناس يحيونه هو أيضًا بالقبلات والتربيتات على الكتف.

قال «أنطون» لابنته:

- هؤلاء الناس كلهم قاتلوا ضد الألمان.

فقالت «ساندرا» بوجه ينم عن أنها على دراية تامة بالأمر:

- في الحرب.

(*) حركة ثقافية مضادة شبابية نشطت في هولندا بين ١٩٦٥ و١٩٦٧. (المترجمة).

وعدلت رأس دميتها بحركة حاسمة.

راقب «أنطون» الجميع وإحساس من الهيجان يحتمل في صدره من دون توقف. لم يعرف أيًا منهم، أما «ساسكيا» فقد ألقت التحية على عدد من الأشخاص الذين لم تعد تتذكر أسماءهم. جلسوا في الصف الأخير في الكنيسة البروتستانتية المقفرة من التماثيل، التي كان العزف على الأرغن قد شُرع فيها. عندما حُمل التابوت إلى داخل الكنيسة، نهض الجميع عن مقاعدهم، ولف «أنطون» ذراعه حول كتفي «ساندرا»، التي سألت بصوت هامس هل السيد الميت يرقد في التابوت. سارت الأرملة متأبطة ذراع السيد «دخراف»، حزينة طبعًا، وهي تومئ إلى المشيعين من حين إلى آخر بإيماءة خفيفة وابتسامة باهتة.

نادت «ساندرا» بصوت عالٍ فجأة:

ـ جدي!

عطف جدها رأسه نحوها وغمز لها غمزة بعينه. ذهبا إلى الصف الأمامي وجلسا إلى جانب الوزير.

رأى «أنطون» عمدة أمستردام أيضًا. ألقى قس مشهور، كان قد أمضى سنوات طويلة في معسكر اعتقال، خطبة التأبين. لشدة ما كانت مخارج كلماته طويلة ومتراخية، رفعت «ساندرا» عينيها ضاحكة إلى أبيها، وبدا وكأنه هو أيضًا قد اكتسب مهاراته الخطابية بالتغلب على تأتأة لسانه، مثل الخطيب «ديموستينيس»، الذي كان يتدرب على إلقاء الخطب بفم مليء بالحصى. بينما «أنطون» يصغي إليه بأذن واحدة، صُدم من رؤية وجه امرأة من الجانب، جالسة على بعد

بضعة صفوف إلى الأمام، على الطرف الآخر من الممشى الأوسط. تمثلت لعينيه لسبب أو لآخر صورة سيف مغروز بنصله الحاد في العشب. لقد بلغت صدمته هذا الحد. لا بد أنها كانت تبلغ من العمر نحو الخامسة والأربعين، كان شعرها الداكن، المتفش بعض الشيء، قد بدأ يشيب في بعض الأماكن.

انضموا إلى الصفوف الخلفية من موكب التشييع الذي بدأ بالسير إلى المقبرة الواقعة خلف الكنيسة. أثناء هذا المشوار القصير في الشارع ثم على طريق مفروش بالحصى، عاد الجميع إلى تجاذب أطراف الحديث، أخذ بعضهم يلوح لبعضهم الآخر، وراح بعضهم يسير على عجل إلى الأمام أو إلى الخلف. لم تكن جنازة بقدر ما كانت لم شمل للأصدقاء.

قالت «ساسكيا»:

ـ لقد التأم شملهم من جديد.

ـ أتمنى أن لا يعرفوا أنهم مجتمعون هنا.

ـ من تقصد؟

ـ الألمان طبعًا.

ـ اسكت، أرجوك!

عاد المصورون يبحثون عن الوجوه المعروفة، ووقف أهل القرية على الطرف الآخر من الشارع يتفرسون فيها. كان يبدو على معظمهم أنه يدرك لأول مرة أهمية الشخص الذي عاش بينهم تلك السنوات الماضية كلها. كان الصبية على دراجات نارية يراقبون الموكب بوجوه ساخرة، لكنهم أطفأوا محركاتها. بدا واضحًا أن هؤلاء الرجال

والنساء، الذين يعرج البعض منهم، لهم من الهيبة ما يجعلهم يحافظون على الهدوء.

ـ بابا؟

ـ نعم؟

ـ ما هي الحرب؟

ـ مشاجرة كبيرة. يعني إذا أرادت جماعتان من الناس أن تقطع كل منهما رأس الأخرى.

قالت «ساسكيا»:

ـ ليس إلى هذا الحد!

فسألها «أنطون» بضحكة:

ـ أوَ تظنين ذلك؟

في المقبرة تشكلت حلقة كثيفة من الناس حول القبر، فلم يستطع آل «ستينفايك» رؤية أي شيء مما يجري. بدأت «ساندرا» تشعر بالملل، فأمسكت «ساسكيا» بيدها وأخذت تتجول بها في المكان. سمعها «أنطون» من ورائه وهي تقرأ العبارات المنقوشة على الشواهد وتشرحها لـ«ساندرا». كان يرفع وجهه إلى الشمس الحارقة بين الفينة والأخرى، غير مبالٍ بالتصاق ملابسه بجسده. لم تتوقف الأحاديث الخافتة في الصفوف الأخيرة إلا عندما بدأت الأرملة نفسها بالحديث، لكن كلماتها ضاعت في فضاء اليوم الصيفي من دون أن تبلغ مسمعيه. لا بد أن الطيور المحلقة في السماء تراهم محتشدين في هذا السهل مترامي الأطراف، متحلقين حول هذه الحفرة الصغيرة السوداء في الأرض، مثل عين كبيرة محدقة في السماء.

في منزل الأبرشية وقفوا في نهاية صف المعزين، وبعد أن استطاعوا أخيرًا أن يقدموا تعازيهم للأرملة، ساروا بين السيارات المتأهبة للمغادرة صوب المقهى الواقع على الطرف الآخر من الشارع. كانت الطاولات الموضوعة خارج المقهى قد شغلها أهل القرية، وكان داخل المقهى أيضًا قد ازدحم ازدحامًا شديدًا. كان الناس قد احتشدوا بجانب البار، وسحبوا الطاولات بعضها إلى بعض، وفكوا ربطات أعناقهم، وخلعوا ستراتهم، وتعالت أصواتهم بطلبات البيرة والقهوة والسندويتشات. كان صندوق الموسيقى يصدح بأغنية «سترينجرز إن ذا نايت». كان الوزير موجودًا أيضًا، ويتحدث مع عمدة أمستردام وهو يخربش شيئًا من الجهة الخلفية لعلبة السيجار الخاصة به. كان كتّاب بارزون موجودين أيضًا، وحتى زعيم حركة «البروفو» ذو الصيت السيئ. حين اقترحت «ماميكيا» أن يذهبوا إلى مكان آخر، دخل والدها بصحبة حوالي سبعة رجال كان «أنطون» يعرف بعضهم من الوجه فحسب، ومضى معهم إلى طاولة كبيرة في الجهة الخلفية من المقهى، لعلها كانت محجوزة لهم. من الواضح أن زوجته كانت قد ذهبت مع الأرملة وعائلتها إلى منزل الفقيد. حين رأى ابنته و«أنطون»، أومأ لهما في طريقه إلى مكانه.

تألق نجم السيد «دخراف» حين جلس إلى الطاولة. ما لبثت أن انطلقت ثلاثة أحاديث في الوقت نفسه، وفي أحدها أخذ يدافع عن نفسه، من دون أن يؤثر ذلك على مرحه، الأمر الذي يميز من يعرف أنه ممسك بزمام الأمور. انحنى إليه رجل ذو ذؤابة شقراء وحاجبين

أكثر شقرة، وقال له إنه قد أصبح عجوزًا أخرق بالفعل. كيف يمكن أن يخطر في باله أن يشبِّه جبهة التحرير الفيتنامية بالنازيين؟ ليس لشيء إلا لأنه يرى الأمريكان هم الأمريكان أنفسهم الذين كانوا في الماضي. مع أن الذين تغيروا هم الأمريكان ويجب أن يُشبَّهوا بالنازيين. اتكأ السيد «دخراف» إلى ظهر الكرسي ضاحكًا، وأمسك حافة الطاولة بيديه الاثنتين وذراعاه ممدودتان، ما حدا بالرجلين الجالسين إلى يمينه ويساره أن يميلا أيضًا إلى الوراء. بدا، وهو جالس هناك بشعره الأبيض الخفيف وقسمات وجهه النبيلة، مثل رئيس لجنة مفوضين.

قال في استعلاء:

- يا عزيزي المحترم «باب»..

لكن «باب» قاطعه على الفور:

- لا تقل لي إنني نسيت أن الأمريكان حررونا.

- لم أكن أنوي قول ذلك.

- أشك في هذا. على أية حال أنا لم أنس أي شيء، بل أنت نسيت أمرًا.

فسأل «دخراف» بسخرية:

- وما الذي نسيته يا ترى؟

- نسيتَ أن الروس حررونا أيضًا، على الرغم من أننا لم نرهم في شوارعنا. الروس هم الذين هزموا الجيش الألماني، وهم الذين ما يزالون يقفون على الطرف الصحيح في فيتنام.

قال الرجل، الجالس خلف ذراع «دخراف» اليسرى، بنبرة باردة:

ـ ليتنا نترك هذا النوع من النقاشات للآخرين.

قال «ياب»:

ـ ولكن أليست هذه هي الحقيقة! الروس تخلصوا من الستالينية، لكن الأمريكان صاروا يرتكبون مجازر بحق الشعوب.

ارتسمت ابتسامة متكلفة تحت الشارب الأسود للرجل الجالس خلف الذراع اليسرى، ابتسامة تشي بأنه يوافق «ياب» في الرأي، لكنه يرى مع ذلك أنه يخوض جدالًا لا طائل منه.

قال «دخراف» بنبرة راضية باتجاه «أنطون»:

ـ كلهم شيوعيون قذرون... من خيرة الرجال!

فابتسم له «أنطون». من الواضح أن هذا النقاش كان لعبة تلهوا بها كثيرًا من قبل.

قال «ياب»:

ـ نعم، نعم... من خيرة الرجال! لكنك يا «خيرت»، منذ سنة ١٩٤٤ لم تعد تعادي الألمان، بقدر ما عاديت خيرة الرجال هؤلاء!

كان «أنطون» على يقين تام من أن والد زوجته لا يدعى «خيرت»، بل «خودفريد ليوبولد جيرومي». بدا واضحًا أن المجتمعين هنا ما زالوا يدعون بعضهم بعضًا بالأسماء الحركية التي كانوا يستخدمونها في زمن المقاومة. من الطبيعي إذن ألا يكون «ياب» هو الاسم الحقيقي لـ«ياب».

نظر السيد «دخراف» ببراءة إلى «ياب»:

ـ وما الذي كنت تتوقعه مني؟ كان الألمان قد انهزموا في ذلك الوقت، أليس كذلك؟

وبهتت ابتسامته بعض الشيء:

ـ أكان علينا أن نبدل دكتاتورًا بدكتاتور آخر؟

قال «ياب»:

ـ أبله!

ـ يجب أن تشعر حيالنا بعرفان الجميل. لو فعلت ما كنت بصدد فعله في سنة ١٩٤٥، لما فُصلت من الحزب فحسب، كما هو حالك الآن، بل لحكم عليك الستاليون بالإعدام أيضًا، لا سيما أنك كنت في ذلك المركز، مثلما حكموا في تشيكوسلوفاكيا على «رودولف سلانسكي». أنا كنت في براغ أثناء تنفيذ الحكم. الفضل في بقائك على قيد الحياة يعود إلى السلطة العسكرية.

وحين بقي «ياب» صامتًا:

ـ فأن تقضي حياتك كلها رئيسًا لفريق كرة قدم على مزبلة التاريخ أفضل من أن تكون ميتًا، أليس كذلك؟

شابك الرجل الضخم الجالس على الطرف الآخر من السيد «دخراف»، وهو شاعر مشهور يتجلي تعبير خبيث في عينيه الحولاوين، شابك ذراعيه فوق صدره، وراح يضحك قائلًا:

ـ أظن أن الحديث يأخذ منحى مشوقًا!

قال «ياب» رافعًا كتفيه:

ـ أو تظن ذلك! فلتعلم أنه يستطيع دائمًا أن يفحمني بحججه!

سأل السيد «دخراف»:

ـ هل تعرف الأبيات التي كتبها صديقنا الشاعر «شورد»؟

وراح يلقي الأبيات رافعًا سبابته في الهواء:

إذا استكان شعب للطغاة

خسر ما يزيد عن النفس والمتاع

فقد أطفأ نور الحياة

فقال الرجل ذو الشارب:

- لا ينبغي أن يُستخدم الشعر لهذه الأغراض، فها هو يبرر من جديد قصف القرى بقنابل النابالم. ولكن حسنًا، فهذا يحدث في آسيا. على ذكر هذا الحديث، أنت أيضًا قمت بدور غريب أثناء المشكلة الإندونيسية، فقد كتبت: «الهند خسرناها، حياة فقدناها» أو شيئًا من هذا القبيل. أظنه شعرًا رديئًا، لكن اسأل رأي صديقنا عنه.

فقال الشاعر:

- شعر لا قيمة له.

- وهذا هو بيت القصيد، فتلك العمليات العسكرية نفسها في الهند الشرقية قد كلفت «شورد» نفسه بضع سنوات من حياته، في حين لم تكن أوضاعنا في هولندا في يوم من الأيام أفضل مما وصلت إليه، منذ أن فقدنا السيطرة على الهند الشرقية.

فقال «دخراف» بنبرة حلوة:

- الفضل في ذلك يعود إلى «خطة مارشال» يا عزيزي «هينك»، المساعدة التي قدمها لنا الأمريكان، هل تتذكر؟

- كانوا مدينين لنا، فلا داعي لأن نشكرهم على ذلك. الثورة الأمريكية قامت بتمويل من البنوك الهولندية، وكانت ثورة

مستعمرة إنجليزية يا عزيزي «خيرت». ثم إننا نسدد لهم ديون «خطة مارشال» إلى آخر سنت، بينما أشك في أننا رأينا سنتًا واحدًا من تلك الأموال التي قدمناها لهم في القرن الثامن عشر.

فقال السيد «دخراف»:

ـ فلتحرْ عن ذلك.

ـ أنا لست شيوعيًا. أنا ضد الفاشية. ولأن الشيوعية هي العدو الأكبر للفاشية، فأنا أعادي من يعادي الشيوعية. هذا شيء أكيد.

سأل «ياب» فجأة وهو يتقدم في مقعده:

ـ هل تعرف لماذا كان «دخراف» في المقاومة؟ وهل تعرف إكرامًا لعيون مَن استبسل ذلك الاستبسال كله؟ إكرامًا لعيون الأميرات الصغيرات...

نطق الكلمات الأخيرة بنبرة تنم عن أنه يهم باستفراغ ما في معدته.

فقال «دخراف» وقد استعاد وجهه طابع التباهي والاستعلاء:

ـ أكيد!

ـ فاشي بذيء، متعصب للعائلة المالكة! هذا أنت، ولا شيء غير هذا!

قالت «ساسكيا» لـ«أنطون» وهي تنهض عن مقعدها:

ـ أنا ذاهبة من هنا! لست بحاجة لسماع هذا! سألقاك بعد قليل.

بينما يهتف «دخراف» ضاحكًا:

ـ لقب شرف، لقب شرف!

نهض «أنطون» عن مقعده. لمح من جديد المرأة التي كان ينظر إليها في الكنيسة قبل قليل وهي واقفة بين الحشود.

كان والد زوجته يضحك في أثناء ذلك بصوت عالٍ، فقد وجد نفسه أخيرًا في وضع يشعر فيه بأقصى درجات السرور. أخذ يهتف في اندفاع وحماسة:

- ماذا تعرفون أنتم عن السحر الخفي للملكية! وأي شيء أجمل وأسمى للروح من القصر الملكي «سوستدايك» في المساء! حين ينبعث الضوء من النوافذ كلها، وتأخذ سيارات «الليموزين» السوداء بالذهاب والإياب، وتنطلق الأوامر من فوق البساط العشبي. السادة يقفون ببدلاتهم الرسمية وسيوفهم اللامعة، السيدات يرفلن في أثوابهن الطويلة ومجوهراتهن المتلألئة وهن يرتقين سلم المدخل، ويرحب بهن الضباط الشباب الوسماء من القوات البحرية. في داخل القصر تتألق الثريات، ويطوف الخدم بصحاف فضية عليها كؤوس الكريستال المترعة بالشمبانيا، ومن حين إلى آخر قد تشملك نظرة خاطفة من أحد الأمراء أو الأميرات، وإن أراد الله قد تشملك نظرة من جلالتها المعظمة نفسها! وعلى مسافة بعيدة، خلف الأسوار التي تحرسها الشرطة العسكرية، حيث يتساقط رذاذ المطر، يعيش الشعب البائس..

قاطعه الشاعر الذي رأى قبل قليل أن النقاش يأخذ منحى مشوقًا:

- إنك تعني ما تقول! فليأخذك الشيطان! يا يسوع المسيح! لو كنت حقيرًا مثلك، لما استطعت أن أكتب كلمة واحدة!

وتناثر بعض من اللعاب من فمه، وحط على ياقة سترة السيد «دخراف» ذات اللون الكحلي، ليس بعيدًا عن وسام الشرف المعلق في عروتها.

قال «دخراف»:

ـ الأمر الذي سيعده النقاد البارزون نعمة تنزل على آداب وطننا.

قال «هينك» للشاعر المحتدم:

ـ لا تدعهم يزعجونك، يا رجل!

أخرج «دخراف» منديل جيبه، ومسح به فقاعات الزبد البيضاء. كانت ربطة عنقه الفضية تبرز بعقدتها إلى الأمام وتتوارى بإحناءة جميلة تحت صدريته. ضحك «ياب». أما الرجل الجالس إلى الطرف الآخر من الشاعر، وهو ناشر مشهور، فقد فرك يديه إحداهما بالأخرى وقال بابتهاج:

ـ يا له من يوم عنيف!

قال «هينك»:

ـ وذلك الشعب البائس، رمى مؤخرًا في أمستردام القنابل الدخانية على العائلة المالكة الأثيرة لديك.

فقال «دخراف» باحتقار شديد:

ـ قنابل دخانية..

تابع «هينك» مخاطبًا شخصًا يقف خلف «أنطون»:

ـ وذلك سيكلفك رأسك.

التفت «أنطون»، فرأى أن الدفء الذي أحس به في رقبته طيلة ذلك الوقت كان مصدره عجيزة الوزير «الكالفينية» المتينة. بدا واضحًا أنه أنصت إلى جزء من الحديث، فقد قال:

ـ ممكن جدًا.

ـ وما الذي ستفعله؟

ـ سأشرب كأساً أخرى.

رفع كأسه في الهواء، وتبادل نظرة مع السيد «دخراف» ثم استدار على عقبيه.

خيم الصمت على الطاولة فجأة. بقي فقط الرجلان الجالسان إلى جانب «أنطون» الأيسر يتحدثان على انفراد بصوت خافت، كما فعلا طيلة ذلك الوقت.

في تلك اللحظة التقط «أنطون» هذه الجملة:

ـ بينما أتجاوزه على الدراجة الهوائية، أطلقت الرصاص على ظهره أولّا، ثم على كتفه، ثم على بطنه.

٢

في مكان بعيد في نفق الماضي يتصاعد دوي الطلقات الست: في البداية طلقة واحدة، ثم طلقتان، فطلقتان أخريان، ثم طلقة واحدة. تمثل لعينيه والدته وهي تنظر إلى والده، ووالده وهو ينظر إلى الباب الجرار، و«بيتر» وهو يرفع غطاء مصباح الغاز..

أدار «أنطون» رأسه إلى الرجل الذي كان جالسًا إلى جواره طيلة ذلك الوقت، ولم يدر إلا وقد سأله:

- وهل أطلقت رصاصة رابعة فخامسة؟ ثم سادسة؟

نظر إليه الرجل مغمِّضًا جفنيه:

- ماذا تعرف عن ذلك؟

- هل تتحدث عن «بلوخ»؟ «فاكه بلوخ»، في «هارلم»؟

مضت بضع ثوان قبل أن يسأل الآخر ببطء:

- من أنت؟ وكم عمرك؟

- كنت أقيم هناك. لقد حدث ذلك أمام منزلنا، أقصد...

قال الرجل:

- أمام...

وغص بكلماته.

فهم «أنطون» كل شيء على الفور. لم يسبق أن رأى شخصًا يشحب لونه بتلك السرعة التي شحب بها وجه الرجل الجالس بجانبه، باستثناء المرضى على سرير العمليات. كان وجهه المتفخ المضمخ ببقع حمراء وجه شخص يسرف في الشراب، وقد شحب خلال بضع ثوان وكمد لونه فأصبح مثل عاج قديم، وكأن تغيرًا مفاجئًا طرأ على الإضاءة. بدأ «أنطون» يرتعش قليلًا.

قال الرجل الجالس على بُعد مقعدين منهما:

ـ أوه... أوه... مأزق!

ما لبث أن لاحظ الجميع حول الطاولة أن مشكلة ما قد حدثت. ساد مزيد من الصمت، أعقبته مباشرة بلبلة ولغط في الحديث، ونهض بعضهم عن مقعده. هتف السيد «دخراف» بأن «أنطون» صهره وأراد أن يتدخل بينهما، لكن الرجل قال له إنه يريد أن يحل مشكلته بنفسه، ثم قال لـ«أنطون» وكأنه يريد أن يحسم الأمر معه:

ـ تعال معي إلى الخارج.

أخذ سترته من فوق ظهر مقعده، أمسك «أنطون» من يده، وسحبه وراءه شاقًا طريقه بين جموع الناس، مثل طفل. وهكذا شعر «أنطون» بنفسه أيضًا: اليد الدافئة لهذا الرجل، الذي يكبره بعشرين سنة، وهو يأخذه معه. لم يحدث أن شعر بمثل هذا الشيء مع خاله، عندما كان يمسك يده ويسير به، شعر به فقط مع أبيه في يوم من الأيام. لم يكن الآخرون في المقهى يعرفون شيئًا مما يحدث، فافسحوا لهما الطريق ضاحكين. كانت فرقة «بيتلز» تصدح من صندوق الموسيقى بأغنية:

«إتس بين آ هارد ديز نايت...»

ما إن وصلا إلى خارج المقهى حتى ساد الهدوء. كانت الساحة تتوهج في الشمس، وجماعات من الناس ما تزال واقفة هنا وهناك، لكن «ساسكيا» و«ساندرا» لم يكن لهما أي أثر.

قال الرجل بعد أن جال ببصره فيما حوله:

ـ تعال.

قطعا الشارع، ودخلا المقبرة من جديد عبر بوابتها الحديدية. كان حشد من أهل القرية قد تجمعوا حول القبر المفتوح ويقرأون المكتوب على الشرائط والكروت المرفقة بباقات الورد. كانت دجاجات المزرعة القريبة تتجول فوق القبور الأخرى والمماشي الفاصلة بينها. توقف الرجل عن السير عند مقعد حجري في ظل شجرة سنديان، ومدَّ يده إلى «أنطون» وقال:

ـ اسمي «كور تاكيس». وأنت تدعى «ستينفايك».

ـ «أنطون ستينفايك».

قال مشيرًا برأسه إلى المقهى:

ـ إنهم ينادونني بـ«خايس».

وجلس على المقعد.

جلس «أنطون» بجانبه. لم يكن يرغب في هذا كله. لقد قال ذلك رغمًا عنه، في ردة فعل تلقائية، مثلما يرد عصب من الأعصاب على نقرة من مطرقة المنعكسات. أخرج «تاكيس» علبة سجائر من جيبه، وسحب منها سيجارة إلى نصفها، وضيَّفها لـ«أنطون». هزَّ «أنطون» رأسه علامة الرفض، والتفت إليه قائلًا:

ـ اسمعني. دعنا ننصرف من هنا، وننسى كل شيء. لا شيء يستدعي الحل، لا شيء حقًا. ما حدث قد حدث. أنا لا أعاني من شيء، صدقني. لقد مضى أكثر من عشرين سنة على ذلك. أنا عندي زوجة وطفل وعمل جيد، وكل أموري تسير على خير ما يرام. كان يجب أن أبقى صامتًا.

أشعل «تاكيس» سيجارة، وسحب نفسًا عميقًا، ثم نظر إليه بغضب:

ـ لكنك لم تبق صامتًا.

وبعد استراحة قصيرة:

ـ وقد حدث الأمر وانتهى.

لم يخرج الدخان من فمه إلا مع كلمات الجملة الثانية.

أحنى «أنطون» رأسه بنعم وقال:

ـ صحيح.

لم يستطع أن يجد مفرًّا من عينيه الكئيبتين البنيتين وهما تحدقان فيه. كانت عينه اليسرى تختلف عن اليمنى، كان جفنها متورمًا بعض الشيء، وتنجلي فيها نظرة ثاقبة لم يستطع «أنطون» مقاومتها. لا بد أن «تاكيس» في الخمسينيات من عمره، لكن شعره الأشقر الداكن المسترسل، لم يشب إلا عند السوالف بعض الشيء. كانت بقعتان كبيرتان من العرق تلطخان ما تحت إبطيه. أحس «أنطون» بأن جلوسه إلى جانب الرجل، الذي اغتال «بلوخ» في تلك الليلة من ليالي شتاء المجاعة، مثل حكاية خرافية.

قال «تاكيس»:

ـ لقد قلت شيئًا ما كان ينبغي لك أن تسمعه، لكنك سمعته. ثم قلت

أنت شيئًا لم تكن تريد قوله. هاتان حقيقتان واقعتان، لذلك نحن جالسان هنا. كنت أعلم أنك موجود. كم كان عمرك حينذاك؟

ـ اثنا عشر عامًا.

ـ هل كنت تعرف ذلك الوغد؟

أجاب «أنطون»:

ـ من الوجه فقط.

ووقعت كلمة «الوغد»، التي وصف بها «بلوخ»، من أذنيه موقعًا أليفًا بطريقة غريبة.

ـ طبعًا، هذا شيء بديهي، فقد كان يمر من عندكم كل يوم.

قال «أنطون»:

ـ وكنت مع ابنه في الصف نفسه.

لم يفكر أثناء قوله هذه الجملة بذلك الفتى الصغير الذي كانه حينذاك، بل بالرجل الكبير الذي كسر مرآته بحجر قبل عشر سنوات.

ـ ألم يكن يدعى هو أيضًا «فاكه»؟

ـ بلى.

ـ كان له ابنتان أيضًا. كانت الصغرى حينذاك في الرابعة من العمر.

ـ نفس عمر ابنتي الآن.

ـ ها أنت ترى إذن أن ذلك لم يشفع له.

أحس «أنطون» برعشة تسري في جسده. شعر أنه بجوار قساوة لا توصف، قساوة لم يعهدها في أي شخص من قبل، سوى في الرجل الذي كانت له ندبة على وجنته. أيجب أن يقول له هذا؟ لم يفعل. لم يرغب في أن يعطيه انطباعًا بأنه يهاجمه، وهو فوق ذلك لن يخبر

«تاكيس» بشيء جديد. من الواضح أنه يجلس بجانب شخص تخلى عن هذا النوع من التفكير منذ أمد بعيد.

ـ هل تريد أن أخبرك أي نوع من الأشخاص كان ذلك المدعو «بلوخ»؟

ـ لا حاجة لي بذلك.

ـ أما أنا فلي حاجة. كان لديه سوط مجدول بسلك معدني، يضرب به وجهك حتى ينقشع الجلد عنه، ويجلد به مؤخرتك العارية حتى ينسلخ جلدها، ثم يضغطك بقفاك على المدفأة المشتعلة. كان يحشر خرطوم الماء في دبرك، ويترك الماء يتدفق فيه إلى أن ترشق خراءك. لا أعرف كم قتل من الناس، وأرسل أكثر من ذلك بكثير إلى معسكرات الموت في ألمانيا وبولونيا. حسنًا، كان من الضروري أن نُريح العالم من شره. هل توافقني في الرأي؟

وحين بقي «أنطون» صامتًا قال:

ـ نعم أم نعم؟

فأجاب «أنطون»:

ـ نعم.

ـ حسنًا! ولكن من ناحية أخرى كنا نعرف أنهم سيردون بعمليات انتقام..

قاطعه «أنطون»:

ـ سيد «تاكيس»، هل ما أفهمه صحيح؟!

ـ ادعني «خايس».

ـ هل ما افهمه صحيح، وهو أنك تدافع عن نفسك أمامي؟ أنا لا أهاجمك.

ـ أنا لا أدافع عن نفسي أمامك.

ـ أمام من إذن؟

أجاب «تاكيس» بنفاد صبر:

ـ لا أعرف. ليس أمام نفسي على كل حال، وليس أمام الله، أو أي شيء من هذا القبيل. الله غير موجود، وربما أنا نفسي غير موجود.

بتلك السبابة نفسها، التي ضغط بها على الزناد في تلك الليلة، رمى عقب سيجارته على العشب، وسرح بعينيه في المقبرة:

ـ هل تعرف من موجود؟ الموتى. الأصدقاء الموتى.

في تلك اللحظة عبرت سحابة صغيرة من أمام الشمس، كما لو أنها أرادت إقناعه بوجود قدرة إلهية، فبهتت الأزهار الموضوعة على القبر وكأنها أحست بالذنب، ووضحت في الوقت نفسه معالم القبور ذات اللون الفضي وطغت على ما حولها. ما لبث أن عاد كل شيء يسبح في بحر من النور. تساءل «أنطون» فيما بينه وبين نفسه: هل المودة التي يشعر بها حيال هذا الرجل الجالس بجانبه على المقعد، متأتية عن شعوره المزدوج؟ فهو يشعر بأنه شارك عن طريقه في العنف الذي حدث في ذلك الوقت، ومن ثم لم يعد مجرد ضحية. ضحية؟ طبعًا هو ضحية وإن كان لا يزال حيًا يُرزق، ولكن في الوقت نفسه يشعر بأن ما حدث قد حدث لشخص آخر غيره.

أشعل «تاكيس» سيجارة أخرى وقال:

ـ حسنًا. كنا نعلم إذن أنه ستحدث عمليات انتقام، اتفقنا؟ كنا نعلم أنهم سيضرمون النار في منزل من تلك المنازل، وأنهم سيعدمون رهائن، ولكن هل كان علينا ألا نقوم بتلك العملية لهذا السبب؟

حين لم يقل أي شيء آخر، نظر إليه «أنطون»:

ـ هل تريد أن أجيب أنا عن هذا السؤال؟

ـ طبعًا.

ـ لا أستطيع. لا أعرف.

ـ أنا سأجيب إذن: الجواب هو لا. وإن قلت لو لم نقم بتصفية «بلوخ»، لكان أهلك قد بقوا على قيد الحياة، لأجبتك بأن هذا صحيح، صحيح بكل بساطة، ولا شيء أكثر من ذلك. وإن قال أحد الأشخاص لو أن والدك استأجر منزلًا آخر في شارع آخر، لبقي أهلك على قيد الحياة، لكان ذلك صحيحًا أيضًا. ولكنت الآن جالسًا هنا مع شخص آخر، إلا إذا كانت تلك العملية قد حدثت في الشارع الآخر، لأن «بلوخ» ربما هو أيضًا كان يسكن في مكان آخر. هذا ضرب من الحقائق التي لا تجدي نفعًا. الحقيقة الوحيدة المجدية هي أن نسلّم بأن كل شخص قتله من قتله وليس أحدًا آخر. نحن قتلنا «بلوخ»، والألمان قتلوا أهلك. إذا كنت ترى أننا ما كان ينبغي لنا أن نفعل ما فعلناه، فعليك أن ترى أيضًا أنه من الأفضل، في ضوء التاريخ، ألا يكون الجنس البشري موجودًا من الأصل، ذلك لأن الحب والنعيم والخير الموجود في العالم كله لا يستطيع

أن يعوض عن موت طفل واحد، طفلك على سبيل المثال.

فهل هذا رأيك؟

أطرق «أنطون» في حيرة. لم يفهم كل ما قاله «تاكيس»، إذ لم يحدث أن فكر في مثل هذه الأشياء، في حين «تاكيس» ربما لم يكن يفكر في شيء آخر غير هذه الأشياء.

ـ لذلك فعلنا ذلك. كنا نعرف...

سأل «أنطون» فجأة:

ـ وهل يعوض ذلك تلك الخسارة؟

رمى «تاكيس» سيجارته على الأرض أمام قدميه، وأخذ يدعسها بحذائه إلى أن لم يبق منها سوى قطع صغيرة، ثم سحب الحصى عليها. لم يجب عن السؤال.

ـ كنا نعلم أن هناك احتمال دك منزل واحد على الأقل من تلك المنازل. فيما يتعلق بهذا الأمر، تصرف أولئك السادة بمرونة. لكننا لم نكن نعرف أي منزل. وقع اختيارنا على تلك المنطقة لأنها كانت الأكثر هدوءًا، ولأننا كنا نستطيع أن نغادر منها بسهولة. وكان لا بد أن نغادر، لأنه كان ما يزال على قائمتنا أنذال آخرون.

سأل «أنطون» في تمهل:

ـ لو كان والداك يعيشان في أحد تلك المنازل، فهل كنت ستقوم باغتياله هناك أيضًا؟

نهض «تاكيس» عن المقعد، مشى خطوتين في بنطاله الفضفاض المتهدل، ثم التفت إليه وقال:

ـ لا، اللعنة! طبعًا لا! ماذا تقصد؟ لم أكن سأختار ذلك المكان أيضًا، لو أمكن ذلك في مكان آخر. فلتعلم أن أخي الأصغر كان واحدًا من أولئك الرهائن، في تلك الليلة. وكنت أعرف أنه رهينة عندهم. هل تريد أن تعرف رأي أمي فيما فعلت؟ لم ترَ فيه بأسًا. إنها ما تزال على قيد الحياة، وتستطيع أن تسألها بنفسك! هل تريد أن أعطيك عنوانها؟

أرغم «أنطون» نفسه على عدم النظر في عينه اليسرى.

ـ أنت تنظر إليّ وكأنني أنا المذنب في كل ما حدث، اللعنة! كان عمري اثني عشر عامًا، وكنت أقرأ في كتاب حين حدث ذلك!

عاد «تاكيس» إلى الجلوس وأشعل سيجارة أخرى:

ـ مصادفة حمقاء هي التي شاءت أن يسقط أمام منزلكم.

نظر إليه «أنطون» من طرف عينه وقال:

ـ لم يسقط أمام منزلنا.

أدار إليه «تاكيس» رأسه ببطء، وقال بالإنجليزية:

ـ عفوًا؟!

ـ لقد سقط أمام منزل الجيران، لكنهم وضعوا جثته أمام منزلنا.

مدّ «تاكيس» ساقيه، وأراح إحدى قدميه فوق الأخرى، ووضع يده في جيب بنطاله. جال ببصره على المقبرة وهو يهز رأسه في حركات خفيفة متتابعة. قال بعد برهة قصيرة:

ـ جار قريب أفضل من صديق بعيد!

سرى في كيانه ما يشبه الرعشة، لعلها كانت ضحكة ساخرة:

ـ وأي أناس كانوا أولئك الجيران؟

ـ رجل أرمل مع ابنته. بحّار.

أخذ «تاكيس» يحني رأسه من جديد إحناءات خفيفة، قال:

ـ لك جزيل الشكر. نعم، طبعًا هذا ممكن أيضًا: أن يساعد المرء المصادفة على الحدوث.

سأل «أنطون»:

ـ هل يمكن ذلك؟

وشعر في الحال بأنه سؤال ساذج.

ردّد «تاكيس»:

ـ هل يمكن ذلك! هل يمكن ذلك! حزر فزر. اطرح هذا السؤال على القسيس، لا بد أنه ما يزال يتجول هنا في هذا المكان. اثبت لهم مرة واحدة أنهم على خطأ في رأيهم. لو أطلقت الرصاص عليه بعد ثلاث ثوانٍ فحسب، لسقط أمام بابكم.

قال «أنطون»:

ـ أنا أسأل ذلك، لأن أخي حاول أن ينقل الجثة أمام المنزل المحاذي، أو ربما كان يريد إعادتها إلى مكانها، لا أعرف بالضبط، فقد وصلت الشرطة في تلك اللحظة.

صاح «تاكيس»:

ـ يا يسوع! وأخيرًا فهمت لماذا كان في الشارع! ولكن كيف حصل على ذلك المسدس؟

نظر إليه «أنطون» في اندهاش:

ـ كيف تعرف أنه كان معه مسدس؟

ـ ماذا تظن؟ قمت بالتحريات بعد الحرب.

ـ كان مسدس «بلوخ».

قال «تاكيس» بتمهل:

ـ يا له من يوم حافل بالمعلومات!

سحب نفسًا من سيجارته، ونفث الدخان من زاوية فمه:

ـ من كان يعيش في المنزل المحاذي؟

ـ شخصان كبيران في السن.

اليد المرتجفة وهي ترفرف إليه. «الخيار المخلل مثل التماسيح». قال ذلك لـ«ساندرا» ذات مرة، لكنها لم تضحك. لقد وافقت على هذا الرأي.

قال «تاكيس»:

ـ طبعًا! لو أعاد الجثة، لوقع اشتباك كبير.

وأردف مباشرة:

ـ يا إلهي، يا إلهي، يا إلهي! يا لها من تصرفات حمقاء! يا لهم من أغبياء، جميعهم! ينقلون تلك الجثة من مكان إلى آخر!

ـ ماذا كان ينبغي أن نفعل؟

زمجر «تاكيس»:

ـ أن تنقلوها إلى الداخل طبعًا. كان يجب عليكم أن تنقلوها بأسرع وقت ممكن إلى داخل المنزل.

نظر إليه «أنطون» في ذهول. طبعًا! بيضة «كولومبوس»! قبل أن يتمكن من قول أي شيء، تابع «تاكيس»:

ـ فكر معي. لقد سمعوا دوي الطلقات من مكان ما في ذلك الحي، لكنهم لم يعرفوا بالضبط من أي مكان. فماذا عساهم

كانوا يفعلون لو لم يروا شيئًا في الشارع؟ ما كان ليخطر ببالهم أن اعتداءً قد وقع، بل إن حارسًا من حراسهم قد أطلق رصاصة على شخص ما، أو شيئًا من هذا القبيل. أم أن أحدًا من جيرانكم كان عميلًا للألمان ووشى بكم؟

ـ كلًّا. ولكن ما الذي كان علينا أن نفعله بتلك الجثة؟

ـ وكيف لي أن أعرف! تخبئونها، تحت أرضية المنزل مثلًا، أو تدفنونها في الحديقة. أو من الأفضل أن تأكلوها على الفور. تشوونها مع الجيران وتأكلونها معًا. كانت هناك مجاعة في ذلك الشتاء، أليس كذلك؟ ثم إن مجرمي الحرب لا يعَدون من البشر، ليُحسب ذلك أكلًا للحوم البشر.

كان «أنطون» هو الذي ارتعش هذه المرة بما يشبه الضحكة: والده، سكرتير المحكمة الابتدائية، يشوي المفتش العام للشرطة ويأكله. مسألة أذواق!

ـ إذا كنت تظن أن مثل هذه الأشياء لم تحدث، فأنت مخطئ. لقد حدث كل شيء. حدث كل ما يخطر ولا يخطر على بال، وحدث أفظع من ذلك.

كان الناس الذين يذهبون إلى القبر أو يأتون من عنده ينظرون إليهما، إلى هذين الرجلين الجالسين على مقعد حجري تحت شجرة، وأحدهما أصغر سنًّا من الآخر، وما يزالان يرثيان صديقهما الميت ـ في حين أن الآخرين جالسون منذ وقت طويل في المقهى ـ ويسترجعان ذكرياتهما معه: «هل تتذكر تلك المرة التي أخذ فيها...». وكانا، إذا ما مرَّ الناس من عندهما، يلزمان الصمت في خجل.

قال «أنطون»:

ـ سهل عليك أن تقول هذا. أنت لم تكن تفكر في شيء سوى في مثل هذه الأشياء، وأظنك ما تزال تفعل ذلك حتى الآن. أما نحن فكنا جالسين حول الطاولة في البيت ومشغولين بالقراءة، وسمعنا فجأة دوي تلك الطلقات.

ـ حتى في هذه الحالة كنت سأفكر في هذا الحل مباشرة.

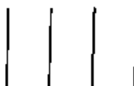
ـ هذا متوقع منك، فأنت كنت واحدًا من الجماعة المسلحة. أما والدي فقد كان سكرتير محكمة لا يفعل شيئًا، بل يكتب فقط ما يفعله الآخرون. على كل حال لم يكن لدينا وقت كاف لفعل ذلك. على الرغم من أن...

ورفع عينيه فجأة، ناظرًا إلى أوراق الشجرة:

ـ في البداية حدث نوع من الشجار..

على الرغم من ضوء النهار، رأى حركات غامضة في ممر يلفه ظلام حالك، ثم سمع صرخة، وكأن «بيتر» وقع على كومة حطب، وشيئًا له علاقة بمفتاح... اختفى المشهد مثلما تختفي شذرة حلم عندما يتذكرها الإنسان لحظة قصيرة أثناء النهار.

انصرف انتباهه إلى «تاكيس» الذي خطَّ بكعب حذائه أربعة خطوط عمودية في الحصى، ما جعل التراب الأسود يظهر في قاعها.



قال:
- اصغِ إليَّ، كانت هناك أربعة منازل، أليس كذلك؟
- أجل.
- وكنتم تسكنون في المنزل الثاني من اليسار.
- انت تتذكر ذلك جيدًا!
- أنا ما ازال أذهب لزيارة ذلك المكان من حين إلى آخر. معروف عن الأبطال أنهم يعودون دائمًا إلى الأماكن التي قاموا فيها بأعمالهم البطولية. على الرغم من أن... من الجائز جدًا أنني الوحيد الذي يفعل ذلك، على الأقل الذي يزور ذلك الرصيف الذي كنت تعيش عليه. ولكن حسنًا، أنا لا أعرف سوى أنه كان راقدًا هنا، أمام منزلكم. عند أي من الجيران كان منطرحًا في البداية: عند هؤلاء أم هؤلاء؟
أجاب أنطون وهو يشير بحذائه إلى المنزل الثاني من اليمين:
- عند هؤلاء.
أحنى «تاكيس» رأسه ونظر إلى الخطوط:
- عفوًا، لديَّ سؤال آخر. لماذا وضع ذلك البحار الجثة عندكم، وليس هنا، عند الجيران الآخرين؟
نظر «أنطون» هو الآخر إلى الخطوط:
- لا أعرف. هذا السؤال لم يخطر ببالي من قبل.
- لا بد أن يكون هناك سبب. هل كان يكرهكم؟
- لا أظن. كنت أذهب لزيارتهما أحيانًا. أعتقد أنهما كانا يكرهان الجيران الآخرين الذين كانوا يتجاهلون الجميع.

سأل «تاكيس» وهو ينظر إليه في اندهاش:

ـ ألم تحاول أن تعرف السبب؟ ألا يهمك ذلك أبدًا؟

ـ ألا يهمك! ألا يهمك! قلت لك إنني لست في حاجة إلى تذكر هذه الأشياء كلها. ما حدث قد حدث وانتهى. ولا يمكن تغييره ولا حتى بفهم تفاصيله. كانت فترة حرب، أي أزمة كبيرة، وقُتل أهلي، وأنا بقيت على قيد الحياة، ورباني خالي وزوجته، وعادت أموري إلى خير ما يرام. كان معك كل الحق عندما قتلت ذلك الوغد، حقًا، ولن تسمع مني أي اعتراض. عليك أن تقنع ابنه، أما أنا فلا ضرورة لذلك. لكن لماذا تريد الآن أن تحل تلك القضية؟ ذلك غير ممكن، ثم ما الذي يمكن أن يتغير في الأمر؟ لقد أصبح ذلك تاريخًا، تاريخًا قديمًا. ثم ألم تحدث مثل تلك الأمور بشكل متكرر منذ ذلك الوقت؟ ولعلها تحدث الآن في هذه اللحظة التي تتحدث فيها. هل تستطيع أن تضع يدك على قلبك وتحلف بأنه لا تُضرم النار بقاذف النيران في هذه اللحظة في بيت من البيوت؟ في فيتنام على سبيل المثال؟ فعمَّ تتحدث؟! حين اصطحبتني إلى الخارج قبل قليل، ظننتك مهتمًا براحة بالي، لكن الأمر ليس كذلك بتاتًا، أو على الأقل ليس كذلك تمامًا. أنت تعاني أكثر مني. أعتقد أنك لا تستطيع أن تترك الحرب وراءك، لكن الزمن يسير إلى الأمام. أم أنك نادم على ما فعلت؟

تحدث بسرعة ولكن بهدوء، وفي الوقت نفسه كان يعتريه شعور غامض بأنه يجب أن يتمالك نفسه من أجل ألا يجرح الآخر في العمق.

قال «تاكيس» من دون أن يتردد لحظة واحدة:

ـ سأفعل الشيء نفسه غدًا، إذا لزم الأمر، ولعله سيلزم غدًا مرة أخرى. قضيت على كتيبة كاملة من أولئك الأوغاد، وما زلت راضيًا كل الرضا عما فعلته. لكن تلك العملية التي قمت بها عندك على رصيف القناة، كان لها بعد آخر. لقد حدث شيء هناك.

واستند بيديه على حافة المقعد وغيَّر وضعية جلوسه:

ـ دعني أقول إنني تمنيت فيما بعد لو أنها لم تحدث.

ـ ابسبب مقتل والديَّ؟

أجاب «تاكيس» بقسوة:

ـ كلَّا، لا تؤاخذني على قولي هذا! فذلك لم يكن متظرًا ولا متوقعًا. ربما قُتلا لأنهم ضبطوا مسدسًا مع أخيك، أو لسبب آخر، أو من دون أي سبب، لا أعرف بالضبط.

قال «أنطون» من دون أن يرفع عينيه:

ـ أو ربما لأن أمي هجمت على رئيس أولئك الألمان.

لزم «تاكيس» الصمت وأخذ يحدق أمامه، ثم عطف وجهه نحو «أنطون» وقال:

ـ إن كنت تظن أنني أعذبك إرضاءً لشعوري بالحنين إلى الحرب، فأنت مخطئ حتمًا. أنا أعرف هذا النوع من الناس، لكنني لست واحدًا منهم. إنهم يذهبون في كل إجازة إلى برلين، ويفضلون أن يعلقوا صورة هتلر فوق أسرَّتهم. لا، المشكلة هي أنه حدث شيء آخر في «هارلم».

لمع بريق في عينيه، ورأى «أنطون» تفاحة آدمه تعلو وتهبط عدة مرات.

ـ والداك وأخوك وأولئك الرهائن لم يكونوا الوحيدين الذين لقوا مصرعهم في تلك الليلة. في الواقع، لم أكن وحدي حين أطلقت الرصاص على «بلوخ». كنا اثنين. كنت في صحبة أحد... دعني أقول كنت بصحبة صديقتي. ما علينا، دعنا من هذا.

حدق فيه «أنطون»، وفجأة جاشت مشاعر الحزن في قلبه وغمرت كيانه كله. غطى وجهه بيديه وانتحى جانبًا وأخذ يجهش بالبكاء. لقد ماتت. ماتت بالنسبة إليه في هذه اللحظة، بعد انقضاء إحدى وعشرين سنة، وفي الوقت نفسه انبعثت من جديد على النحو الذي كانت تعنيه له، مضت إحدى وعشرون سنة، وهي متوارية في الظلام، ومن دون أن يفكر فيها لحظة واحدة، فلو فكر فيها، لسأل نفسه هل هي ما تزال على قيد الحياة. لكنه أدرك فجأة أنه كان يبحث عنها قبل قليل، في الكنيسة، ثم بعد ذلك في المقهى، وأنه لهذا السبب جاء إلى هذه الجنازة التي لا تعنيه بأي حال من الأحوال.

شعر بيد «تاكيس» فوق كتفه:

ـ ماذا حل بك؟

أزاح يد «تاكيس» عن كتفه. كانت دموعه قد جفت، عندما سأل:

ـ كيف ماتت؟

ـ أعدمت على تلال الشاطئ قبل التحرير بثلاثة أسابيع. إنها مدفونة هناك في «المقبرة التذكارية». ولكن قل لي بحق السماء لماذا كل هذا الاهتمام بها؟

أجاب «أنطون» بصوت خافت:

ـ لأنني أعرفها، لأنني تحدثت معها. كنت مسجونًا في زنزانتها في تلك الليلة.

حدق فيه «تاكيس» بارتياب:

ـ كيف تعرف أنها كانت هي؟ ماذا كان اسمها إذن؟ فهي من المستحيل أن تكون قد كشفت لك عن شخصيتها!

ـ لا، لم تكشف، لكنني أجزم أنها كانت هي.

ـ هل قالت إنها شاركت في ذلك الاعتداء؟

هزَّ «أنطون» رأسه بلا:

ـ لا، لم تقل، لكنني أجزم أنها كانت هي.

قال «تاكيس» بانفعال:

ـ كيف، اللعنة! كيف كان شكلها؟

ـ لا أعرف. كان الظلام حالكًا.

فكر «تاكيس» لحظة.

ـ هل ستعرفها إن رأيت صورتها؟

ـ أنا لم أرها يا «تاكيس»! لكنني... أريد أن أرى صورتها.

ـ وماذا قالت؟ لا بد أنك تتذكر شيئًا من كلامها!

رفع «أنطون» كتفيه:

ـ ليتني أستطيع. كان ذلك في الماضي البعيد... كانت مصابة.

ـ أين؟

ـ لا أعرف.

تخضلت عينا «تاكيس» بالدموع. قال:

ـ لا بد أنها كانت هي، حتى وإن لم تقل من كانت. أصابها «بلوخ» برصاصة في اللحظة الأخيرة، حين كنا نهمُّ بالانعطاف إلى الزاوية.

حين رأى «أنطون» دموع «تاكيس»، أخذ هو أيضًا يجهش بالبكاء، سأل:

ـ ماذا كان اسمها؟

ـ «تروس». «تروس كوستر».

كان الناس الواقفون عند القبر لا يفعلون شيئًا سوى النظر إليهما من أطراف عيونهم. لعلهم كانوا مندهشين من أن يكون بمقدور رجلين بالغين أن يحزنا كل هذا الحزن على صديقهما الميت، أو لعلهم يظنون أنهما منافقان..

ـ آه! إنهما هنا، هذان الأبلهان!

كان صوت حماته. اجتازت البوابة وفي أعقابها «ساسكيا» و«ساندرا»: قامتان سوداوان على الحصى اللامع الباهر للأبصار، وطفلة مكسوة بالأبيض. نادت «ساندرا»: «بابا!»، ورمت دميتها من يدها وركضت إلى «أنطون»، فنهض «أنطون» عن المقعد، وانحنى بجذعه وتلقاها بين ذراعيه. رأى في عيني «ساسكيا» المحملقتين أنها قلقة عليه، فأومأ لها مطمئنًا. لكن أمها التي وقفت مستندة على عكازها الأسود البراق، ذي المقبض الفضي، لم ينطلِ عليها الأمر بسهولة، فقد قالت غاضبة:

ـ يا للعجب! هل أنتما جالسان هنا تذرفان الدموع؟

فرفعت «ساندرا» رأسها بحركة سريعة إلى وجه «أنطون».

أحدثت السيدة «دخراف» صوتًا كأنما لتفرغ ما في معدتها:

- إنتما تشعراني بالغثيان! ألن تكفا عن الحديث عن تلك الحرب القذرة أبدًا؟ هل تريد أن تجنن صهري يا «خايس»؟ نعم، نعم، طبعًا، عدت إلى ذلك من جديد!

ندت عنها ضحكة ساخرة غريبة اهتز لها خداها المكتنزان:

- ليس من اللائق أبدًا أن تقفا هنا على هذا النحو، مثل الذين يُضبطون بوضعية الجماع مع الأموات، وفي المقبرة أيضًا! توقفا عن هذا في الحال. هيا، تعالوا معي، كلكم.

استدارت على عقبيها ورجعت أدراجها، مشيرة بعكازها إلى الدمية الملقاة على الحصى، ومن دون أن تشك لحظة واحدة في أنها ستُطاع. وكان لها ما أرادت.

قال «ناكيس» وهو يطلق ضحكة غريبة هو الآخر، تنم عن أنه قد سبق وخاض نقاشات من هذا النوع مع السيدة «دخراف»:

- امرأة مذهلة!

حين نظر إليه «أنطون»، قال:

- الملكة «فيلهيلمينا»!

بينما كانوا يعودون أدراجهم إلى الساحة، أخبرته «ساندرا» بأنها ذهبت مع أمها إلى منزل السيد الميت، وشربت هناك كوبين من عصير الليمون. كان المقهى قد بدأ يفرغ من الناس. كانت السيارة الرسمية التي يرفرف العلم عليها واقفة أمام باب المقهى، وكان السائق واقفًا بجانب بابها الخلفي. ألقوا نظرات فاحصة على «أنطون»، لكن لم يتدخل أحد في شأنه. دخلت «ساندرا» مع جدتها إلى المقهى

لتجيء بجدها. قالت «ساسكيا» وهي تمسك الدمية بين يديها، إن «ساندرا» جائعة ويجب أن تأكل شيئًا، وإنها اقترحت على أمها أن يتناولوا الغداء معًا في مكان ما في الريف.

قال «تاكيس»:

ـ قف بهدوء لحظة واحدة.

وقف «أنطون» بهدوء، وأحس بأن «تاكيس» يكتب شيئًا على ظهره. ألقت عليه «ساسكيا» في أثناء ذلك النظرة القلقة نفسها التي ألقتها عليه قبل قليل، فأغلق عينيه لحظة في إشارة إلى أن كل أموره تسير على ما يرام. شق «تاكيس» ورقة من مفكرته، وطواها، ووضعها في جيب سترة «أنطون». صافحه في صمت، وحنى رأسه لـ«ساسكيا»، ودخل المقهى.

على حافة الرصيف، كان «ياب» يحاول تشغيل دراجته النارية. عندما وُفق في ذلك، خرج الوزير بصحبة السيد «دخراف» من المقهى، فنزع السائق قبعته عن رأسه وفتح باب السيارة، لكن الوزير ذهب إلى «ياب» أولًا، وصافحه:

ـ إلى اللقاء يا «ياب».

أجابه «ياب»:

ـ أجل، إلى اللقاء في المرة القادمة.

٤

أرادت «ساندرا» بطبيعة الحال أن تركب سيارة جدها وجدتها، واتجهت السيارتان إحداهما وراء الأخرى عبر الطرقات الريفية إلى المطعم الذي يعرفه «أنطون». كان بوسعه أن يتحدث مع «ماسكيا» بهدوء عما حدث، لكنه لم يفعل. بقي جالسًا خلف المقود بصمت، وكانت «ماسكيا» قد تربت على أنها يجب أن تمسك هي أيضًا عن الكلام، عند رؤية الناس الذين عاشوا تجربة الحرب في مثل هذه الحالة. سألته فقط هل ما حدث قبل قليل كان نوعًا من المصالحة، فأجاب: «شيئًا من هذا القبيل»، مع أن ذلك لم يكن صحيحًا. ظل ينظر إلى الطريق وهو يشعر بنفسه وكأنه بقي في حمام ساخن أطول من اللازم. حاول أن يتذكر حديثه مع «تاكيس»، لكنه لم يكن يعرف بعد كيف عليه أن يفعل ذلك، كأنما لم يكن ثمة شيء يستطيع أن يفكر فيه في تلك اللحظة. حين تذكر الورقة التي وضعها «تاكيس» في جيب سترته، أخرجها، وفتحها بأصابع يد واحدة. كان فيها عنوان ورقم هاتف.

سألته «ساسكيا»:

ـ هل ستذهب لزيارته؟

أعاد الورقة إلى جيبه، وأزاح شعره إلى جانب، ثم أجاب:

ـ لا أظن.

ـ لكنك لم ترها.

نظر إليها مبتسمًا:

ـ لا، لم أفعل.

كان المطعم، الذي وصلوا إليه بعد نحو عشر دقائق، ذا طابع ريفي فاخر، كان في السابق بيت مزرعة بسطح هرمي. كان داخله مظلمًا ومقفرًا، فقد كان الزبائن يتناولون الغداء في ظل الأشجار، حيث يقوم على خدمتهم نُدُل في زي رسمي.

هتفت «ساندرا» عندما خرجت من السيارة الأخرى وركضت إليهما:

ـ أريد بطاطس مقلية..

رددت السيدة «دخراف»:

ـ بطاطس مقلية!

وأطلقت من جديد صوتًا ينم عن أنها على وشك إفراغ ما في معدتها:

ـ أرى أنها لهجة سوقية!

ثم لـ«ساسكيا»:

ـ ألا تستطيعين أن تعلمي ابنتك أن تقول لتلك القذارة «بوم فريت»؟

قال السيد «دخراف»:

- دعي البنت المسكينة تأكل بطاطس مقلية، إن لم تكن تحب «البوم فريت».

- أريد بطاطس مقلية.

فقال لها السيد «دخراف»:

- ستأكلين بطاطس مقلية.

ووضع يده على رأسها مثل القبعة:

- مع بيض مقلي، أم أنك تفضلينها مع «سكرامبلد إجز»؟

- لا، بيض مقلي.

فقالت «ساسكيا»:

- بابا! أتتذاكى عليها؟

جلس السيد «دخراف» على رأس المائدة، ووضع يديه من جديد بذراعيه الممدودتين على حافة الطاولة. حين همَّ النادل بتقديم قائمة الطعام له، أبعدها بظهر يده قائلًا:

- سمك للرجل. وبطاطس مقلية مع بيض مقلي للأميرة الصغيرة. وزجاجة نبيذ فرنسي موضوعة في صندوق تبريد ومثلَّجة جيدًا. لأنني أراك في بدلتك هذه، أعرف أنني سأشرب نبيذًا أطيب بكثير من المعتاد.

انتظر إلى أن سيطرت زوجته على ضحكتها، ثم نشر منديل المائدة على حضنه:

- أنتم تعرفون الحكاية التي تروى عن «ديكنز»، أليس كذلك؟ كان يعزم أصدقاءه على العشاء في كل عيد من أعياد الميلاد. كان

يذكي النار ويشعل الشموع، وكانوا إذا ما جلسوا إلى المائدة لتناول الإوزة، سمعوا صوت متشرد وحيد يقف في الثلج تحت النافذة وهو يدبدب بقدميه على الأرض من شدة البرد، ويصيح كل بضع دقائق: «أوه، يا له من برد قارس!». كان ديكنز يستأجره لهذه المهمة من أجل أن يوضح الفارق.

نظر ضاحكًا إلى «أنطون» الجالس قبالته. كان يقصد بمرحه الزائد أن يطيب خاطره، لكنه حين رأى النظرة المرتسمة في عيني «أنطون»، بهتت ضحكته. وضع منديله إلى جوار طبقه، وأومأ له إيماءة برأسه ونهض عن مجلسه. وقف «أنطون» هو الآخر ولحق به. حين أرادت «ساندرا» أن تنهض هي الأخرى عن مقعدها، قالت لها السيدة «دخراف»:

- ابقي مكانك.

توقفا عن السير عند حافة ساقية ملأى بالطحالب، تفصل فناء المطعم عن المروج الخضراء.

- كيف حالك يا «أنطون»؟

- لا بأس يا والدي.

- ذلك المجنون «خايس». إنه أخرق من الدرجة الأولى. أثناء الحرب تعرض للتعذيب ولم ينطق بكلمة واحدة، والآن يتكلم خبط عشواء. أخبرني بحق السماء كيف جلست بجانبه هو بالذات!

قال «أنطون»:

- هذه هي المرة الثانية التي يتلاقى فيها طريقانا.

ألقى عليه السيد «دخراف» نظرة استفهام، لكنه عندما فهم قصده، قال:

- أجل، أفترض ذلك.

- لكن لهذا السبب تنسجم الأمور بعضها مع بعض. أقصد... يعدِّل بعضها بعضًا.

ردد «دخراف»:

- يعدِّل بعضها بعضًا!

وأحنى رأسه ثم قال بإيماءة:

- هكذا إذن؟ إنك تتحدث بالألغاز، لكن يبدو أن هذه هي طريقتك في استعادة طمأنينة نفسك.

ضحك «أنطون»:

- أنا نفسي لا أفهم ما الذي أقصده تحديدًا.

- من الذي يجب أن يفهم إذن؟ ولكن حسنًا، فأهم شيء هو أن تبقى الأمور تحت سيطرتك. لعل ما حدث في ظهر هذا اليوم كان خيرًا لك. نحن أجَّلنا كل شيء طويلًا، والآن تظهر مشاكلنا. هذا ما أسمعه من جميع الجهات. يبدو أن السنوات العشرين الماضية كانت فترة حضانة لأمراضنا. أعتقد أن الأحداث الجارية في أمستردام لها علاقة أيضًا بهذا الموضوع.

- أنت لا تعطي انطباعًا بأنك تعاني من مشكلة ما.

قال السيد «دخراف»:

- أجل..

وحاول برأس حذائه الأسود اقتلاع حجر كانت الأعشاب

والحشائش قد غرزته في الأرض. عندما لم يستطع اقتلاعه، رفع عينيه إلى «أنطون» وأحنى رأسه بنعم:

ـ أجل، دعنا نعود إلى المائدة. ألا تظن أن ذلك أفضل؟



بعد أن غادر السيد «دخراف» وزوجته باتجاه «خيلدرلاند»، دخلت «ساسكيا» و«أنطون» كلٌ على حدة إلى الحمام، وخرجا بملابسهما الصيفية. بعد هذا التغيير الكامل في المظهر ذهبوا إلى شاطئ «فايك آن زي».

على نهاية الطريق الضيق الممتد بين التلال الرملية، حيث لا تزال تقوم هنا وهناك ملاجئ من أيام «الجدار الأطلسي»، كان البحر يمتد في ركود وهدوء حتى الأفق. لأنه كان يومًا من أيام دوام المدرسة، فقد كان أغلب زائري الشاطئ من الأمهات مع أطفالهن الصغار. ساروا بأقدام حافية على الرمال الساخنة، والقواقع الحادة المتراصة على خط المَدّ، ميممين وجوههم صوب برك المياه البعيدة. لم يصبح الجو منعشًا إلا هناك. خلعت «ساسكيا» و«ساندرا» ملابسهما على الفور، وهرولتا إلى البركة ذات المياه الفاترة، الواقعة أمام الركام الرملي الأول، في حين رتَّب «أنطون» أغراضهم أولًا، مدَّ المناشف على الرمال ووضع رواية بوليسية تحتها، وطوى الملابس، وجهز السطل والرفش الصغيرين، ووضع ساعة يده في حقيبة «ساسكيا»، ثم دخل البحر خائضًا المياه بخطى وئيدة باتجاه العمق.

خلف الركام الرملي الثاني، حيث لم يعد يحس بالأرض تحت قدميه، أصبحت المياه باردة فعلًا. لكن برودتها كانت غريبة ومزعجة

لم تشعره بالانتعاش، فقد كانت انعكاسًا للعمق الميت القارس الذي اكتسح جسده، لكنه بقي مع ذلك يسبح برهة من الزمن. على الرغم من أنه لم يكن قد ابتعد عن الشاطئ أكثر من مائتي متر، فإنه لم يعد ينتمي إلى اليابسة. كان الساحل هادئًا ومترامِيًا إلى اليمين وإلى اليسار مثل عالم مختلف عن العالم الموجود فيه. تبدو عليه التلال الرملية، والمنارة، والمباني المنخفضة بالهوائيات العالية على سطوحها. باغته شعور بالتعب والوحدة، بدأ فكه السفلي بالارتعاش، فسبح بأقصى سرعة ممكنة عائدًا إلى الشاطئ، كما لو أنه يهرب من خطر يتهدده من وراء الأفق. أصبحت المياه تدفأ شيئًا فشيئًا، وما إن شعر بالأرض تحت قدميه حتى أخذ يخوض المياه خوضًا. كانت المياه عند «ساسكيا» و«ساندرا» دافئة مثل مياه الحمام. تمدد على ظهره هناك، فوق تموجات الرمل القاسية، وبسط ذراعيه وتنهد بعمق، وقال:

- المياه باردة هناك.

عاد إلى الشاطئ، وسحب منشفته بضعة أمتار إلى الوراء، على الرمال البيضاء الساخنة. جاءت «ساسكيا» وجلست بجانبه، وراحا يراقبان معًا «ساندرا» التي كانت تراقب بدورها من مسافة مناسبة فتاة من نفس عمرها وهي تبني قلعة من الرمال. ما لبثت أن اقتربت منها بصمت وأخذت تشاركها في بناء القلعة، لكن الأخيرة تظاهرت بأنها لا تلاحظها.

سألته «ساسكيا»:

- كيف تشعر الآن؟

طوق كتفيها بذراعه.

ـ على ما يرام.

ـ ارميه وراء ظهرك.

قال:

ـ لقد رميته.

واستلقى على بطنه:

ـ الشمس تشعرني بالراحة.

أخفى وجهه في تجويف ما بين ذراعيه وأغلق عينيه. أحس برعشة في جسده من ميلان شيء بارد على ظهره وخاصرته، ثم بيدي «ساسكيا» وهي تدهنه بكريم الشمس..

عندما رفع رأسه بحركة مفاجئة بعد مضي برهة من الزمن، أدرك أنه غفا غفوة قصيرة. عاد إلى الجلوس وأخذ يراقب «ساسكيا» التي كانت تجثو على ركبتيها وتدهن «ساندرا» بكريم الشمس من دون أن تلاحظ صغيرتها ذلك. كانت الشمس قد بلغت أوج قيظها. كان بعض الناس يلعبون بالكرة في المياه، واثنان من الفتية يعزفان على «الغيتار» في ظل سقيفة من القماش. كان الأطفال الصغار يسيرون إلى البحر ويخرجون منه بسطولهم المملوءة بالماء، ويفرغونها في الحفر بقناعة لا تتزعزع بأن الماء سيبقى فيها ذات مرة. أمسك «أنطون» كتابه وحاول أن يقرأ قليلاً، لكن الورق اللامع أعشى بصره من دون النظارات الشمسية، حتى في ظل رأسه.

بدأت «ساندرا» تتذمر، فأخذتها «ساسكيا» مرة أخرى ودخلت بها مياه الشاطئ. حين خرجتا من البحر، سارتا والماء يتقاطر منهما

صوب جماعة محتشدة على مسافة ليست بعيدة، ولكن بعد برهة قصيرة هرولت «ساندرا» باكية إلى «أنطون»: الصبيان هناك يقطعون بالرفوش أوصال قنديل بحر بنفسجي اللون، يبلغ حجمه حجم مقلاة، ولا يستطيع قنديل البحر أن يدافع عن نفسه. أخذت «ساسكيا» تلملم أغراضها، بعزيمة ثابتة ورثتها عن أمها:

- أنا ذاهبة مع «ساندرا» إلى القرية لشراء حاجيات المنزل، وبعد ذلك سنذهب إلى البيت. البنت متعبة جدًّا، في البداية الكنيسة، ثم الجنازة، ثم منزل الفقيد..

جثت على ركبتيها، وراحت تنشِّف «ساندرا» التي أخذت تهتز على ساقيها الصغيرتين وفقًا لحركة المنشفة.

- دعيني أذهب معكما إذن.

- لا، ابق هنا! وإلا استغرق بنا الأمر وقتًا أطول. سوف نشرب شيئًا، ثم نعود لنذهب بك من هنا.

تعقبهما بعينيه من أجل أن يلوح لهما مرة أخرى، لكنهما شقتا طريقهما إلى الأعلى من دون أن تنظرا إلى الوراء. حين اختفتا عن ناظريه، استلقى على ظهره، وجسمه يلمع من العرق، وأغلق عينيه..

تصاعدت الأصوات من الشاطئ باتجاه قبة كبيرة بحجم قبة السماء. رأى نفسه يرقد أو يحوم مثل نقطة في مركزها، في فضاء شاسع وردي اللون ما لبث أن ابتعد عن العالم. انبعثت أصوات طرق وخفقان، أصوات من تحت الأرض، مع أنه لا توجد أرض: إنها أصوات طرق وخفقان تصدر عن الفضاء نفسه. يهبط الظلام ويتلبد

الجو بالغيوم بعض الشيء، مثل كوب ماء حين تسقط فيه قطرة من المداد: امتزاج مشوه ما هو بالامتزاج، حركة انتشار البلازما في الدم، أشياء تتغير في هيئتها، يد غامضة المعالم تتحول إلى وجه بروفيسور تقليدي ذي لحية صغيرة على ذقنه، ومونوكل على عينه، ثم إلى فيل من فيلة السيرك واقف في زينة مبهرجة فوق عربة مسطحة. صوت الطرق يتحول إلى دوي قطار يسير على سكة ملأى بمحولات المسار، يتحول القطار إلى مقطوعة موسيقية، فحفيف سنابل القمح. الأشياء كلها تسودُّ في ظلام الليل المتقطر. لهب حاد يتصاعد من خوذة ذات ريشة فوق درع حديدية، وإذ بالأشياء كلها تصبح قاسية وثابتة. يعود النور من جديد. يظهر باب ضخم من الكريستال الوردي لا ينيره نور، بل يشع هو نفسه بالنور. فوقه ملاكان بذيل من أوراق شجر مجعدة، هما أيضًا من الكريستال. الباب مسدود بقضبان مصنوعة، أو مصهورة، من الحديد المدهون باللون الوردي. يرى أن كل شيء قد بقي على حاله من دون أن يتعرض للتلف بعد هذه السنوات كلها. إنه في منزله، «خالي الهموم». على الرغم من أن الباب مسدود بالقضبان، يستطيع دخول المنزل، لكن الغرف خالية، وتعديلات جمة أجريت على المنزل فلا يعود يتعرف شيئًا، وامتلأ بالتماثيل والمنحوتات والزخارف. يسود صمت مثل صمت أعماق البحار. يخوض عبر الغرف المتحولة إلى صالات كبيرة بصعوبة بالغة، وكأن شيئًا ما يعيقه عن المسير. فجأة يرى شيئًا مألوفًا، غرفة مكتب والده الصغيرة في الجهة الخلفية من المنزل، ولكن في المكان الذي كان الجدار المائل ينتصب فيه، يقوم مبنى من الزجاج، شبيه بدفيئة زجاجية

أو بيت زراعي، في داخله نافورة صغيرة، وواجهة معبد إغريقي شاهقة وبيضاء بياض الكلس.



ها هو يرقد على الكنبة في سرواله الداخلي فقط، أبواب الشرفة مفتوحة على مصاريعها على المساء الصيفي الدافئ. لا يضيء الغرفة سوى ضوء الغسق ومصابيح الشارع. يرى كيف أن الشمس قد لفحته في وجهه وصدره وساقيه من الأمام. على الرغم من أن بشرته الضاربة إلى السمرة لا تلفحها الشمس سريعًا، فإنها الآن تبلغ من الاحمرار في تلك الأماكن كما لو أنه قد تعرض لضرب مبرِّح. عندما أيقظته «ساندرا»، كان قد نام ساعة ونصف الساعة. أثناء النوم، تقلل الدورة الدموية من سرعتها، في حين تزداد سرعة في الشمس من أجل أن يتخلص الجسم من الحرارة الزائدة، وعندئذ يُصاب الإنسان بلفحة الشمس. استيقظ على ألم فظيع في رأسه، لكن في المقعد الخلفي للسيارة، في الظل المنعش، كاد ألم رأسه يختفي بشكل كامل. لعل النبيذ الذي تناوله أثناء الغداء كان له علاقة بذلك.

كانت أصوات حركة المرور تتناهى إلى سمعه بلا توقف من البعد، ولا يتناهى إليه من الشارع سوى أصوات الناس الجالسين على شرفاتهم أو على الرصيف أمام منازلهم. كان ثمة طفل يعزف على الناي على بعد بضعة منازل منهم. لأن «ساندرا» لم تستطع أن تخلد إلى النوم، أرقدتها «ساسكيا» في سريرهما الكبير بعد العشاء، ورقدت بجانبها، فما لبثت أن غطت هي نفسها في النوم.

حدق «أنطون» أمامه وهو يشعر بالتعب. كان يفكر بـ«تاكيس»،

وبأن كل شيء في هذه الدنيا ينكشف عاجلًا أم آجلًا على ما يبدو، ويُبت في أمره، ثم يوضع جانبًا. كم مضى من الزمن على زيارته لآل «بويمر»؟ نحو خمس عشرة سنة، فترة أطول من عمره في سنة ١٩٤٥. لا بد أن السيد «بويمر» يرقد الآن في قبره بهدوء، ولعل السيدة «بويمر» قد لحقت به هي الأخرى. لم يعد إلى «هارلم» منذ ذلك الحين. و«فاكه»؟ الله وحده يعلم في أي أرض يعيش، هذا ليس بالأمر المهم، لعله أصبح مديرًا للشركة التي كان يعمل فيها في «دين هيلدر». و«تاكيس»؟ «تاكيس» أمره مختلف، لقد بكى أحدهما مع الآخر. كانت تلك هي المرة الأولى التي يبكي فيها لما حدث، لكنه لم يبكِ والديه و«بيتر»، بل موت فتاة لم يرها في حياته. «تروس»... «تروس» ماذا؟ اعتدل في جلسته بعض الشيء، وحاول أن يتذكر كنيتها، لكنه لم يستطع تذكرها. لقد أُعدمت على تلال الشاطئ رميًا بالرصاص، وانساب دمها في الرمل.

أغلق عينيه علَّه يستحضر ظلام تلك الزنزانة، وأصابعها التي مرَّت على وجهه برفق وحنان... وضع يديه على وجهه، وراح يحدق بعينين متسعتين من بين قضبان أصابعه. تنفس تنفسًا عميقًا، ومسح شعره إلى الوراء بيديه الاثنتين. يجب أن لا يفعل هذا، هذا شيء خطير. إنه ليس على ما يرام، يجب عليه أن يذهب إلى النوم، لكنه شابك ذراعيه على صدره وراح يحدق أمامه من جديد.

«تاكيس» يحتفظ بصورتها. هل يجب عليه أن يذهب إليه ويحدد شخصيتها؟ كانت حبيبة «تاكيس»، حبه الكبير على ما يبدو، ومن البديهي أن يكون له الحق في أن يسمع أخبارها الأخيرة منه. لكنه

لا يستطيع أن يتذكر شيئًا مما قالت، لا يتذكر سوى أنها تحدثت كثيرًا وأنها لمست وجهه. النفع الوحيد الذي يستطيع جنيه من زيارة «ناكيس» هو إخراجها من الحضور الخفي الكثيف، ووضعها في صورة معينة، فهل يرغب في ذلك؟ ألن يحط بذلك من مكانتها عنده؟ لا يهم إن كان وجهها جميلًا أو دميمًا، جذابًا أو غير جذاب، أو أيًا كانت صفاته، لكنه على الأقل سيتصورها كما كانت هي في الحقيقة وليس على هيئة أخرى، في حين الآن ليس بمقدوره أن يتصورها إلا في صورة خيالية محضة، مثل الأطفال الكاثوليكيين الذين يتصورون الملائكة الموكلة بحمايتهم في صور خيالية.

وعندئذ حدث ما يلي: نهض من وضعية استلقائه على نحو يذكّر بالحركة الرشيقة وحالة انعدام الوزن التي ينطلق بها البهلوان من الشبكة بعد أن يقفز فيها من علو شاهق، وجثا على ركبتيه، وراح يتأمل الصورة التي كان يحدق فيها طوال ذلك الوقت من دون وعي منه: الصورة المؤطرة الموضوعة بجانب السدسيات فوق الخزانة المصنوعة من خشب الماهوغوني المطعّم بالنحاس. على الرغم من أنه لا يستطيع تمييز الصورة عن الأشياء الأخرى في ضوء الغسق، فإنه يعرف أنها هي: «ساسكيا» في فستان أسود طويل إلى الكاحلين، وبطنها متكور بـ«ساندرا» التي وضعتها بعد بضعة أيام من التقاط الصورة. ليس صحيحًا أنه لم يكن لديه تصور لشكل الفتاة الشابة التي تبين أن اسمها كان «تروس»! لقد تصورها منذ اللحظة الأولى على هذه الهيئة وليس على هيئة أخرى: هيئة «ساسكيا»! هذا ما رآه في «ساسكيا» منذ النظرة الأولى، في ظهر ذلك اليوم، عند «حجر

المصير» في دير «وستمنستر». كانت «ساسكيا» تجسيدًا للتصور الذي لا بد أنه سكن كيانه من دون وعي منه، منذ أن كان في الثانية عشرة من عمره، وقد تبدى في شخصها حينذاك، ليس كشيء مألوف، بل كحب من النظرة الأولى، ويقين من اللحظة الأولى من أنها ستبقى معه وتنجب له طفلًا!

راح يذرع الغرفة جيئة وذهابًا في قلق واضطراب. ما هذه الأفكار التي تصول وتجول في رأسه؟ ربما ذلك صحيح، وربما لا، ولكن لو أنه صحيح فعلًا، ألا يعني هذا أنه يلحق الأذى بـ«ساسكيا»؟ أليست هي نفسها إنسانًا في المقام الأول؟ ما علاقتها هي بفتاة مناضلة أُعدمت على تلال الشاطئ وتفسخت عظامها منذ أمد بعيد؟ إذا لا يجوز لها أن تكون نفسها، بل يجب عليها أن تمثل شخصًا آخر، ألا يعني هذا أنه يحطم علاقته الزوجية معها؟ إنها لا يمكن أن تكون شخصًا آخر، ومن ثم لم يكن لها أن تحظى به في المقام الأول. إذن هو الآن منشغل بطريقة أو بأخرى بقتلها. ولكن من ناحية أخرى إذا كان الأمر كذلك فعلًا، فما كان له أن يكون الآن مع «ساسكيا»، لو لم يلتق في ذلك الوقت بتلك الفتاة في الزنزانة تحت مركز الشرطة. المرأتان إذن لا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى، أي أن خياله هو الذي يلعب الدور الرئيسي في ذلك. «ساسكيا» لا يمكن أن تشبه «تروس» بطبيعة الحال، لأنه لا يعرف شكل «تروس» أصلًا، وفضلًا على ذلك، لو كانت تشبهها، لكان «تاكيس» عامل «ساسكيا» على نحو مختلف، لكن اهتمامه بها يكاد يكون معدومًا. «ساسكيا» تشبه حصرًا ذلك التصور الذي استثارته «تروس» لديه، لدى «أنطون».

ولكن من أين أتى ذلك التصور؟ ولماذا ذلك التصور بالذات وليس غيره من التصورات؟ لعله ينحدر من مصدر أقدم بكثير، لعله حسب تفسير فرويد مستَمَد من صورة أمه عندما كان في المهد.

ذهب إلى الشرفة، ونظر إلى الأسفل من دون أن يرى شيئًا. عندما كان يسمع في المستشفى أن زميلًا جديدًا يدعى كذا سيداوم معهم في اليوم التالي، كان يتصوره مباشرة على نحو معين. ويتبين فيما بعد أن تصوره لم يكن صحيحًا بأي شكل من الأشكال وينساه بمجرد رؤية الشخص المعني. لكن من أين كان يأتي هذا التصور؟ حدث معه الشيء نفسه مع كتّاب وفنانين معروفين أيضًا: كان إذا ما وقعت عيناه على صورهم لأول مرة، أخذته دهشة وراء دهشة، الأمر الذي يدل على أنه كان قد تصورهم على هيئة معينة من دون وعي منه. حتى لقد حدث أن فقد الاهتمام بأعمال كتّاب رأى صورهم. حدث له ذلك مع الكاتب «جيمس جويس»، لا لأن «جويس» كان قبيح الشكل، فـ«سارتر» كان أكثر منه قبحًا، ورؤية صورته لم تزده إلا اهتمامًا بأعماله. يبدو أن تصوره المسبق كان أصح من الواقع في بعض الأحيان.

بعبارة أخرى، ليس ثمة خطأ في أن يشبّه «ساسكيا» بتصوره عن «تروس». في تلك الظروف استدعت «تروس» في ذهنه صورة تبين أن «ساسكيا» تستوفي مواصفاتها، وهذا لا غبار عليه، إذ إن الصورة ليست صورة «تروس»، بل الصورة التي نسجها خياله عنها، وأما من أين نشأت، فهذا لغز ليس بذي أهمية. ثم إن الأمر يمكن أن يكون معكوسًا: لقد استحوذت «ساسكيا» على قلبه من النظرة الأولى،

وربما لهذا السبب يُخيل إليه في هذه اللحظة أن «تروس» كانت تشبهها حتمًا. لكنه في هذه الحالة يرتكب مظلمة بحق «تروس»، لذلك من واجبه أن يعرف ليس اسمها فحسب، بل وهيئتها الحقيقية أيضًا، هيئتها هي: «تروس كوستر».

مال الجو إلى شيء من البرودة. تناهت إلى سمعه من البُعد أصوات صفارات الإنذار لسيارات الشرطة: لقد حدث شيء ما في المدينة من جديد، كما جرت العادة منذ ما يقارب السنة. كانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف، فقرر الاتصال بـ«تاكيس» في الحال. صعد إلى الطابق العلوي، إلى غرفة النوم. هناك أيضًا، كانت الستائر ما تزال مفتوحة. كانت البطانيات مزاحة إلى طرف، و«ساندرا» نائمة تحت الشرشف بفم مفتوح، وإلى جانبها ترقد «ساسكيا» على بطنها، نصف عارية، وقد طوقت ساق صغيرتها بذراعها. وقف ينظر إليهما في الصمت الدافئ المشبع بالنوم. انتابه شعور بأنه مرَّ بشيء كارثي قبل قليل، وها هو يظهر على شكل تشويش ذهني رهيب: هلوسات عصفت برأسه، من جراء تعرضه لضربة شمس. يجب عليه أن ينسى كل شيء، ويذهب إلى النوم.

لكنه بدلًا من الذهاب إلى النوم، مضى إلى سترته التي كانت «ساسكيا» قد علقتها على ظهر كرسي، وأخرج بأصبعين اثنين ورقة العنوان من جيبها وهو يحس إحساسًا غامضًا بأنه يتمادى في فعل ما لا يجوز.

٥

ـ أهلًا بك في أي وقت! تستطيع المجيء في الحال، إن أردت.

أجاب «تاكيس» بهذا الجواب، عندما سأله «أنطون» متى يستطيع الذهاب لزيارته. حين قال إنه يعاني قليلًا من ألم الرأس، قال «تاكيس»: «ومَن لا يعاني؟». كان «أنطون» سيداوم في اليوم التالي إلى الساعة الرابعة بعد الظهر، فاتفقا على موعد في الرابعة والنصف.

كان الطقس ما يزال حارًّا. بذل كثيرًا من الجهد من أجل أن يركز في عمله، وشعر بالسرور عندما استطاع أن يخرج من المستشفى ويذهب سيرًا على الأقدام إلى شارع «نيوي زايدس فوربورخ فال» الواقع في مركز المدينة. كان لا يزال يكابد ألم وجهه وصدره الملفوحين بالشمس. في صباح ذلك اليوم أسرفت «ساسكيا» في دهنه بكريم الشمس للمرة الثانية، فخطر في باله في غضون ذلك أن يخبرها بموعده مع «تاكيس»، لكنه لم يفعل. في شارع «سباو» كان يقف رتل من سيارات الشرطة ذات اللون الأزرق، كان التوتر ما يزال يسود المدينة، لكن ذلك بات من الأمور العادية، وعلى عمدة المدينة

والوزير أن يجدا حلًا مناسبًا. كان «تاكيس» يقيم في منزل ضيق عالٍ يقع خلف القصر الملكي في ساحة «دام»، لا يمكن الوصول إليه إلا من بين الشاحنات الواقفة هناك. كانت واجهته مزينة بلوحة حجرية تنحدر من أيام العز، منقوش عليها حيوان أسطوري بسمكة بين فكيه، كتب في أسفله:

القضاعة

على درجات السلم مضى بعض من الوقت قبل أن يعثر «أنطون» على اسم «تاكيس» بين الأسماء المنقوشة للمكاتب والشركات والأشخاص. كان اسمه مكتوبًا بقلم رصاص على قصاصة ورق، مثبتة بدبوس تحت جرس، كان عليه أن يدقه ثلاث مرات.

حين فتح «تاكيس» الباب، لاحظ «أنطون» على الفور أنه شارب. كانت عيناه نديتين، ووجهه مبقعًا أكثر من اليوم السابق. لم يكن قد حلق ذقنه، فانتشرت طبقة شهباء من شعيرات اللحية على فكيه وحتى ياقة قميصه المفتوحة. تبعه «أنطون» عبر ممر طويل مرتفع السقف، تقشر الكلس عن جدرانه، فيه دراجات هوائية، وصناديق، وسطول، ولوحات من الخشب، وقارب مطاطي شبه فارغ من الهواء. من خلف الأبواب المطلة عليه تُسمع أصوات الضرب على الآلات الكاتبة وصوت الراديو. يفضي إلى الممر سلم حلزوني عتيق من خشب البلوط، يجلس عليه رجل عجوز يرتدي قميص بيجامة فوق بنطاله، وقد انهمك في تصليح مجداف قارب.

سأل «تاكيس» من دون أن ينظر وراءه:

- هل قرأت الجريدة؟

ـ ليس بعد.

وصل «تاكيس» إلى باب في نهاية الممر في الجزء الخلفي من المنزل، ودخل حجرة صغيرة تُستخدم كغرفة نوم، ومكتب، ومطبخ. كانت تضم سريرًا غير مرتب، وشيئًا يشبه طاولة مكتب مغطاة بأوراق، ورسائل، وكشوفات بنك، وجرائد ومجلات مفتوحة، وبين هذه الأشياء كلها فنجان قهوة، ومنفضة ملأى بأعقاب السجائر، وبرطمان مربى مفتوح، وحتى فردة حذاء. شعر «أنطون» بالاشمئزاز من هذه الأشياء المبعثرة التي لا يمت أي منها بصلة إلى الآخر. في البيت لم يكن يطيق رؤية مشط أو قفاز إذا ما وضعته «ساسكيا» لحظة قصيرة على طاولة مكتبه. برطمانات، وطناجر، وأطباق غير مجلية، وحقائب، وكأن «تاكيس» على وشك الانتقال إلى منزل آخر. كانت النافذة فوق المجلى مفتوحة على فناء يعج أيضًا بالكراكيب وتصدح فيه الموسيقى. أخذ «تاكيس» جريدة مفتوحة من فوق سريره، وطواها بضع مرات إلى أن بقي مقال واحد فقط على صفحتها الرئيـــسية.

قال:

ـ أظن أن هذا الأمر يهمك أنت أيضًا.

قرأ «أنطون»:

«فيلي لاغيس»

ـ بصحة متدهورة ـ

حرًا طليقًا

على حد علم «أنطون»، كان «لاغيس» رئيس المخابرات العامة

أو «الجيستابو» في هولندا، ومسؤولًا بحكم وظيفته تلك عن الآلاف من الإعدامات وترحيل مائة ألف شخص من اليهود. بعد الحرب، حُكم عليه بالإعدام، لكنه حصل بعد بضع سنوات على تخفيف الحكم من الإعدام إلى المؤبد. خرجت حينذاك مظاهرات حاشدة ضد تخفيف الحكم، لكن «أنطون» لم يشارك فيها.

سأله «تاكيس»:

- ما رأيك أنت؟ لأنه «مريض»! ابننا الحبيب المدلل «فيلي»! لسوف ترى كيف سيتماثل للشفاء بمجرد أن يصل إلى ألمانيا! وكيف سيمرض العديد من الناس فعلًا من إطلاق سراحه، ولكن هذا أقل إيلامًا! هؤلاء السادة الإنسانيون لا يستطيعون إظهار إحسانهم إلا على حسابنا نحن: مجرم الحرب مريض، وأسفاه على هذا الحمل المسكين! فلنطلق سراح هذا الفاشي في الحال، لأننا لسنا فاشيين، ولأننا نريد أن تبقى أيدينا نظيفة. هل حقًا سيمرض ضحاياه؟! يا لهم من أناس حاقدين، هؤلاء الذين يعارضون الفاشية ولا يختلفون عن الفاشيين قيد أنملة! انتظر قليلًا وسوف تسمع هذا كله! وهل تعرف من سيكون أكبر المؤيدين لإطلاق سراحه؟ كل أولئك الذين لم يلطخوا أيديهم أثناء الحرب، وعلى رأسهم الكاثوليكيون طبعًا. عندما اعتنق الكاثوليكية لحظة دخوله السجن، لم يفعل ذلك جزافًا. ولكن لو دخل هو الجنة، فضلت أنا جهنم..

نظر إلى «أنطون» وأخذ الجريدة من يده:

- إنك رضيت بالأمر الواقع، أليس كذلك؟ لكنني سأعتبر أن

شعر «أنطون» بالارتباك أمام النظرة الثاقبة المتجلية في عينه اليسرى. هل هما يلعبان لعبة من منهما سيرمش بعينيه قبل الآخر؟ خفض عينيه، ومال وهو يجيل بصره فيما حوله:

ـ وأنت؟ لقد كنت غبيًّا إلى درجة أنني لم أتصل بأحد. كيف تكسب قوتك اليومي؟

ـ إنك أمام معلم رياضيات بارع.

انفجر «أنطون» بالضحك.

ـ طاولة مكتبك لا تبدو مرتبة كما يجدر بأستاذ رياضيات.

ـ هذه القذارة التي تراها جاءت من الحرب. أنا أعيش من دعم مؤسسة «٤٠ ـ ٤٥»، التي كان للسيد «أدولف هتلر» الفضل في تأسيسها، فأنقذني بذلك من الرياضيات. لولا أفضاله، لكنت حتى الآن أقف كل يوم أمام الصف أعطي دروس الرياضيات.

التقط زجاجة ويسكي من فوق رف النافذة، وصب لـ«أنطون» كأسًا منها وقال:

ـ فلنشرب نخب الرحمة مع عديمي الرحمة.

وطرق كأسه بكأس «أنطون»:

ـ في صحتك.

أحس «أنطون» أن الويسكي الفاتر لن يكون في صحته، لكنه لم يستطع إلا أن يشربه. كان «تاكيس» ساخرًا أكثر من يوم الأمس، ربما بسبب المقال المنشور في الجريدة، أو بسبب الكحول، أو ربما تعمد أن يكون ساخرًا. لم يدعُه إلى الجلوس، الأمر الذي أثار إعجاب «أنطون» لسبب أو لآخر. لماذا يجب على الناس أن يجلسوا دائمًا؟

ألم يُدفن رئيس الوزراء الفرنسي «جورج كليمانصو» وهو واقف حسب وصيته؟ كانا يقفان في الحجرة الصغيرة أحدهما قبالة الآخر، وفي يد كل منهما كأسه، كما لو أنهما في حفلة «كوكتيل».

قال «تاكيس»:

ـ على فكرة، أنا أيضًا عملت في المجال الطبي في وقت من الأوقات.

ـ حقًا؟ أنحن زملاء المهنة؟

ـ نستطيع أن تقول هذا.

قال «أنطون» وهو يحدس بأنه على وشك أن يسمع شيئًا فظيعًا:

ـ أخبرني المزيد.

ـ فلأقل إنني كنت أعمل في مركز تشريح ـ في مكان ما في هولندا. كان المدير قد وضعه في خدمتنا من أجل إنجاز مهمة خيرية. هناك كانت تقام المحاكمات، وتصدر أحكام الإعدام وأحكام أخرى، وتُنفذ أيضًا.

ـ هذا غير معروف.

ـ ويجب أن يبقى غير معروف أيضًا. فأنت لا تعرف متى تضطر إلى استخدامه مرة أخرى. كانت مسألة داخلية أكثر من أي شيء آخر: الخائنون في المقاومة، والجواسيس، وقضايا من هذا النوع. في القبو كان هؤلاء يُحقنون بإبر طويلة من حمض الكربوليك في قلوبهم مباشرة. ثم يقوم أبطال آخرون في اللباس الأبيض بتقطيعهم إلى شرائح صغيرة فوق مجلى من الرخام. في ذلك القبو كان يوجد حوض كبير من الفورمالين مليء بالآذان

والأيدي والأنوف والأعضاء الذكورية والأحشاء. كان من الصعب أن يعاد تركيب الأشخاص المنفذ فيهم حكم الإعدام. تلك الأشلاء لم تكن تصلح إلا للتعليم، لا بد أنك تفهم ما أعني!

نظر إلى «أنطون» في تحدٍ:

ـ أعرف أنه لا يوجد في قلبي ذرة من الخير.

قال «أنطون»:

ـ إن كان ذلك يساهم في إنجاز المهمة الخيرية..

ـ كان الألمان يخافون من ذلك المركز، ويفضلون البقاء بعيدًا عنه. كانوا يعدونه مدينة أشباح.

ـ لكنه لم يكن هكذا بالنسبة إليك!

ـ كان هناك صف من خزانات عالية بأدراج جرارة، في كل خزانة نحو خمسة أدراج، وفي كل درج جثة. لقد قضيت ليلة في أحد تلك الأدراج، حين اضطررت إلى الاختفاء عن الأنظار فترة من الزمن.

ـ وهل نمت نومًا هنيئًا؟

ـ هناء ليس بعده هناء.

ـ هل تسمح لي أن أسألك يا «تاكيس»؟

أجاب «تاكيس» بضحكة حلوة مداهنة:

ـ اسأل كما تشاء يا بني.

ـ ما قصدك من هذا؟ ألنت تدربني على تحمل الصعاب أو شيء من هذا القبيل؟ إنني لست في حاجة إلى ذلك. أنا نلت نصيبي، وأنت تعرف ذلك أكثر من أي شخص آخر.

نظر إليه «تاكيس»، وظل ينظر إليه وهو يأخذ رشفة من كأسه.

ـ أريدك أن تتعرف أنت أيضًا إلى الشخص الذي تتعامل معه.

بقي ينظر إليه لحظة أخرى، ثم أمسك بزجاجة الويسكي:

ـ تعال معي. اترك الباب مفتوحًا من أجل الهاتف.

هبط السلم وراء «تاكيس» إلى القبو حيث يوجد ممر أيضًا. أدار «تاكيس» المفتاح في باب يفضي إلى حجرة منخفضة السقف، لم يعرف «أنطون» طبيعتها من الوهلة الأولى. كان جوها خانقًا، ويتسلل إليها من خلال النوافذ العلوية ضوء باهت، أضاف إليه «تاكيس» الضوء البارد لصف من مصابيح النيون، من بينها مصباح بقي يرتعش بومضات بنفسجية ضعيفة على طرفيه. يدل بلاط الحائط الأبيض المتكسر على أن هذه الحجرة كانت مطبخ المنزل في الماضي، فعلى طول سقفها المنخفض تمتد أنابيب التدفئة وأنواع أخرى من الأسلاك. تتوسطها طاولة من الخشب، فوقها منفضة ملأى هي الأخرى بأعقاب السجائر، وبجانب الحائط الطويل تقوم كتبة بالية من القطيفة الحمراء، ولا شيء آخر سوى خزانة ملابس من الطراز القديم بمرآة في بابها، ودراجة هوائية قديمة. بدت الحجرة في إجمالها مثل ملجأ، قاعدة عسكرية تحت الأرض، وخاصة بهذه الخريطة المصفرّة، المشقوقة هنا وهناك، المثبتة بشريط لاصق على الجدار المقابل للكنبة. سار «أنطون» إليها حاملًا كأسه في يده، وقرأ في زاويتها السفلى على الطرف الأيمن «طوبوغرافيا ألمانيا». لقد غطتها أسهم حمراء وزرقاء، مثل أمواج الطوفان، مشيرة إلى الهجمات التي كانت تنطلق من روسيا وفرنسا باتجاه برلين، وتلتقي

هناك. لم تبق أية بقعة منها من غير تلوين ما عدا مناطق شمال ألمانيا ووسطها، وغرب هولندا. استقرت عينا «أنطون» على شيء مرتسم على البحر. على اللون الأزرق المصفر ثمة أثر غامض لفم ذي لون أحمر فاتح: قبلة طبعت عليه بشفتين مصطبغتين بأحمر الشفاه. التفت إلى الوراء. كان «تاكيس» جالسًا على الكنبة، واضعًا إحدى ساقيه على الأخرى، ويحدق فيه.

قال:

ـ هذه هي الحال.

أهذه الخريطة معلقة هنا لهذا السبب؟ أليس بدافع الحنين القتالي إلى الحرب، بل بسبب صورة فمها المطبوعة عليها؟ أهو متخذ من هذا القبو صومعة لإحياء ذكراها؟ ولكن لعله لا يجد فرقًا بينها وبين الحرب. لعل الحرب أصبحت حبيبته، فلم يعد بإمكانه إلا أن يكون مخلصًا لها، ولعله حين يتحدث عن قطاعاتها، يتحدث في الواقع عن «تروس كوستر» وعن الفترة التي كان سعيدًا فيها.

على الرغم من أن «أنطون» كان يستطيع الوقوف منتصب القامة، فإنه سار إلى الكنبة خافضًا رأسه على نحو غير إرادي. جلس إلى جانب «تاكيس»، وعاود النظر إلى الفم المنبعث من بحر الشمال. بدا وكأن باقي وجهها قد بقي تحت المياه. (حين كان صبيًا في الحادية أو الثانية عشرة من عمره، كان يخيل إليه أنه لو نظر بالمجهر إلى خريطة هولندا، لرأى الناس يمشون في شوارع «هارلم»، ولو فعل ذلك في حديقة منزله، لرأى نفسه منحنيًا فوق المجهر...) «أوفيليا» الجميلة. لقد لامست شفتاها هذا المكان على الخريطة، ربما عندما

كانت تقوم مع «تاكيس» برسم الأسهم عليها وفق المعلومات التي يبثها «راديو لندن»، وتتحدث معه عما سيفعلانه بعد التحرير. سمع صوت هيجان القصبات الهوائية في صدر «تاكيس»، الذي صب لنفسه كأسًا أخرى والسيجارة بين شفتيه، وبقي على صمته. لم يسبق أن شعر «أنطون» بمثل هذه الصلة الحميمة مع أي رجل آخر، ولعل «تاكيس» يراوده الإحساس نفسه. ترامى من الشارع رنين أجراس خافت. نظر إلى الدراجة الهوائية: إنها دراجة رجالية بأنبوب علوي، ومقعد من الطراز القديم لم يعد موجودًا في الوقت الحالي. كان يدعى في السابق «مقعد تيري».

عندئذ رأى صورتها.

كانت في حجم بطاقة بريدية، وكان طرفها السفلي مغروزًا وراء شريط كهرباء، غير بعيد عن الخريطة. بدأ قلبه يخفق بشدة. حدق بجمود في الوجه الذي نظر إليه أخيرًا بعد إحدى وعشرين سنة. حين مضت بضع ثوانٍ، ألقى نظرة على «تاكيس»، الذي كان يحملق في الدخان الذي ينفثه من فمه، ثم نهض عن مقعده ويمم وجهه صوبها.

«ساسكيا»! «ساسكيا» هي التي تنظر إليه! طبعًا هي ليست «ساسكيا»، ولا تشبهها حتى، ولكن نظرة عينيها هي تلك النظرة نفسها التي رآها في عيني «ساسكيا» عندما التقاها أول مرة في دير «وستمنستر». فتاة لطيفة، غير لافتة للأنظار، في نحو الثالثة والعشرين من عمرها. ابتسامتها تميِّل فمها إلى جهة وجهها اليمنى، وتنم عن أنها على جانب عظيم من سعة الأفق، ما يتناقض مع فستانها الضيق ذي القبة العالية، المطرَّز من الأمام والذي يشي بأن له كُمَّيْن منفوخين.

شعرها سميك مموج، منسدل حتى الكتفين، لعله أشقر داكن، لكن لا يمكن استبيان ذلك في الصورة الملتقطة بالأسود والأبيض. لأن الإنارة مسلّطة عليها من الجانب، فإن شعيرات كاشفة قد تشعثت وتناثرت حول رأسها على الخلفية الداكنة.

كان «تاكيس» قد جاء ووقف بجانبه:

ـ هي؟

أجاب «أنطون» من دون أن يحوّل عينيه عن الصورة:

ـ يجب أن تكون هي، يجب أن تكون هي..

أخيرًا خرجت من الظلام وظهرت أمامه ـ وفي عينيها نظرة «ساسكيا». تذكر الخواطر التي راودته مساء أمس، لكنه من شدة الانفعال لم يعد يدرك المعنى الذي تضمنه ذلك التشبيه. كما أن «تاكيس» لم يمنحه الفرصة، فقد أمسكه من كتفيه فجأة، وكأنه استنزف كل ما لديه من جهد في السيطرة على نفسه، وراح يهزه مثلما يهز معلم طفلًا ناعسًا:

ـ أخبرني! ماذا قالت لك أيضًا؟

ـ لا أتذكر.

ـ هل تكلمت عني؟

ـ لا أتذكر يا «تاكيس»!

فصاح «تاكيس» بصوت عالٍ:

ـ حاول أن تتذكر، اللعنة!

وانتابته على الفور نوبة سعال دفعته إلى ركن من أركان الحجرة، حيث انحنى بجذعه، مستندًا بيديه على ركبتيه، وبقي يسعل في تلك

الوضعية حتى كاد يتقيأ من السعال. حين اعتدل في وقوفه وهو يلهث، قال «أنطون»:

ـ اختفى كل شيء يا «تاكيس». أتمنى لو أستطيع أن أخبرك بما قالت، لكنني لا أتذكر سوى أنها لامست وجهي. فيما بعد رأيت الدم عليه، وهكذا عرفت أنها كانت مصابة. أرجو أن تتفهم انني كنت في الثانية عشرة من العمر، حتى إنني لم أعد أتذكر كيف كان صوت أبي. كان منزلنا قد أضرمت النار فيه للتو، وكان ابي وأمي وأخي قد اختفوا. كنت مصدومًا، وجائعًا، ومسجونًا في زنزانة مظلمة تحت مركز شرطة..

قال «تاكيس»:

ـ مركز شرطة؟!

ونظر إليه بفم مفتوح:

ـ أي مركز؟

ـ في «هيمستيده».

ندت عن ذراعي «تاكيس» حركة تنم عن اليأس.

ـ كانت مسجونة هناك إذن... يا يسوع! لو كنا نعلم أنها تقبع هناك، لاستطعنا أن نهرِّبها. كنت أظن أنها في «هارلم»، في سجن...

رأى «أنطون» عليه أنه انشغل في تلك اللحظة نفسها بوضع خطة كان يستطيع بموجبها أن يداهم مركز الشرطة في «هيمستيد». حوَّل عينيه عنه، وراح يذرع الحجرة جيئة وذهابًا باستياء. لقد مُحي كل شيء الى الأبد، اختفى من الوجود. كان يعلم أن الجامعة تقوم في الوقت الحاضر بإجراء التجارب على استخدام عقار «الإل إس دي»، ويعلم

أن كل شيء ما يزال مخزَّنًا في مكان ما من دماغه، وأن الأشخاص الجديين الراغبين في الخضوع لهذه التجارب مرحب بهم، ولو خضع لها، لربما عادت هذه الذكريات إلى الظهور. لو يخبر «تاكيس» عن هذه التجارب، من الممكن أن يبلغ من الجنون ما يدفعه إلى إجباره على الخضوع لها، وهو لا يرغب في ذلك، فهو لا يريد أن ينبش الماضي بمساعدة المواد الكيماوية. وفوق ذلك يوجد احتمال أن لا تظهر هذه الذكريات، بل يظهر شيء آخر، شيء غير متوقع، لا يستطيع التحكم به.

قال:

- أتذكر فقط أنها حكت حكاية طويلة عن شيء ما.

- عن أي شيء؟

- لا أتذكر.

صاح «تاكيس»:

- يا يسوع المسيح!

وجرع ما تبقى في كأسه، ثم خبط الكأس على الطاولة ودفعها بقوة عليها، كما يفعل صاحب حانة في أفلام رعاة البقر:

- لا أتذكر! لا أتذكر!

بقي «أنطون» واقفًا، وقال:

- إنك تفضل أن تربطني إلى كرسي، وتوجه مصباحًا إلى وجهي وتسحب مني الكلام سحبًا، أليس كذلك؟

أطرق «تاكيس» لحظة، ثم قال بإيماءة:

- طيب... طيب.

لم يكن «أنطون» في حاجة إلى النظر إلى الصورة مرة أخرى ليرى كيف كان شكل «تروس كوستر»، فقد انطبع وجهها في ذاكرته انطباعًا لا يمكن أن يُمحى.

سأل:

ـ هل كنتما متزوجين؟

صب «تاكيس» كأسًا أخرى لنفسه، وجاء إلى «أنطون» والزجاجة في يده:

ـ كنت متزوجًا، نعم، ولكن ليس بها. كان لديَّ زوجة وولدان من عمرك أو ربما أصغر منك، لكنني كنت أحبها هي، أما هي فلم تكن تحبني. كنت مستعدًا لأن أتخلى عن أسرتي من أجلها، لكنها كانت تضحك من ذلك. عندما كنت أقول لها إنني أحبها، كانت ترد بأنني أبالغ، وبأنني أتوهم ذلك، لأننا مررنا معًا بتجارب كثيرة. على كل حال، إنني مطلق الآن.

راح يذرع الحجرة. كان بنطاله قد تهدل سرجه، واهترأ من الخلف. قال «أنطون» في نفسه: هذا كل ما تبقى من المقاومة، رجل مهلهل الملابس، بائس، وسكران، يقضي حياته في قبو ربما لا يخرج منه إلا ليواري أصدقاءه الثرى، في حين يُطلق سراح مجرمي الحرب، وتستمر الحياة غير عابئة به.

قال «تاكيس»:

ـ حكاية طويلة.. أجل، كانت بارعة في الحكايات الطويلة، تلك الثرثرات! كنا ندردش إلى ما لا نهاية، ودائمًا عن الأخلاق. وفي بعض الأحيان عما ستؤول إليه الأوضاع بعد الحرب،

لكنها في تلك الحالات لم تكن تتكلم كثيرًا. في إحدى المرات قالت إنها عندما تفكر في فترة ما بعد الحرب، تشعر أنها تتطلع في فجوة كبيرة ظلماء. عندما كنا نتحدث عن الأخلاق، كانت تنطلق في الحديث. سألتها في إحدى المرات: «إذا قال لك أحد من «الإس إس» أن تختاري بين شخصين يريد إعدامهما رميًا بالرصاص، أبيك أو أمك، ويجب أن تحددي واحدًا منهما، وإن لم تقولي شيئًا فإنه سيطلق الرصاص عليهما هما الاثنين - فماذا ستفعلين؟» كنت قد سمعت بحدوث مثل هذه الحالة.

قال ذلك وألقى عقب سيجارته في المنفضة:

- سألتني هي ماذا سأفعل أنا، فأجبتها بأنني سأعدُّ أزرار سترته العسكرية: أبي، أمي، أبي، أمي... فأنت لا تستطيع أن تفعل حيال الوحشية إلا السخافات. أما هي فقد قالت إنها لن تجيب عن سؤاله، لأن الشخص الذي يقترح مثل هذا الاقتراح لا يحترم كلمته، فهو قد لا يطلق النار عليهما، ولكن لو قلت على سبيل المثال «أبي»، لربما قتل أباك فعلًا وادعى أنك أنت الذي أردت ذلك، ولكان ذلك، حسب رأيها، صحيحًا بطريقة أو بأخرى. كان جوابها ذكيًا. كان رائعًا، رائعًا. لقد قضينا ليالي طويلة ونحن نتحدث عن عملنا. يمكنك أن تتصور كيف كنا نجلس هناك - نحن الاثنين المحكوم علينا بالإعدام.

سأل «أنطون»:

- هل كان محكومًا عليكما بالإعدام؟

لم يتمالك «تاكيس» أن يضحك:

ـ طبعًا. ألم يُحكم عليك أنت أيضًا بالإعدام؟

ثم تابع:

ـ في إحدى المرات ذهبت إلى البيت في منتصف الليل، بعد بدء حظر التجوال بكثير. لكنها أضاعت طريقها من شدة الظلام، فجلست في مكان ما في الشارع حتى انبلاج الفجر.

احنى «أنطون» رأسه إلى الوراء إحناءة خفيفة، وكأنه سمع من مكان بعيد صوتًا يعرفه، إشارة واهنة ما لبثت أن اختفت.

ـ الجلوس في مكان ما في الشارع حتى انبلاج الفجر؟ كأنني حلمت ذات مرة بشيء من هذا القبيل.

ـ كانت قد ضلت طريقها تمامًا. لا بد أنك تستطيع أن تتذكر كم كان الظلام حالكًا في تلك الفترة.

قال «أنطون»:

ـ أجل، ولذلك أردت لفترة طويلة أن أصبح عالمًا فلكيًا.

احنى «تاكيس» رأسه بنعم، لكن لاح عليه أنه لم يكد يسمع ما قاله «أنطون»:

ـ كانت تفكر بالأمور كثيرًا. كانت تصغرني بعشر سنوات، لكنها كانت تفكر بالأمور أكثر مني. كنت مقارنة بها فلاحًا أخرق، رياضيًا أحمق. ذات يوم، اقترحت عليها أن نخطف أولاد الحاكم العسكري «سايس إنكفارت» من أجل أن نقايضهم ببضع مئات من رجالنا. ثار غضبها وقالت كيف يمكن أن يخطر هذا ببالي؟ وما علاقة الأطفال بمثل هذه الأمور؟

صحيح، ما علاقة الأطفال بمثل هذه الأمور؟ طبعًا لا علاقة لهم على الإطلاق! شأنهم في ذلك شأن أطفال اليهود الذين كانوا يبادون الواحد تلو الآخر. هذا يعني أن لا علاقة لهم على الإطلاق. لكن لهذا السبب فحسب، يجب عليك أن تصيب عدوك في أكبر نقاط ضعفه. وإذا كانت أكبر نقاط ضعفه هي أولاده - وهي أولاده بطبيعة الحال - فعليك إذن أن تصيبه في أولاده. ما الذي كان سيحدث لأولئك الأطفال، إذا لم تتم تلك العملية؟ كانوا سيلقون مصيرهم المحتوم طبعًا، من دون ألم، في مركز التشريح.

ألقى من طرف عينه نظرة خاطفة على «أنطون» وقال:

- أنا آسف. أعرف أنه لا يوجد في قلبي ذرة من الخير.

- هذه هي المرة الثانية التي تقول فيها هذه الجملة.

قال «تاكيس» باندهاش تعمد أن يمثله على نحو رديء:

- حقًا! أأنت متأكد؟! حسنًا إذن، دعنا نقول إن الخير انعدم من الدنيا، اتفقنا؟ لم تحدث العملية إذن. شعاري هو: «كن فاشيًا حيال الفاشيين»، لأنهم لا يفهمون لغة أخرى. أتمنى لو يتحول شعاري هذا إلى قول مأثور ولكن باللاتينية. لا بد أنك بحكم دراستك تستطيع أن تترجمه.

ردد «أنطون»:

- «كن فاشيًا حيال الفاشيين». هذا لا يصح باللاتينية. كلمة «فاشو» تعني «حزمة قضبان في وسطها فأس». «كن حزمة قضبان حيال حزم القضبان» ليس لها أي معنى.

قال «تاكيس»:

ـ وهذا هو بيت القصيد. «تروس» أيضًا لم ترَ أي معنى في ذلك. كانت ترى أنني يجب أن أحرص على ألا أتطبع بخصالهم، لأنني لو فعلت ذلك، لمنحتهم الفرصة لأن ينتصروا عليّ. نعم، لقد كانت فيلسوفة يا «ستيفايك»! لكنها فيلسوفة بمسدس!

في اللحظة التي قال فيها الجملة الأخيرة، كان يمشي بجانب الخزانة. انحنى بقامته، وفتح درجًا فيها، ووضع مسدسًا كبيرًا على الطاولة، ثم تابع مشيه وكأن شيئًا لم يحدث.

نظر «أنطون» في رعب إلى الآلة السوداء الرمادية التي وُضعت هناك فجأة. كانت تطلق من التهديد والوعيد، حتى بدت وكأنها ستحرق الطاولة حرقًا.

رفع عينيه:

ـ هل هذا مسدسها؟

ـ أجل، هذا مسدسها.

كانت تلك الأداة ترقد في سكون على سطح الطاولة، مثل قطعة أثرية من حضارة أخرى، ظهرت أثناء القيام بأعمال التنقيب.

ـ هل أطلقت به النار على «بلوخ»؟

فأجاب «تاكيس» وهو يتوقف عن السير ويصوب سبابته نحو «أنطون»:

ـ وأصابته أيضًا!

أخذ يحدق في المسدس برهة من الزمن، فرأى «أنطون» عليه أنه بدأ يرى شيئًا آخر تدريجيًا. قال وكأنه يكلم نفسه:

ـ قمت بتصرفات حمقاء في تلك الليلة. ركبنا دراجتينا وسرنا على رصيف القناة ذاك، جنبًا إلى جنب، ويد أحدنا في يد الآخر، نتمهل في السير قدر المستطاع كما يفعل عاشقان، أو على الأقل، كان الأمر هكذا بالنسبة إليَّ. أفسحنا له الطريق ليجاوزنا في السير، فألقى علينا أثناء عبوره بنا نظرة خاطفة. هتفت له «تروس» بابتهاج: «يسعد صباحك أنت أيضًا!» فضحك لها قليلًا. بعد ذلك بوقت قصير تقدمتُ «تروس» في السير. كنت قد عقدت العزم على أن أقضي عليه على الفور، لكن الأرض كانت زلجة. عندما رفعت يدي عن مقود الدراجة لأخرج بها المسدس من جيبي، تزحلقت بعض الشيء. أطلقت رصاصة على ظهره، ثم رصاصتين على كتفه وبطنه، لكنني أدركت على الفور أنني لم أنجح. حاولت مرة أخرى وهو يقع على الأرض، لكن مسدسي علق فلم تنطلق منه الرصاصة. قدت دراجتي بسرعة لكي أفسح المجال لـ«تروس». حين نظرت إلى الوراء، رأيتها قد أوقفت دراجتها واستندت برأس حذائها إلى الرصيف، وصوَّبت المسدس بدقة إلى ما بين كتفيه. كان منطويًا على نفسه ومخبئًا رأسه بين ذراعيه. أطلقت عليه رصاصتين ووضعت المسدس في جيبها وقادت دراجتها بسرعة. من الواضح أنها اطمأنت إلى أنه مات، لكنني رأيته ينهض نصف نهوض. صرخت لكي تأخذ حذرها، فأخذت تزيد من سرعتها، وحينذاك أطلق عليها رصاصة ـ وبمصادفة حمقاء أصابها أيضًا، في مكان ما أسفل ظهرها.

بدا المسدس الموضوع على الطاولة مثل ثقل عظيم يسحب «أنطون» إلى أعماق الماضي. على قدر نسيانه الكامل لما حدث في الزنزانة بعد تلك الحادثة، كان يتذكر بوضوح ذلك المساء الأخير في المنزل، والطلقات النارية، ورصيف القناة المهجور بجثة «بلوخ» عليه. طبعًا كان يعرف على الدوام أنه لا بد من أن أناسًا آخرين كانوا موجودين على رصيف القناة قبل ذلك بوقت قصير، لكن معرفته تلك كانت على أسس منطقية فحسب، أما الآن فقد أصبحت حقيقة ملموسة. الصرخة التي سمعها آنذاك لم تكن صرخة «بلوخ» إذن، بل صرخة «تاكيس». كان بوسعه أن يقسم على أنها كانت صرخة رجل يموت.

بدأت أعقاب السجائر في المنفضة الموضوعة بجانب المسدس تحترق احتراقًا طفيفًا.

سأل «أنطون»:

- ثم؟

ردد «تاكيس» وهو يخطو خطوات راقصة على نحو غريب:

- ثم... ثم... ثم... ثم لم يعيشوا في ثبات ونبات، ولم يخلفوا صبيانًا وبنات. لم نستطع أن نواصل المشوار. حاولت أن أركبها على المقعد الخلفي لدراجتي وأذهب بها للاختباء بين الأحراش. ولكن عندما وصل الألمان، صاحت امرأة من نافذتها ودلتهم على مكاننا. أعطتني مسدسها وأعطتني قبلة وكان ذلك كل شيء. أطلقتُ قليلًا من الرصاص وهربت. حاولت أن أعثر على تلك العاهرة قبل انتهاء الحرب لأدفّعها ثمن فعلتها، لكنني

لم أوفق في ذلك. إنها ما تزال تعيش في مكان ما وتتصرف مثل أية جدة حنون.

أخذ المسدس من فوق الطاولة، وراح يزنه في يده، مثلما يقيِّم خبير جوهرة ثمينة، قال:

- تمنيت لو كان بمقدوري أن أخاطبها بهذا: «مساء الخير يا سيدتي، كيف حالك؟ هل كل شيء على ما يرام في البيت؟ وكيف حال الأولاد؟».

وضع إصبعه على الزناد وراح يتفحص السلاح من كافة الأطراف:

- هل تعرف أنه ما يزال بإمكانك أن تطلق به الرصاص؟ بعد الحرب، طلب مني حموك وأصدقاؤه أن أقوم بتسليمه. أنا خارج على القانون في الوقت الحاضر. كانوا يسمحون لك أن تحتفظ بمسدسك على سبيل التذكار، بشرط أن تسكب الحديد في ماسورته، لكنني غضضت النظر عن ذلك. فأنت لا تعرف متى تكون في حاجة إلى إطلاق رصاصة منه.

ونظر إلى «أنطون»:

- للمرة الأخيرة.

وضع المسدس على الطاولة، ورفع إصبعه في الهواء وقد أرهف السمع:

- هل تسمعه؟ إنه يبكي قليلًا. ليس ثمة أم في الدنيا كلها دللت طفلها، مثلما دللت «تروس» هذا المسدس..

بدا عليه وكأن الدموع ستطفر من عينيه، لكن ذلك لم يحدث. لقد غيَّر دفة الحديث فجأة:

ـ تعرف؟ شاهدت في إحدى المرات فيلمًا عن رجل اغتصب شاب ابنته ثم قتلها. يُحكم على الشاب بثمانية عشر عامًا، ويقسم الرجل على أن يقتله في اليوم الذي يُطلق فيه سراحه. بعد حوالي ثماني سنوات يُخلى سبيل الشاب: تخفيف عقوبة، حسن سلوك، عفو عام، أليس كذلك؟ ينتظر الرجل الشاب أمام بوابة السجن ومسدسه في جيبه، ثم تراهما يقضيان النهار كله معًا وهما يتحدثان أحدهما مع الآخر. في نهاية الأمر لا يقتله الرجل، لأنه يدرك أن هذا القاتل بائس مسكين وضحية الظروف.

رن الهاتف في الطابق العلوي، فاتجه «تاكيس» إلى الباب بخطوات وئيدة وهو يختم قصته:

ـ الطلقة الأخيرة: يبقى الرجل واقفًا، وترى الشاب يغادر بحقيبته عبر طريق بالغابة. عندئذ تظهر على ظهر الشاب نقطة بيضاء تتقدم إلى الأمام وتشكل كلمة «النهاية». في تلك اللحظة تأكدت من شيء وهو أن الرجل، على الرغم من تفهمه لوضع الشاب، أخرج مسدسه وأطلق الرصاص على ظهره. لأن ابنته لم تقتلها الظروف، بل قتلها ذلك الشاب. فإذا لم تفعل ذلك، فإنك تقول في الواقع إن كل الناس الذين عاشوا في ظروف صعبة يمكن أن يكونوا مغتصبين وقتلة. سأعود حالًا.

خيم الصمت على القبو، لكن العنف الذي استدعاه «تاكيس» بقي يرين على المكان مثل صدى غير مسموع. ظل مصباح النيون المعطل يصدر صوت فرقعات خفيفة. جلس «أنطون» على حافة الطاولة بظهره إلى المسدس، وراح ينظر إلى الشفتين المرتسمتين

على بحر الشمال. اعترته رغبة في أن يضع شفتيه عليهما، لكن الجرأة لم تواته. الصورة. ها هو وجهها ينظر إليه باسمًا. ها هي تنظر إليه أينما وقف وأينما حل، من دون أن تحرك عينيها، وتستطيع أن تنظر إلى مئات الأشخاص في الوقت نفسه، وستبقى إلى أبد الأبدين تنظر إلى الجميع بهذه النظرة نفسها التي ارتسمت في عينيها لحظة التقاط الصورة، ولن تشيخ أبدًا، ولن ترى هي نفسها أي شيء. بهذه النظرة نفسها، نظرة «ساسكيا»، نظرت إليه آنذاك في الظلام، ونظرت أبعد منه، وعبره، وهي مصابة، وقد اغتالت للتو مجرمًا قاتلًا، وفي عشية عذاب لا يعرف عنه أحد غير الله، وإعدامها على رمال الشاطئ.

وضع يديه على وجهه، على المكان الذي لامسته هي، وأغلق عينيه مناجيًا نفسه: الحياة جحيم، جحيم! حتى لو استقرت الجنة على الأرض في الغد، لن تكون جنة بعد كل ما حدث في الماضي. الأمور لن تعود إلى نصابها قط. الحياة على هذه الأرض فشل ذريع، خيبة كبيرة، وكان من الأفضل أن لا تنشأ أصلًا. عندما تنتهي وتختفي معها ذكرى صرخات الموت، سيعود العالم حينذاك فحسب إلى عهده من الخير.

نفذت إلى أنفه فجأة رائحة نتنة فظيعة، ففتح عينيه. كان عمود من الدخان الأزرق يتصاعد بخط مستقيم من المنفضة. أفرغ الويسكي المتبقي في كأسه على النفايات المتوهجة، فما زادها ذلك إلا رائحة نتنة. رأى صنبور ماء في الزاوية، فوق مغسلة مربعة الشكل على علو منخفض، لكنه حين أراد أن يحمل المنفضة إليها، احترقت أصابعه. اتجه بكأسه إلى الصنبور، وترك الماء يسيل على أصابعه في بداية

الأمر. بعد ذلك عندما أفرغ كأس الماء في المنفضة، تشكل فيها وحل أسود قذر، وتصاعد منها الدخان في تماوج باتجاه السقف المنخفض. بعد أن حاول عبثًا أن يفتح النوافذ، خرج من القبو. في الممر تذكر المسدس الموضوع على الطاولة. عندما رأى المفتاح ما يزال في القفل، أقفل الباب وارتقى السلم.

كان «تاكيس» يقف في غرفته وينظر عبر النافذة إلى الخارج. كانت سماعة الهاتف موضوعة فوق الجهاز. كانت أصوات الضجيج وصفارات الإنذار تتصاعد من الشارع.

قال «أنطون»:

- ها هو المفتاح. ثمة رائحة نتنة في الطابق السفلي. لقد احترق ما في المنفضة.

لم يلتفت إليه «تاكيس». سأل:

- هل تتذكر الرجل الذي كان جالسًا بجانبي في المقهى يوم الأمس؟

أجاب «أنطون»:

- طبعًا، أنا كنت جالسًا بجانبك.

- الرجل الذي كان جالسًا على طرفي الآخر، وكنت أتحدث معه.

- على نحو غامض.

- انتحر.

شعر «أنطون» أنه لم يعد يستطيع تحمل المزيد. سأل بصوت هامس على الرغم من أنه لم يتعمد الهمس:

- لماذا؟

قال «تاكيس» وكأنه يحدث نفسه:

ـ لقد أوفى بوعده! حين حصل «لاغيس» على تخفيف الحكم عام ١٩٥٢، قال: «وسيطلقون سراحه أيضًا، ولكن لو أطلقوا سراحه، لأنهيت أنا حياتي». فضحكنا وقلنا له: «معنى هذا أنك ستبلغ من العمر ما بلغه «متوشالح»...».

حدق «أنطون» في ظهره برهة من الزمن. ثم استدار على عقبيه وخرج من الغرفة. كان الرجل المسن المرتدي قميص بيجامة قد اختفى. ومن خلف أحد الأبواب كان صوت عذب يصدح من الراديو بأغنية:

«رد روزس فور آ بلو ليدي...»

الجزء الأخير

١٩٨١

١

ثم... ثم... ثم... ويمضي الوقت، فنقول: «لقد صار ذلك على الأقل وراء ظهورنا، ولكن يا تُرى ماذا يخبئ لنا المستقبل في جعبته بعد؟» إننا حسب تعبيرنا هذا نقف بوجوهنا إلى المستقبل، وبظهورنا إلى الماضي، وهذا ما يحس به معظم الناس. المستقبل يقع أمامهم والماضي خلفهم. بالنسبة إلى الشخصيات النشطة فإن الحاضر سفينة في بحر هائج تشق عباب الأمواج باتجاه المستقبل، وأما بالنسبة إلى الشخصيات غير النشطة فهو رمث يتمايل بهدوء في نهر تبعًا لحركة التيار. كل من هاتين الفكرتين تتضمن بطبيعة الحال شيئًا من الغرابة، فلو كان الزمن حركة، لتحرك في زمن ثانٍ، ولنشأت على هذا النحو أعداد لانهائية من الأزمان. هذا نوع من الظواهر التي لا ترضي المفكرين، غير أن التصورات التي تنطلق من المشاعر لا تبالي كثيرًا بالتفكير المنطقي. كما أن الشخص الذي يرى المستقبل أمامه والماضي خلفه يشغل نفسه بطريقة أخرى بما هو غير مفهوم. إذ ينطلق من أن وقائع الحياة موجودة في المستقبل بشكل أو بآخر، وستكون

في متناول اليد في لحظة معينة، لتصبح في نهاية المطاف في عداد الماضي. لكن المستقبل خالٍ من الأحداث ولا يوجد فيه أي شيء بعد، ويمكن للإنسان أن يموت في اللحظة التالية، وهو يقف بذلك مديرًا وجهه إلى اللاشيء، في حين يستطيع أن يرى شيئًا خلفه، في الماضي، على النحو الذي احتفظت به ذاكرته.

لهذا السبب عندما يتحدث اليونانيون عن المستقبل، يقولون: «ما أكثر الذي أصبح وراءنا!». بهذا المعنى كان «أنطون ستيفايك» يونانيًا، فقد كان هو أيضًا يقف بظهره إلى المستقبل وبوجهه إلى الماضي. كان حين يفكر في الزمن، وكان يفعل ذلك أحيانًا، لا يرى الأحداث آتية من المستقبل إلى الحاضر مكملة سيرها باتجاه الماضي، بل يراها تتطور من الماضي إلى الحاضر قاطعة طريقها نحو المستقبل المجهول. وفي كل مرة كان يتذكر التجربة التي قام بها في علّية بيت خاله: الحياة الاصطناعية! ركّب محلولًا ملحيًّا (ذلك السائل اللزج نفسه الذي كانت أمه تحفظ فيه البيض في بداية الحرب)، وألقى فيه بضع بلّورات من كبريتات النحاس، تلك البلّورات ذات اللون الأزرق الذي لم ينسه أبدًا، ورآه بعد ذلك الوقت بكثير في مدينة «بادوفا» الإيطالية، في جداريات الرسام «جوتو دي بوندوني»، بدأت تلك البلّورات تنبثق منها براعم على شكل ديدان، تكبر وتنتفخ، وتبرز منها من جديد نتوءات ما تلبث أن تتحول، هناك في علّية البيت تلك، إلى سويقات زرقاء تزداد في الطول وتعوم في المحلول الشاحب الذي لا حياة فيه ولا روح.

كان يقضي في مدينة «بادوفا» الإيطالية شهر العسل مع زوجته

الثانية، «إليزابيث». كان ذلك في عام ١٩٦٨، بعد انقضاء سنة على انفصاله عن «ساسكيا». كانت «إليزابيث» تدرس تاريخ الفن وتعمل بدوام جزئي في قسم الإدارة في المستشفى المجهَّز بأكثر التجهيزات حداثة، الذي كان قد انتقل للعمل فيه، ولم يكن أي شيء فيه يجري حسب الأصول ما عدا أنه يدفع له راتبًا أعلى من راتبه السابق. لقد تزوج والدها قبيل الحرب، وغادر إلى «الهند الشرقية الهولندية» ليكون على رأس عمله في إدارة شؤون البلاد، لكنه ما إن وصل إليها حتى زج به اليابانيون في معسكر اعتقال: هناك عمل في إنشاء السكة الحديدية في بورما، لكنه كان مثل «أنطون» لا يتحدث عما عاشه من تجارب في فترة الحرب. ولدت «إليزابيث» بعد عودة والديها إلى الوطن بوقت قصير، لذلك لم تكن قد خبرت شيئًا من تلك التجربة كلها. كانت عيناها زرقاوين، لكن شعرها بني داكن يكاد يكون أسود اللون. على الرغم من أنها لم تعش في إندونيسيا قط، ولا أحد من عائلتها ذو أصول إندونيسية، إلا أن وجهها وطريقة حركاتها كانا يتميزان بطابع شرقي. حتى لقد تساءل «أنطون» ذات مرة، ألا يمكن أن يكون العالِم «ترفيم ليسنكو» على صواب في ادعائه بأن الصفات المكتسبة يمكن أن تتحول إلى صفات وراثية؟

بعد سنة من زواجهما، ولد لهما ولد سمياه «بيتر». لأن «ساسكيا» و«ساندرا» بقيتا تسكنان في المنزل القديم، فقد اشترى «أنطون» منزلًا بحديقة في الحي الجنوبي من أمستردام. كان إذا ما أخذ ابنه بين ذراعيه، خطر في باله في بعض الأحيان أن الزمن الذي يفصل طفله عن الحرب العالمية الثانية أطول بكثير من الزمن الذي يفصله

هو عن الحرب العالمية الأولى، وماذا تعني له الحرب العالمية الأولى؟ أقل مما تعنيه له الحرب «البيلوبونيسية». أدرك عندئذ أن الحرب العالمية الثانية لا تعني شيئًا بالنسبة إلى «ساندرا» أيضًا، مع أن ذلك لم يخطر في باله من قبل.

بدأ منذ ذلك الوقت يقضي إجازاته الصيفية في «توسكانا»، في بيت قديم رحب يقع على أطراف قرية قريبة من مدينة «سيينا»، اشتراه بسعر زهيد وكلف متعهدًا محليًّا بتصليحه. كان الجانب الخلفي من البيت منحوتًا من هضبة صخرية، وكانت الصخرة قد بقيت مكشوفة في مكان منها، ممتدة عبر المنحوتة على شكل شريط مائل معرَّق، ذي لون بني مائل إلى الاصفرار. كان من دواعي سروره أن يضع يديه على تلك الصخرة، إذ يتملكه شعور بأنه يمسك الكرة الأرضية كلها بين يديه وهو في غرفته. في إجازات أعياد الميلاد أيضًا، كانوا يذهبون إلى هناك بسيارتهم العائلية «ستيشن واغن»، والحق أنه أصبح يعيش حياته منذ ذلك الوقت من إجازة إلى إجازة. كان إذا ما جلس على مصطبة بيته، في ظل شجرة الزيتون، رأى أمامه الهضاب الخضراء بكروم العنب، وأشجار السرو، وشجيرات الدفلة، وأبراج الدفاع ذات الشكل المربع المنتصبة هنا وهناك: تلك الطبيعة الخلابة التي لم تكن طبيعة فحسب، بل كانت تمثل في لحظة ما بانوراما النهضة الإيطالية، وفي اللحظة التالية ديكور الحضارة الرومانية، وفي كل الأحوال بعيدة جدًّا عن «هارلم»، وعن الشتاء الأخير من الحرب عام ١٩٤٥. لم يكن قد بلغ الأربعين من عمره، حين بدأ يقلب الأمر في رأسه بأن يقيم هناك بصورة دائمة، بعد أن يكبر «بيتر» ويترك البيت.

وذات يوم أصبح يملك أربعة منازل. ولأنه احتاج لفترة مؤقتة إلى مكان يقضي فيه عطلات نهاية الأسبوع، فقد اشترى مزرعة صغيرة في مقاطعة «خيلدرلاند» دلَّه عليها السيد «دخراف». طبعًا كان بإمكان «ساسكيا» و«ساندرا» أن تقضيا الإجازات فيها، وفي بيت «توسكانا» أيضًا، إذا واتتهما فرصة سانحة. كانت «ساسكيا» قد تزوجت من عازف مزمار يصغرها في السن بعض الشيء، وله شهرة عالمية، ويتميز بروح الدعابة، وعنده طفل من زوجته السابقة، ويريد اقتناء منازل على المدى البعيد. (لم تكن السيدة «دخراف» موافقة على ذلك الزواج، لكن «ساسكيا» كانت طوال حياتها مختلفة عن صديقاتها، اللاتي يرتدين الفساتين المكشكشة، وينتعلن الأحذية ذات الكعوب المسطحة، ويتزيَّن بشالات الحرير وقلائد اللؤلؤ، ويولين اهتمامًا لمستواهن الاجتماعي أكثر من أي شيء آخر). حدث بضع مرات أن ذهب أربعتهم مع الأطفال الثلاثة لقضاء الإجازة في إيطاليا. تبين هناك أنه ما يزال يوجد شكل من أشكال التفاهم بين «أنطون» و«ساسكيا»، الأمر الذي كان يزعج «إليزابيت» في بعض الأحيان، أما زوج «ساسكيا» فقد كان يضحك منه، فقد كان يدرك تمامًا أن هذا التفاهم نفسه هو الذي ساهم في طلاق أحدهما من الآخر. لم تكن «إليزابيت»، التي تصغر ثلاثتهم سنًّا، على جانب عظيم من الوعي، لكنها في الوقت نفسه كانت تفوقهم جميعًا. أحيانًا كانوا ينادونها بـ«ماما»، الأمر الذي كان يبث السرور في نفس «أنطون».

بدا وكأن مرض الشقيقة يخف كلما تقدم في السن، لكنه في نحو الأربعين من عمره أصبح يعاني من وعكات صحية أخرى. بات يشعر

بالكآبة والتعب، وأخذت الكوابيس تزعج منامه، وكان ما إن يستيقظ من النوم حتى تنتابه الهموم والهواجس ويراوده الشعور بأن كل ما فعله في حياته كان غلطًا في غلط: المنازل الأربعة، و«ماتلدا» التي تركها وراءه، وكل شيء، كل شيء. بقيت نفحة من الإحباط واليأس تحوم في نفسه من دون توقف، مثل ورقة متساقطة في فصل الخريف، شعور لم يسبق أن انتابه إلا عندما كان يموت مريض تحت يديه: عندما يتحول الإنسان إلى نفاية فجأة، فيستوي هو بقامته، ويستوي الجميع في صمت، وتُطفأ الأجهزة، ويزيح الكمامة من أمام فمه بيد، ويخلع قبعته بيده الأخرى، ويخرج من صالة العمليات، مجرجرًا قدميه على الأرض، مائلًا برأسه بعض الشيء على كتفه. ذات يوم شديد الحرارة في إيطاليا، تعرض لأزمة حادة تبين أنها لم تصل إلى ذروتها فحسب، بل وضعت حدًّا لشهور القلق والهموم تلك.

لأن جزار القرية لم يكن يبيع من اللحوم سوى لحم العجل، كانت «إليزابيت» قد ذهبت مع «بيتر» في صباح ذلك اليوم إلى «سيينا». في أغلب الأحيان كان يذهب هو نفسه لشراء حاجيات المنزل في المدينة، وإن كان لقضاء بعض من الوقت على مصطبات المقاهي في ساحة «دل كامبو»، تلك الساحة المشيدة على شكل صدَفة منقطعة النظير في زمن موغل في القدم، التي تبرهن على أنه لم يحدث أي تطور في الفن المعماري أيضًا منذ ذلك الوقت، لكنه في صباح ذلك اليوم، شعر بالإعياء فآثر البقاء في البيت. كان جالسًا يقرأ، حين رفع رأسه فجأة مأخوذًا بالصمت. وقعت عينه على قداحة الطاولة البيضاء، التي لها شكل حجر الزهر، والتي كان قد تلقاها هدية

من والديْ «إليزابيت». تولاه القلق والاضطراب، فراح يتجول في الغرف متفاوتة الحجم، المدهونة بالكلس الأبيض، ويصعد ويهبط السلم الحلزوني بدرجاته غير المتجانسة. حاول الجلوس بين الفينة والأخرى، لكنه كان ما إن يجلس حتى يزداد وضعه سوءًا، فيهب واقفًا على الفور، ولكن ما الذي يزداد سوءًا؟ فهو لا يشعر بألم في جسده، ولا يعاني من حُمى، وكل شيء على ما يرام، ولكن في الوقت نفسه ليس على ما يرام. تمنى لو تعود «إليزابيت» و«بيتر» إلى البيت - يجب عليهما أن يعودا في الحال. هناك شيء يحدث في داخله لا يستطيع أن يفهمه. أسرع بقلق واضطراب إلى المصطبة ووقف على حافتها، لكنه لم يرَ أحدًا على الطريق الترابي الذي يمتد أمامه ويختفي في المنحدر خلف الهضبة التي تقوم عليها الطاحونة المتداعية. دخل المنزل وخرج منه عبر الباب الرئيسي، وصعد درجات السلم شديد الانحدار المؤدي إلى الشارع الذي كان بنفس ارتفاع سطح المنزل. لعلهما يتجولان هناك قليلًا، لكن السيارة لم تكن في مكانها. كانت الساحة العارية من الأشجار، الكبيرة بما لا يتناسب وحجم القرية، تبدو وكأنها مغمورة بالماء المغلي. كانت قد خلت من الناس سوى من رجل مسن وامرأة مسنة في ثياب سوداء. كان بضعة من العجائز يجلسون أيضًا في ظل الكنيسة الأسود، أما الرجل والمرأة فيسيران تحت الشمس: قامتان متفحمتان في الضوء الباهر للأبصار.

وهو واقف هناك، ارتفع جبل رمادي، مثل الطوفان، وانقض عليه. وثب هابطًا درجات السلم، وصفق الباب الرئيسي خلفه، وأخذ ينظر حوله وفرائصه ترتعد من الخوف. ها هي الجدران الجامدة، المدهونة

بالكلس، تطلق بياضها في وجهه، والتواء السلم، والعوارض الخشبية الغليظة، والأشياء كلها تطلق من التهديد ما انخلع له شيء في رأسه: شقت الصخرة الجدار الأبيض واخترقت رأسه. خرج إلى المصطبة واضعًا يديه الاثنتين على صدره: ها هي أشجار السرو، أشجار السرو كلها، المنتشرة على الهضاب، ترتفع منها شرارات نار سوداء. انتبه إلى أن أسنانه يصطك بعضها ببعض، مثل أسنان طفل صغير يخرج من البحر، لكنه لم يجد سبيلًا إلى إيقافها. يوجد خطأ في العالم، وليس فيه هو. الجداجد يتصاعد هسيسها. سار لاهثًا إلى داخل البيت من جديد، حيث البلاط الأحمر، وفوق الموقد مرآته القديمة المحلاة بصور الملائكة، والعيون السود لحجر الزهر. أدرك أنه يجب أن يستعيد رباطة جأشه، وأن يهدئ من أنفاسه المتسارعة حتى لا يتفاقم وضعه. جلس على كرسي من دون ذراعين بجانب الطاولة، كرسي إيطالي صغير بمجلس من القش المضفَّر، وأخفى أنفه وفمه بين يديه، وأغمض عينيه محاولًا الاسترخاء.

وجدته «إليزابيت» جالسًا على هذا النحو، لا يحرك ساكنًا لكنه يرتجف، مثل تمثال أثناء حدوث زلزال. عندما رأت نظرة عينيه، لم تسأله هل يجب عليها أن تستدعي الطبيب، بل استدعته. نظر «أنطون» إلى «بيتر» وحاول أن يضحك، ثم إلى الحقيبة الملأى بالمشتريات التي كانت «إليزابيت» قد وضعتها على الطاولة. فوق الأغراض كانت ثمة علبة صغيرة مغلَّفة: ها هي ورقة التغليف تنشق عن العلبة، وتتفتح مثل الوردة، فتظهر قطعة اللحم المضرجة بالدماء.

جاء الطبيب على الفور، وأكد أن مثل هذه الحالات أمر عادي

ولا تستوجب القلق، وأعطى «أنطون» حقنة نام على إثرها خمس عشرة ساعة، واستيقظ في صباح اليوم التالي متمشًا نشطًا. كانت ثمة وصفة «فاليوم» يجب أن يأخذه إذا ما واتته هذه الحالة مرة أخرى، لكن «أنطون» مزقها على الفور، لا لأنه يستطيع أن يكتب وصفاته الطبية بنفسه، بل لأنه يعرف أنه لو بدأ في أخذ هذه الحبوب المهدئة، لبقي طوال حياته يأخذها. بعد ذلك، واتته تلك النوبة بضع مرات، لكن وطأتها أخذت تخف تدريجيًا، حتى إنها لم تعد تواتيه في نهاية الأمر، وكأنها ارتعبت عندما مزق وصفة الدواء وحدد بذلك من يكون سيد الآخر.

ما لم يسلم من تلك النوبة كان منزله والمنظر الذي تطل عليه مصطبة منزله. بعد ظهر ذلك اليوم، فقدا شيئًا من كمالهما، مثلما يفقد وجه جميل حلاوته من جراء ندبة.



انقضى الوقت، وشاب شعره قبل الأوان، لكنه لم يصبح أصلع الرأس مثل والده. بينما كان مظهر الناس من حوله يأخذ سمة الطبقة العاملة، بالقدر نفسه الذي كانت تختفي الطبقة العاملة نفسها، بقي هو يرتدي السترات الإنجليزية والقمصان المخططة بمربعات مع ربطات العنق. توالت الأيام فبلغ عمر من يعرفه من العجائز الذين تعرّف إليهم عندما كانوا في نفس عمره الآن. أذهله ذلك الأمر، وغيّر نظرته إلى الناس، الكبار منهم والصغار على حد سواء، وإلى نفسه في المقام الأول. ذات يوم، بلغ من العمر ما لم يبلغه والده قط، فأشعره ذلك بأنه تجاوز من الحدود ما يستحق العقاب عليه، وتذكر

المثل اللاتيني: «ما يجوز لابن السيدة لا يجوز لابن الجارية!» لم يكن قبل ذلك الوقت يفضل استخدام الأقوال المأثورة، مثل: «ما فات مات»، أو «الأفضل عدو الجيد»، أو «الحصول على الشيء يفقده رونقه»، لكنه الآن، وقد وصل إلى هذا العمر، بدأ يرى أن مثل هذه الأمثال الشعبية تعبر عن الواقع تعبيرًا دقيقًا. اكتشف أنها ليست مجرد عبارات مكررة، بل خلاصة تجارب عاشتها أجيال بأكملها، والحق أنها في العموم حقائق مثيرة للإحباط. إنها لا تشمل حكمة الطوباويين - وذلك لأنهم ليسوا حكماء - لكنه لم يكن يومًا واحدًا منهم. كان ذلك من الأمور المستبعدة.

أطَّر صورة زوجة خاله بعد أن وافتها المنية، ووضعها بجانب صورة خاله على طاولة مكتبه، ليس في أحد منازله، بل في غرفة عمله في المستشفى. في النصف الثاني من السبعينيات، مات السيد «دخراف» هو الآخر. حضر مراسم إحراق جثمانه عدد أقل بكثير من عدد الذين حضروا الجنازة السابقة. كان «هينك» حاضرًا وقد شابت شواربه، و«ياب» أيضًا وقد غزا الشيب رأسه، أما الوزير وعمدة أمستردام فقد كانا في عداد الأموات، حالهما مثل حال القسيس، والشاعر، والناشر. لم يكن «تاكيس»، الذي لم يره منذ ذلك الوقت، حاضرًا أيضًا، لكنه حين سأل عنه، أجاب الجميع بأنه لا بد أن يكون على قيد الحياة، وإن لم يسمع أحد أي شيء عنه في السنوات الأخيرة. لم تكد تمضي بضعة أسابيع حتى ماتت والدة زوجته السابقة أيضًا. حين وقف للمرة الثانية في محرقة الجثامين تلك، بجوار «ساندرا» و«ساسكيا» وزوجها، ورأى التابوت يُنزل إلى السرداب الذي تشتعل

النار فيه، استغرب من أن عكازها الأسود البراق، ذا المقبض الفضي، ليس موضوعًا فوق التابوت، كما يُفعل عادة مع جنرال.

على الرغم من أن الحرب كانت تتجدد بين الفينة والأخرى في الكتب الصادرة حديثًا والبرامج التلفزيونية، فإنها بدأت توغل شيئًا فشيئًا في الماضي السحيق، إذا جاز للمرء أن يستعمل هذا التعبير. في مكان ما وراء الأفق أخذت عملية اغتيال «بلوخ» تصدأ وتتآكل، حتى لم يبق منها سوى حادثة غامضة لا يكاد يعرفها أحد غير «أنطون»: حكاية مرعبة من قديم الزمان. عندما كانت «ساندرا» في السادسة عشرة من عمرها، أعربت ذات يوم عن رغبتها في رؤية المكان الذي لقي فيه جدها وجدتها وعمها حتفهم. لم تستسغ «ساسكيا» ولا «إليزابيت» تلك الفكرة، لكن «أنطون» لم ير فيها بأسًا، فاصطحبها في ظهر يوم سبت من شهر مايو إلى «هارلم»: عبر الطريق السريع ذي المسارات الأربعة، الممتد على طول أعداد لانهائية من الأحياء السكنية المشيدة على الأرض التي كانت في يوم من الأيام حقول استخراج الخُث، وفوق الجسور ذوات الطوابق الثلاثة التي كانت قد ابتلعت طرق الملاحة المحلية. لم يكن قد رجع إليها منذ ما يزيد على ربع قرن، ولا حدث أن أرى «ساسكيا» و«إليزابيت» هذا المكان.

هذا المكان! انفجر «أنطون» في الضحك. كانت السن المخلوعة قد رُكِّبت محلها سن من الذهب. في المكان الذي قام فيه منزله ذات يوم، يقوم الآن، وسط حديقة مجزوزة العشب، منزل أبيض من طابق واحد، مبني على طراز منازل سنوات الستينيات، له نوافذ عريضة، وسطح مسطح، ومرآب سيارة. عند بوابة حديقته لوحة كُتب عليها:

«للبيع». رأى «أنطون» من فوره أن منزل آل «بوبمر» قد خضع للتجديد هو أيضًا، كان طابقه السفلي قد أصبح مساحة واحدة كبيرة، وفُتحت نافذة جديدة عريضة على الجانب من سطحه المائل. رأى أيضًا في حديقة المنزل الواقع في أقصى اليمين، منزل آل «آرتس»، لوحة عليها اسم كاتب عدل. لم يكن أي من المنازل الثلاثة يحمل اسمه السابق. جهد «أنطون» ذهنه ليتذكر أيها كان يدعى «موقع ممتاز» وأيها «قصر النعيم»، لكنه تذكر على الفور أن الجيران الآخرين، آل «كورتيفيخ»، كانوا يعيشون في منزل «فوق الخيال». على الطرفين من المنازل الأربعة أيضًا، قامت بيوت من طابق واحد، وعلى الأرض البور خلفها حي جديد مجهز بشوارع وخلافه. وعلى الجهة الأخرى من القناة، حيث كانت المروج تترامى في الماضي حتى أمستردام، تلوح الآن ضاحية جديدة في الشمس، بمبانٍ سكنية، ومكاتب تجارية، وطرقات عريضة مزدحمة. لم يكن قد بقي من معالم الماضي سوى بضعة منازل قديمة والطاحونة الهوائية بالقرب من المياه.

أخبر «ساندرا» كيف كان شكل الحي في الماضي، لكنه رأى عليها أنها لا تستطيع أن تتخيل شكله القديم، تمامًا مثل الوقت الذي لم يستطع فيه أن يجعلها تفهم ما الذي كان يعنيه شتاء المجاعة. بينما هو واقف على الجهة الأخرى من الشارع المبلط على شكل هندسي متموج، ويحاول أن يصف لها كيف كان شكل «خالي الهموم»، وفي الوقت نفسه يرى منزله القديم ذا السطح المصنوع من الخيزران والنافذة البارزة يظهر عبر المنزل الجديد مثل شبح، خرج رجل عار بنصفه الأعلى وببنطال جينز من المنزل ذي الطابق الواحد. سأل هل

يستطيع أن يخدمهما بشيء؟ قال له «أنطون» إنه يُري ابنه المكان الذي عاش فيه في الماضي، فقال الرجل إنهما يستطيعان مشاهدة المنزل من الداخل أيضًا. كان يدعى «ستومل». ألقت «ساندرا» على والدها نظرة استفسار: هذا البيت ليس هو البيت نفسه الذي عاش فيه، أليس كذلك؟ لكن «أنطون» زمَّ شفتيه ورمش بعينيه، ففهمت من هذه الحركة أن تترك الموضوع عند هذا الحد. كان قد أحس بأن «ستومل» فهم جوابه على أنه ذريعة شخص يريد شراء المنزل. عندما قطعوا الشارع، التقت عيناه بمكان على الرصيف، لكنه لم يعد بمقدوره أن ينسبه إلى ذكرى معينة.

كان المنزل من الداخل رحبًا ومنيرًا. في المكان الذي كان فيه الممر والصالون وغرفة الطعام بالطاولة تحت المصباح، في مكان تلك المساحات الضيقة والقاتمة كلها، يمتد الآن سجاد أزرق فاتح، من المطبخ الكبير بطلائه اللامع على طرف وحتى البيانو الأبيض القائم على الطرف الآخر. في إحدى الزوايا، كان صبيان قد تمددا على بطنيهما أمام التلفاز، فلم يرفعا عيونهما عنه. بينما «ستومل» يريهما غرف النوم المنيرة في الجناح الخلفي، أخبرهما بأنه اشترى هذا المنزل قبل خمس سنوات فقط، وقد أجبرته الظروف للأسف الشديد على عرضه للبيع، لكنه مستعد لتحمل خسارته. خطوا بضع خطوات في الحديقة أيضًا. لم يكن السياج، الذي طالما تسلل «أنطون» عبره، موجودًا. كان الجيران الساكنون فيما كان في السابق «فوق الخيال»، وهم سيد كهل أسمر وسيدة إندونيسية بشعر أبيض، يجلسان تحت مظلة شمسية في الحديقة. مضت برهة قصيرة قبل أن يتذكر «أنطون»

أن الجالسين هما الزوجان الشابان الظريفان اللذان كان لهما طفلان صغيران. ظهرت السيدة «ستومل»، وقد أسرفت في تزيين وجهها بمساحيق التجميل، وعرّفت نفسها بـ«السيدة ستومل». اقترحت بلطف شديد أن تجهز شيئًا من الشراب، لكن «أنطون» شكرهما على مشاهدة المنزل وألقى عليهما تحية الوداع. قبل أن يصافحه «ستومل»، أسرع إلى مسح يده بطرف بنطاله، فلم يزل بذلك إلا القليل من عرقه.

تأبطت «ساندرا» ذراعه وسار أحدهما بجانب الآخر صوب النصب التذكاري المقام على نهاية رصيف القناة. كان حاجز خشبي قد حل محل درب الملاحين. وكانت شجيرات «الرودودندرون» قد نمت وأصبحت جدارًا كثيفًا تغطيه عناقيد الورد الثقيلة، بينما المرأة المنحوتة بالأسلوب المصري وقد بدأت تتداعى من تأثير الجو. لم تصدق «ساندرا» عينيها وهي تنظر إلى كنيتها المكتوبة على اللوحة البرونزية، وبدا عليها بوضوح أنها لن تستطيع أبدًا أن تستوعب ما حدث. في حين أخذ «أنطون» ينظر إلى الاسم المكتوب تحت اسم أمه: «ج. تاكيس». تذكر «تاكيس» وهو يقول إن أخاه الأصغر كان واحدًا من الرهائن، ولكن لم يحدث أن ورد إلى ذهنه أن اسمه مكتوب على هذا النصب. أحنى رأسه، فسألته «ساندرا» عن السبب. أجاب أن لا شيء.

بعد ذلك بوقت قصير، على مصطبة المطعم المزدحمة بالزبائن في محمية «هارلمر هاوت»، في المكان الذي كان يقوم فيه مرآب السيارات الخاص بـ«مركز قيادة المدينة» (في مكان «مركز قيادة المدينة» نفسه يقوم الآن مصرف مالي جديد)، أخبر «ساندرا» لأول

مرة عن حديثه مع «تروس كومستر» في تلك الليلة، في قبو مركز الشرطة في «هيمستيده»، وورد إلى ذهنه في الوقت نفسه أنه لم يعد إلى ذلك المكان منذ ذلك الوقت ولا مرة واحدة، وأنه لن يعود إليه أبدًا. لم تستطع «ساندرا» أن تستوعب كيف يتحدث عنها بهذه الرقة كلها: ألم تكن هي السبب في كل ما حدث! شعر «أنطون» بإرهاق شديد يتصاعد من قرارة نفسه. هز رأسه بلا وقال: «كل واحد فعل الشيء الذي فعله، ولا شيء آخر». في تلك اللحظة نفسها علِم علم اليقين أن «تروس كومستر» هي التي قالت له ذلك حرفيًّا، أو بشكل شبه حرفي. بعد ذلك مباشرة، بعد ما يقارب الخمسة والثلاثين عامًا، سمع صوتها فجأة، خافتًا جدًّا وبعيدًا جدًّا: «... هو يعتقد أنني لا أحبه...» أنصت في جمود، لكن الصمت عاد من جديد، فلم يسمع أي شيء آخر. اغرورقت عيناه بالدموع. لا يزال كل شيء محفوظًا في ذاكرته، ولم يختفِ أي شيء. النور والسلام يلوحان بين أشجار الزان الباسقة، وصف الأشجار الفتية في المكان الذي كان الخندق محفورًا فيه. هنا، صعد مع «شولتس» إلى الشاحنة العسكرية، عندما كانت السماء تمطر زخات جليد على شكل إبر رفيعة. شعر بيد «ساندرا» على ذراعه، فوضع يده فوق يدها، لكنه لم يجرؤ على النظر في عينيها خشية أن يجهش بالبكاء. سألته «ساندرا» بهدوء هل حدث وزار قبرها. عندما هزَّ رأسه بالنفي، اقترحت أن يذهبا لزيارته في الحال.

في دكان الزهور أرادت «ساندرا» أن تشتري وردة حمراء من مصروفها الخاص، لكنها خرجت من المحل بوردة بنفسجية تكاد تكون زرقاء اللون. كانت الورود الحمراء قد بيعت كلها. بعد ذلك

اتجها بالسيارة إلى «المقبرة التذكارية» الواقعة على تلال الساحل. ركنا السيارة إلى جوار بضع سيارات مركونة هناك، وسارا على الدروب المتعرجة في تصاعد صوب العلم المرفرف على قمة تل من التلال. لم يكن يُسمع أي شيء سوى صوت الحشرات المتصاعد من بين الأجمة، ثم بعد وقت قصير صوت رفرفة العلم.

في ساحة مستطيلة مسيَّجة كانت هناك بضع مئات من مساحات صغيرة مستطيلة فيها قبور، تحيط بها حصوات مرتبة بعناية فائقة. كان ثمة رجل يرش الماء بالخرطوم، وهنا وهناك أناس عجائز يعتنون بالأزهار الموضوعة فوق القبور، أو يجلسون على المقاعد ويتحدثون بخفوت، وكان بضعة أشخاص يجلسون في ظل جدار عالٍ نُقشت عليه الأسماء والنصوص بأحرف من البرونز. عندما لم يتعرَّف «أنطون» أحدًا منهم، أدرك أنه كان يتوقع رؤية «تاكيس» هنا. سألت «ساندرا» البستاني عما إذا كان يعرف أين قبر «تروس كومستر»، فأشار من دون تفكير إلى المساحة المستطيلة التي يقفان بجانبها:

«كاثرينا خيرتراودا كومستر»

١٩٤٥/٤/١٧-١٩٢٠/٩/١٦

وضعت «ساندرا» وردتها الزرقاء فوق الحجر الرمادي، ووقف أحدهما بجانب الآخر ينظران إليه. كان صوت رفرفة العلم في السكون، وصوت حبله وهو يطرق بالسارية، أكثر حزنًا من أي موسيقى. قال «أنطون» في نفسه: المكان هناك تحت الرمال أكثر ظلامًا من تلك الزنزانة. جال بعينيه على المساحات الموزعة بنظام حسابي دقيق، التي تدل على قذارة الحرب، وقال فيما بينه وبين نفسه:

يجب أن أذهب لزيارة «تاكيس»، إن كان ما يزال على قيد الحياة، وأخبره بأنها كانت تحبه.



لكنه حين ذهب في ظهر اليوم التالي إلى شارع «نيوي زايدس فوربورخ فال»، وجد لوحة الواجهة «القضاعة» محطمة منذ أمد بعيد على ما يبدو، فعلى السياج المدهون بالأخضر أُلصقت إعلانات عديدة بعضها فوق بعض. عندما لم يعثر عليه في دليل الهاتف أيضًا، ترك الأمر عند ذلك الحد.

لم يرَه إلا بعد انقضاء عامين، في ٥ مايو من عام ١٩٨٠، بالمصادفة على التلفاز، في برنامج عن إحياء ذكرى قتلى الحرب كان يشارف على الانتهاء حين شغّل الجهاز ـ شيخ ذو لحية بيضاء ووجه مؤثر مهيض، لم يعرفه «أنطون» إلا عندما ظهر اسمه على الشاشة للحظة قصيرة:

«كور تاكيس»

رجل مقاومة

كان يقول لشخص جالس إلى جانبه على كنبة:

ـ كف عن هذا الهراء! الحرب لم تكن سوى كومة كبيرة من القذارة. والحق أنني لا أريد أن أسمع أي شيء عنها.

من ناحية أخرى كان «أنطون» غالبًا ما يرى شاحنات صغيرة بيضاء في المدينة، مكتوبًا عليها بأحرف حمراء:

شركة «فاكه بلوخ» المحدودة للمرافق الصحية

٢

ومثلما يلقي البحر كل ما تفقده السفن من أشياء إلى الشاطئ، ويقوم بائع خردوات بجمعها قبل طلوع الشمس، هكذا ظهرت تلك الليلة من ليالي الحرب عام ١٩٤٥ مرة أخرى في حياته.

في صباح يوم من أيام السبت، في النصف الثاني من شهر نوفمبر عام ١٩٨١، استيقظ على ألم لا يُحتمل في ضرسه، اضطره إلى فعل شيء في الحال. اتصل في الساعة التاسعة بعيادة طبيب الأسنان الذي يعالجه منذ ما يزيد على عشرين عامًا، لكن لم يرد أحد على الهاتف. بعد تردد بسيط اتصل برقمه الخاص. قال له الطبيب أن يأخذ حبة «أسبرين»، لأنه لا ينوي أن يقضي يومه في معالجة الأضراس، فهو يريد أن يخرج للتظاهر بعد قليل.

ـ تخرج للتظاهر؟ ضد ماذا؟

ـ ضد التسلح النووي.

ـ لكنني أموت من الألم!

ـ كيف جاء هذا الألم المفاجئ؟

ـ كنت احس بانه آتٍ منذ بضعة أيام.
ـ ولماذا لم تأتِ من قبل؟
ـ كنت في مؤتمر في «ميونيخ».
ـ ألم يستطع زملاؤك أطباء التخدير أن ينصحوك بما يسكّن الألم؟ على فكرة ألن تشارك في المظاهرة؟
ـ عفوًا! دعني بعيدًا من فضلك! هذا شيء لا يناسبني.
ـ اوه! وهل ألم الأضراس يناسبك؟ اسمعني جيدًا يا صديقي. هذه هي أول مرة في حياتي أخرج فيها في مظاهرة. أريد أن اساعدك، لكن بشرط أن تشارك فيها أنت أيضًا.
ـ سأفعل كل ما تريده مني، يا أذعر، لو ساعدتني.

اتفقا على أن يذهب إلى العيادة في الحادية عشرة والنصف، فصحيح أن مساعدته غائبة بسبب خروجها في المظاهرة، إلا أنه سوف يرى ماذا يستطيع أن يفعل له.

هكذا لم تتحقق رغبته في قضاء عطلة نهاية الأسبوع في «خيلدرلاند» بعد مؤتمر ألمانيا. قال لـ«إليزابيث» أن تذهب هي و«ايتر» وحدهما، لكنها لم تكن لتفكر بذلك مجرد تفكير. وقفت مثل الممرضات ومدت إليه يدها بطبق صغير مفروش بورقة مدورة، توسطها سويقة جافة بنية اللون، بطول سنتيمتر واحد، منتهية بكأس صغيرة ورأس مكور.

ـ ما هذا؟

ـ حبة قرنفل. ضعها في ضرسك. كانوا يفعلون ذلك في الهند الشرقية.

عانقها بطريقة مفاجئة، والدموع تكاد تطفر إلى عينيه، فرأت في هذه الطريقة بعضًا من المبالغة:

ـ ماذا دهاك يا «طون»! لا تبالغ إلى هذا الحد!

ـ للأسف لا يوجد نخر في ضرسي، ولا أعرف سبب هذا الألم، لكنني سآكلها.

لكنه لم يُوفق في ذلك، إذ لم يجد إلى مضغها سبيلًا. أخذ يذرع البيت على مرأى من عيني «بيتر»، وقد فغر فاه من الألم، مثل تمثال «المتثائب» الذي تعلقه الصيدليات في هولندا فوق بابها. فكر بمظاهرة السلام التي يجب أن يشارك فيها بعد قليل. كان قد قرأ خبرًا عنها بأنها ستكون من أكبر المظاهرات التي تشهدها أوروبا، لكن أثناء قراءته لم يخطر في باله أن يتساءل هل يجب أن يشارك فيها أم لا، فقد استطلع الخبر كما يستطلع أخبار النشرة الجوية. كان من قبيل هذه الأشياء: الألفية الثانية تشارف على الوصول، والذعر من الألفية الجديدة يدب في صفوف الناس، كما دب قبل ألف سنة. القصد من القنابل الذرية هو الردع، وهي ليست للاستخدام بل للحفاظ على السلام العالمي. لو تم التخلي عن هذه الأشياء المتناقضة، لازداد احتمال نشوب الحروب التقليدية، ولانتهت هذه الحروب مع ذلك باستخدام الأسلحة النووية. من ناحية أخرى، ساوره القلق حين صرح الرجل العجوز في أمريكا بأنه يمكن أن تنشب حرب نووية على نطاق محدود، في أوروبا بالذات، ثم تشمل القارة كلها. ما جعله يشعر بالاطمئنان هو رد الرجل العجوز في روسيا بأن ذلك مستحيل التحقيق، لأنه سيليه

امريكا عن بكرة أبيها في كل الأحوال. ولكن حتى هذا الرد كان يعني انه لا يمكن التخلي عن التسلح النووي.

شرب البابونج الذي أعدته له «إليزابيت»، وجلس على الكنبة وحاول إمضاء الوقت بحل الكلمات المتقاطعة: «ألا يستطيع إله الشمس أن يحدد سبب هذا الدمار؟» خمسة حروف. خُيل إليه أنه لا يستطيع التفكير، لو لم يطبق فكيه أحدهما فوق الآخر. تمعن في اللغز وهو يشعر بأن الحل لا يمكن أن يكون صعبًا، ومع ذلك لم يستطع العثور عليه. لم تكن عيادة طبيب الأسنان بعيدة عن منزله السابق، فقرر في الساعة الحادية عشرة أن يذهب إليها سيرًا على الأقدام.

كان الجو باردًا وغائمًا. سار في الشوارع التي أخذت تزدحم بالناس، والألم ينخر في فكه مثل المثقاب. كانت طائرة مروحية تحوم في السماء. وكانت السيارات والترامات قد توقفت عن العمل، بدا من الواضح أن مركز المدينة مغلق من كافة الجهات، حتى إن الطريق العام يعج بالناس الذين يسيرون في الاتجاه نفسه، وقد رفع معظمهم اللافتات. كان ثمة أجانب أيضًا، فقد رأى حشدًا من رجال شجعان بعمائم، وسراويل فضفاضة، وأحزمة تنقصها فقط المسدسات والخناجر المعقوفة، لعلهم أكراد منفيون، كانوا يضحكون ويغنون وهم يسيرون بخطى أهل الصحراء الرشيقة وراء لافتة مكتوبة بالعربية ـ لو أن اللافتة تدعو إلى الجهاد، الحرب المقدسة، لما استطاع أحد أن يعرف ذلك. ما لبثت أن ازدحمت الشوارع الازدحام نفسه الذي رآه في مايو عام ١٩٤٥، فقد توافدت

حشود كبيرة من جميع الجهات صوب «ميدان المتحف». حين فكر بأنه يجب عليه أن ينضم إلى هذه الحشود البشرية بعد قليل، اشتد ألم ضرسه. أي مآل ستؤول إليه الأمور، لو دب الذعر في صفوف هؤلاء الناس، إذا قام المشاغبون بأعمالهم، فالأبواب في أمستردام مفتوحة في هذه الأيام على كل الاحتمالات! من حسن الحظ لم يرَ للشرطة أي أثر، ما عدا الطائرة المروحية المحلقة في السماء.

حين وصل إلى العيادة، دق الجرس. لم يفتح أحد الباب، فانتظر على الرصيف وهو يرتعش قليلًا من البرد (أو من شيء آخر). إله الشمس هو «رع»، هذا لا شك فيه. رعاة؟ رعايا؟ رعاع؟ رعية؟ هؤلاء كانوا يعبدون الإله. رعال؟ هؤلاء كانوا من الحاشية المحيطة بالإله. عبرت حشود الناس في تيار متواصل برأس الشارع الفرعي الذي يقف فيه. عندما وصل طبيب الأسنان بعد مضي بضع دقائق بساقه العرجاء، وقد تأبطت زوجته ذراعه، انفجر في الضحك وقال:

- أراك بهي الطلعة!

فقال «أنطون»:

- اضحك على هواك، أيها الحكيم الطيب «خيرت جان». يا من تجيد ابتزاز مرضاك.

- هذا كله خدمة للإنسانية، وهذا كله وفقًا لأحكام أبقراط.

كان قد ارتدى لهذه المناسبة بدلة صيد إقطاعية: سترة خضراء من الجوخ، تحتها بنطال قصير أخضر، وجوربان طويلان من اللون

الأخضر الغامق، الأمر الذي جعل حذاءه الطبي باديًا للعيان أكثر من أي وقت مضى. عندما دخلوا غرفة المعاينة، رن الهاتف.

أجاب السيد «فان ليبيب»:

ـ أوه، لا! هذا غير ممكن! أرجوك، نحن لسنا بحاجة إلى شخص آخر!

كانت «إليزابيت» على الهاتف. كان «بيتر» قد أعرب عن رغبته في أن يشارك هو أيضًا في المظاهرة. قال «أنطون» إنه يستطيع أن يأتي بالدراجة الهوائية إلى العيادة وينتظره أمام الباب. ألقى السيد «فان ليبيب» سترته على مكتب مساعدته.

ـ دعني ألقِ نظرة عليك يا صديقي. أي واحدة تؤلمك؟

في الوقت الذي ذهبت فيه زوجته إلى دورة المياه، إذ لا يمكنها أن تفعل ذلك بعد قليل، وجّه الطبيب المصباح إلى فم «أنطون» ولمس الضرس بإصبعه، فضرب الألم رأس «أنطون» مثل البرق. التقط ورقة صغيرة فضية، ووضعها على الضرس، وقال لـ«أنطون» أن يطبق عليها فكيه برفق، ويحركهما حركات خفيفة إلى الأمام وإلى الخلف. ألقى نظرة أخرى على الضرس، وأخذ المثقب من فوق المشجب.

قال «أنطون»:

ـ أفضل بحكم مهنتي أن تعطيني حقنة مخدر.

ـ هل فقدت صوابك؟ ليس عندك أي شيء. افتح فمك.

شابك «أنطون» أصابعه بعضها ببعض. بينما كان يحدق في شعر الطبيب الأشيب المسرح إلى جانب، استمر الألم والضوضاء مدة ثانيتين أو ثلاث ثوانٍ، قال بعدها السيد «فان ليبيب»:

ـ أغلق فمك.

حدثت المعجزة. لقد غادر الألم إلى ما وراء الأفق، اختفى وكأنه لم يكن موجودًا على الإطلاق.

ـ كيف يمكن أن يحدث هذا بحق السماء؟

أعاد السيد «فان لينيب» المثقب إلى مكانه ورفع كتفيه:

ـ ضغط بسيط. كان الضرس متقلقلًا بعض الشيء. إنها مسألة كهولة. مضمض قليلًا من الماء، لنذهب.

سألت زوجته في اندهاش حين عادت إلى الغرفة:

ـ هل انتهيتما بهذه السرعة؟

قال السيد «فان لينيب» بضحكة ماكرة:

ـ إذا كان يظن أنه يستطيع أن يضرب بوعده عرض الحائط، فهو مخطئ.

حين كانوا ينتظرون «بيتر» خارج العيادة، قال «أنطون»:

ـ هل تعرف يا «خيرت جان» أن هذه هي المرة الثانية التي تطالبني فيها بالقيام بعمل سياسي. الاختلاف الوحيد هو أنك هذه المرة تشارك فيه أنت أيضًا.

ـ بماذا طالبتك في المرة الأولى؟

ـ بالتطوع للقتال في كوريا، في الصراع الذي كان يخوضه الغرب المسيحي ضد الشيوعيين الهمج.

بينما تحاول زوجته كبت ضحكتها، حدق فيه «فان لينيب» بصمت خلال بضع ثوانٍ. كان صوت يصل إليهم من مكبرات الصوت من مسافة تبعد عنهم بضعة شوارع.

- هل تعرف ما مشكلتك يا «ستيفابك»؟ مشكلتك هي ذاكرتك القوية. لو حكمنا على الأمور من هذا المنطلق، لكنت أنت الشخص الذي يبتز الآخرين. أنا لم أصبح شيوعيًا في يوم من الأيام، هذا لتوضيح ما قد يلتبس عليك. كيف يمكن لي؟ الليرة لا يمكن أن تتحول إلى قرش يا عزيزي. أما الأسلحة النووية فهي تشكل خطرًا كبيرًا على الإنسانية جمعاء. لذلك يجب أن تراها كنوع من الهجوم من «الفضاء الخارجي» وهي تُستخدم لاستغلال البشرية. كل موجة تسلح جديدة تأتي ردًا على تسلح الطرف المعادي، الذي يعود فيرد بالمثل. هكذا يلقي كل طرف بالمسؤولية على الطرف الآخر، وهكذا تتراكم الأمور إلى أن يستخدموها في يوم من الأيام. هذا واضح مثل عين الشمس. شيء لا مفر منه، شيء مؤكد، تمامًا مثلما كان مؤكدًا أن آدم وحواء سيأكلان ذات يوم من «شجرة الحياة». لذلك علينا إتلاف ذلك التفاح.

أحنى «أنطون» رأسه. لقد أذهلته هذه الحجة، ولكن من المعروف في الأوساط الطبية أن أطباء الأسنان مجانين، ولكن لعل حجته هذه تنطوي على جانب من الصحة. وصل «بيتر» وأقفل دراجته. بينما «أنطون» ينظر إليه، وهو يسمع هدير الطائرة المروحية والضوضاء المسموعة من البعد، انتابه شعور جميل جعله، لدهشته العظيمة، ينجذب إلى ما يجري في المدينة ويرتبط به.

في القسم الأخير من الشارع المؤدي إلى مكان التجمع، بات من غير الممكن تقريبًا أن يتقدموا خطوة إلى الأمام. تحت منفاخ أسود.

ضخم على شكل صاروخ مندفع نحو الأرض، كانت الشوارع الواقعة بين مبنى الحفلات الموسيقية ومتحف «رايكز»، قد ازدحمت بعشرات الألوف، بل بمئات الألوف من الناس الرافعين لوحات ولافتات يصل عرض بعضها إلى عشرة أمتار، في حين لا يزال الناس يتوافدون من جميع الجهات. من مكبرات الصوت المثبتة على الأشجار وأعمدة الكهرباء كان ينبعث خطاب، بدا أنه يُلقى من فوق المنبر المقام في البعد، لكن «أنطون» لم يبالِ بمضمون الخطاب. ما كان يهمه هو هؤلاء الناس المحتشدون هنا، أي حضورهم المحض، وأنه هو وابنه اثنان منهم. اختفى «فان لينيب» عن ناظريه، لكن لم يخطر في باله أن يتملص من بين الحشود ويذهب إلى البيت. كما أن هذا الأمر بات مستحيلًا بعد مضي برهة قصيرة. كان يقف هو وابنه مثل سنبلتين في حقل من السنابل البشرية التي يحوم منجل الحصاد فوق رؤوسها، وقد اختفى شعوره بالقلق والخوف اختفاءً كاملًا. كان الناس الذين يقفون بجواره، ويكادون يلتصقون به هم، ما عدا «بيتر»، امرأة قروية كبيرة السن بعض الشيء، ترتدي منديلًا صغيرًا شفافًا فوق تسريحة شعر متماوجة، ورجل ضخم البنية في سترة جلدية بنية اللون بياقة من الفرو، وله شارب ضخم وسالفان طويلان، بالإضافة إلى امرأة شابة واضعة طفلها الرضيع النائم في حمالة مشدودة إلى صدرها. هؤلاء كانوا يحيطون به، ولا أحد سواهم. قرأ شعارًا بين الشعارات المناوئة للتسلح النووي، مكتوبًا على لوحة صغيرة:

يوب: ها هم هنا

لفت انتباه «بيتر» إلى الشعار، وأخبره من يكون «يوب»(*). أعلن من مكبرات الصوت أن ألفي حافلة وصلت إلى أمستردام خلال نصف الساعة الأخير، ما يعني مائة ألف متظاهر آخر. هتاف، وتصفيق. ثم أعلن الصوت نفسه أن آلاف الناس ما زالوا يتوافدون من المحطة، بعد أن وصلوا إليها في قطارات إضافية. كانت كل الشوارع المؤدية إلى «ميدان المتحف» قد سدتها الجماهير. قال «أنطون» في نفسه: ولكن أليست لهذه المكبرات التي تضخم صوت الإنسان هذا التضخم كله، علاقة وثيقة بوجود التجارب النووية؟ لا هذه ولا تلك كانت من الأمور الممكنة قبل أربعين سنة. ما يحدث في العالم قد يكون أكثر فظاعة وتعقيدًا مما يظنه الجميع.

لم يستطع أن يعرف كم من الوقت مضى وهو واقف هناك. التقى «بيتر» بأحد رفاقه في المدرسة، فاستأذنه بالانصراف واختفى عن ناظريه. تذكر «أنطون» لحظة، لم تدم طويلًا، الملاجئ التي أقيمت هنا ذات يوم، و«نادي الجيش الألماني» والمؤسسات الألمانية في الفيلات المحيطة به. الآن تتمركز مكانها القنصلية الأمريكية، والمفوضية التجارية الروسية، والمصرف الفرنسي «سوسييته جنرال». تعالت هتافات الإعجاب ببعض السياسيين وأصوات الصفير والاستهجان حيال بعضهم الآخر، ثم دبت الحركة أخيرًا في الحشود التي أخذت تسير خطوة خطوة. بدا من الواضح أن الطريق المقرر أن تسير فيه المظاهرة لا يستطيع استيعاب هذه الجماهير كلها، فقد بدأت

(*) وزير الدفاع الهولندي بين ٤ نوفمبر ١٩٨٢ و١٤ يوليو ١٩٨٦. (المترجمة).

مظاهرات عديدة تدخل مركز المدينة من جهات مختلفة. كانت قد سيطرت على «أنطون» حالة غريبة من النشوة من دون إثارة، حالة أقرب إلى الحلم عاشها في زمن بعيد بعيد، قبل الحرب. لم يعد وحيدًا، بل واحدًا من هؤلاء الناس كلهم، الذين يخيم عليهم هدوء عظيم على الرغم من الصخب والضوضاء. بدا كل شيء مختلفًا بفضل وجودهم: ليس هو نفسه فحسب، بل أيضًا المنازل التي ترفرف على نوافذها الملاءات البيضاء هنا وهناك، مثل مدينة في حالة استسلام، والغيوم الرمادية العابرة، والرياح التي تؤرجح المنفاخ الأسود ذا الشكل الصاروخي ذات اليمين وذات الشمال، وتجعله يخر بين الفينة والأخرى فيعود وينتصب في الحال:

شكرًا على المستقبل

في زاوية الساحة اصطدمت المظاهرة بتيار عريض من الناس الذين يريدون الوصول إلى مركز التظاهر. أخذ الجميع يفسح الطريق للجميع وهو يعتذر ويضحك برود ولطف. لم يستطع «أنطون» أن يتمالك نفسه. الناس ليسوا قساة، ولم يصبحوا قساة، كما كان يظن، فهؤلاء ليسوا هكذا، أم أن هؤلاء وحدهم ليسوا هكذا؟ يجب عليه أن يشكر السيد «فان ليبب» على إشراكه في هذه المظاهرة. أخذ يمشي على رؤوس أصابعه ويجيل بصره في ما حوله. رأى «ساندرا» فجأة، فناداها بصوت عالٍ. لوح كل منهما بيده وغيَّر اتجاه سيره نحو الآخر.

هتفت «ساندرا» من بُعد:

- لا أصدق عيني! عظيم يا أبي!

طبعت قبلة على خده، وشابكت ذراعها بذراعه:

ـ ما الذي حدث معك؟

ـ اعتقد أنني الوحيد الذي جاء مرغمًا إلى هذه المظاهرة، لكنني الآن أشارك فيها عن طيب خاطر. مرحبًا «باستيان»!

صافح صديقها، وكان شابًا وسيمًا، يرتدي بنطالًا جينز فوق حذاء رياضي، وحول عنقه كوفية فلسطينية، وفي أذنه اليسرى حلق من ذهب. لم يكن «أنطون» يُكِنُّ له كثيرًا من الود، لكنه سيصبح أبًا لحفيده في المستقبل القريب. كانت «ساندرا» قد استأجرت غرفة، لكنها قبل بضعة أسابيع انتقلت للسكن معه، في منزل مهجور كان قد استولى عليه. بعد أن أخبرهما «أنطون» بما حدث معه بالضبط، قال «باستيان»:

ـ لا تظن أنك الوحيد الذي يسير هنا بناءً على أوامر. المكان يعج برجال الشرطة. انظر هناك.

كانت مجموعة من الجنود قد ظهرت والحشود تستقبلها بالترحاب والتصفيق. رأى «أنطون» الناس وهم لا يستطيعون كبح دموعهم عند رؤية البدلات العسكرية، والشبان والشابات وهم يرقصون في حلقة حول العساكر المبتهجين وكأنهم باقة ورد ثمينة. لم يفهم «أنطون» قصده:

- هل هؤلاء الشباب مرغمون على المشاركة؟!

والتقت عيناه بعيني امرأة كبيرة في السن بعض الشيء، تنظر إليه وكأنها تعرفه، فظن أنها مريضة من مرضاه، فأحنى لها رأسه إحناءة خفيفة.

أشار «باستيان» إلى رجل بسترة واقية من الريح يقوم بتصوير الجنود:

- لا يا أبله! أقصد ذاك! رجل الشرطة.

- هل أنت واثق من ذلك؟

- يجب أن نطيِّر تلك الكاميرا من يده.

قال «أنطون»:

- ماذا تنتظر؟ هيا افعل! فهم لا ينتظرون إلا مثل هذه الأفعال التي تفسد الأجواء.

قال «باستيان» بضحكة مراوغة أزعجت «أنطون» كثيرًا:

- بمصادفة مفتعلة طبعًا.

- بمصادفة مفتعلة! هل لك أن تتصرف مثل رجل مسؤول يرافق امرأة حاملًا؟ أريد أن أصبح جدًّا لحفيدي، لو تكرمت!

قالت «ساندرا» بنغمة:

- طيب! بدأنا من جديد.

ثم:

- إلى اللقاء يا أبي. سأتصل بك قريبًا.

- مع السلامة حبيبتي، كما تريدين. واتركي ذلك المنزل قبل أن تقتحمه الشرطة وتخرجكم بالقوة. مع السلامة يا «باستيان».

لم يكن شجارًا بمعنى الكلمة، بل تعبيرًا للمرة الألف عن انزعاج أحدهما من الآخر، حتى كاد أن يصبح من واجبات اللقاء.

لم يكن للسيد «فان ليب» أي أثر، ولا لـ«بيتر». أسلم نفسه للتيار السائر ببطء. كان رجال ونساء عجائز يقفون على شرفاتهم الصغيرة،

ويرفعون أيديهم الاثنتين راسمين بأصابعهم إشارات النصر، التي يتذكرونها من زمن الحرب. كانت فرق موسيقية تسير مع المتظاهرين، وعازفون آخرون يعزفون الموسيقى في كل مكان على الأرصفة من دون أن يطلبوا النقود ثمنًا لعزفهم. كان المجتمع كله قد رمى حبله على الغارب. كان أشخاص من جماعة «البانك» بجوارب طويلة سوداء، وسترات فضفاضة براقة مباعة من سوق السلع المستعملة، وشعور مصبوغة بالأصفر والبنفسجي، يرقصون بحماس وابتهاج فوق سطوح مواقف الترام، والناس الذين كانوا يخافونهم حتى ذلك الوقت يراقبونهم بحب ومودة. لم يكن أي شيء في هولندا يسير على منواله الطبيعي باستثناء الحياة في السماء. كانت طائرات الدعايات ترفرف منها لافتات تعلن أن لا سلام إلا مع المسيح. ومن يريد تحميض الصور الملونة خلال ساعة واحدة فقط، يستطيع الذهاب إلى شارع «كالفرسترات»، رقم المحل كذا. فوق سطح شاحنة مركونة، كان يجلس اثنان من الفتيان الشجعان، في الخامسة عشرة من العمر، وقد رفعا لافتة تعبر عن تفسيرهما الخاص لمظاهرة السلام:

القبلة الأولى على واشنطن

هناك كان الناس يضعون أيديهم على أفواههم ويتنحنحون بخجل واستحياء، ولكن كانت هناك أيضًا لافتات كُتبت عليها بالروسية كلمة «موسكو». رأى «أنطون» الحشود في البُعد وهي تخرج من الشوارع الفرعية كلها، وتتقاطع مع المسيرة التي يمشي فيها، أحيانًا في مكانين معًا. كان شيء غير معقول يحدث هناك، حتى لقد تفرق التيار السائر فيه إلى تيارات فرعية، إذ بدأ يرى في كل مرة أناسًا آخرين حوله. في

منتصف الطريق إلى شارع «استاد هاودر كاده»، ظهر رتل من أشخاص في ثياب تنكرية سوداء، في أيديهم شخاشيخ، وعلى بزاتهم السوداء مرسومة هياكل عظمية مشعة، مثل المصابين بالطاعون في القرون الوسطى، ودفعوه إلى جانب وهم يشقون طريقهم بسرعة إلى الأمام. اصطدم بشخص، فقدَّم إليه اعتذاره: كان الشخص هو المرأة التي رآها تتفرس فيه قبل قليل. ابتسمت في ارتباك، وسألته بتردد:

ـ «طوني»! هل تتذكرني؟

نظر إليها في اندهاش: امرأة قصيرة القامة، في نحو الستين من العمر، شعرها يكاد يكون أبيض اللون، وعيناها ذواتا اللون الفاتح جدًا جاحظتان بعض الشيء خلف زجاج نظارتها السميك.

ـ لا تؤاخذيني، لا أستطيع أن...

ـ أنا «كارين». «كارين كورتيفيخ». جارتك في «هارلم».

٢

في أول الأمر، بومضة برق، تحولت المرأة الشقراء الفارعة من منزل «فوق الخيال»، إلى عجوز نحيلة واقفة بجانبه، وفي ثاني الأمر تولته حيرة وارتباك.

قالت سريعًا:

- إذا كنت لا ترغب في الحديث معي، قل لي ذلك، سأغادر في الحال.

تلعثم:

- لا... نعم... يجب عليَّ فقط أن... أنا تفاجأت.

- كنت قد رأيتك منذ وقت طويل، لكنك لو لم تصطدم بي، لما بادرت بالحديث إليك. هذا أكيد.

ورفعت إليه عينيها مناشدة العفو.

حاول «أنطون» أن يستعيد رباطة جأشه. ارتعش لحظة، فقد عادت تلك الليلة اللعينة من ليالي الحرب إلى الظهور فجأة، مثل ظل داكن بارد يمر فوق الشاطئ في يوم صيفي دافئ.

قال:

ـ لا، لا عليك، ما دمنا نسير هنا.

قالت:

ـ يبدو أنها مشيئة الأقدار...

وأخرجت سيجارة من حقيبتها التي تحوي علبة سجائرها المفتوحة. استنشقت الشعلة من راحة يده، ونظرت إليه:

ـ أن نلتقي في مظاهرة السلام هذه بالذات.

يبدو أنها مشيئة الأقدار! ووضع القداحة في جيبه وقد أظلمت الدنيا في عينيه وسرح خاطره: ولكن عندما سقط «بلوخ» أمام منزلكم، لم يبدُ حينذاك أنها مشيئة الأقدار! شعر بالمرارة القديمة تتصاعد من قرارة نفسه، مرارة العلقم التي لا تزول: وكأنها كانت مشيئة الأقدار أن يكون أمام منزلهم هم. سار إلى جوارها خطوة خطوة وهو يشعر بالغثيان. كان بوسعه أن يغادرها بسهولة، لكنه كان يعرف أيضًا أن معاناة هذه المرأة التي تسير بجانبه قد تكون أكبر من معاناته.

قالت «كارين»:

ـ عرفتك مباشرة قبل قليل. لقد أصبحت بطول أبيك، وشاب شعرك، لكنك بطريقة أو بأخرى لم تتغير أبدًا.

ـ سمعتُ هذا الأمر كثيرًا. لا أعرف إذا كان شيئًا جيدًا أم لا.

ـ كنت أحس دائمًا بأنني سألقاك في يوم من الأيام. هل تقيم في أمستردام؟

ـ أجل.

ـ أنا أقيم في «آيندهوفن» منذ بضع سنين.

حين بقي صامتًا، سألت:
ـ ماذا تعمل يا «طوني»؟
ـ أنا طبيب تخدير.
فقالت باندهاش، كما لو أنها تمنت على الدوام أن يزاول هذه المهنة:
ـ حقًّا؟!
ـ حقًّا. وأنت؟ أما زلت تعملين في التمريض؟
بدا وكأن التفكير بنفسها قد كدَّر صفوها.
ـ تركت التمريض منذ أمد بعيد. أقمت خارج البلاد زمنًا طويلًا. هناك عملت مع الأولاد ذوي السلوكيات الصعبة. بعد عودتي عملت أيضًا في ذلك المجال بضع سنوات، لكنني الآن أعيش من الإعانة الاجتماعية. أنا لست في صحة جيدة.
سألت فجأة وقد استعادت نبرتها المتحمسة:
ـ هل كانت تلك ابنتك؟ تلك الفتاة التي كنت تتحدث معها قبل قليل؟
أجاب «أنطون» على مضض:
ـ أجل.
شعر بأنه ليس لها علاقة بذلك الجزء من حياته، فوجوده حدث رغمًا عنها، وليس بفضلها.
ـ هل تعرف أنها تشبه أمك؟ كم عمرها؟
ـ تسع عشرة سنة.
ـ إنها حلى، أليس كذلك؟ تستطيع أن ترى ذلك من عينيها أكثر

منه من بطنها. هل عندك أولاد آخرون؟

ـ عندي ولد من زوجتي الثانية.

وجال ببصره على ما حوله:

ـ إنه هنا في مكان ما.

ـ ما اسمه؟

قال «أنطون»:

ـ «بيتر».

ونظر إلى «كارين»:

ـ إنه في الثانية عشرة من عمره.

لاحظ عليها أنها جفلت، فسألها من أجل أن يساعدها على التخلص من ارتباكها:

ـ هل عندك أولاد؟

هزت «كارين» رأسها بلا، وراحت تحدق في ظهر المرأة السائرة أمامها، التي تدفع رجلًا عجوزًا في كرسي متحرك.

ـ أنا لم أتزوج.

ـ أما يزال أبوك على قيد الحياة؟

بينما «أنطون» يطرح هذا السؤال، لاحظ أن سؤاله يتضمن سخرية لم يكن يتعمدها.

عادت وهزت رأسها بالنفي.

ـ لقد مات منذ زمن بعيد.

لزما الصمت وهما يسيران جنبًا إلى جنب بين الحشود. كانت الجماهير قد توقفت برهة عن ترديد الشعارات، وما زالت الموسيقى

تصدح بالأنغام في كل مكان، ولكن في جوارهما لم يكن أحد يتفوه ببنت شفة. شعر أن «كارين» تريد أن تتحدث عن الموضوع، لكنها لا تجرؤ على فتحه. «بيتر»... في السابعة عشرة من عمره إلى أبد الآبدين، لو بقي على قيد الحياة، لكان الآن في الرابعة والخمسين من العمر. أدرك من خلال حسابه لسنوات عمره هذه، أكثر منه لسنوات عمره هو نفسه، كم من وقت طويل مضى على تلك الليلة. وكذلك من خلال هذه المرأة، الصبية-الشائخة، التي تسير إلى جانبه، التي استثارت مشاعره الجنسية في يوم من الأيام، لكن ساقيها الجميلتين الشبيهتين بخطي الانسياب في جناحي الطائرة، قد اكتسبتا ملامح عمرها الهزيلة، النحيلة. لعلها كانت آخر شخص رآه «بيتر». قال في هيئة كاتب يتولاه الخوف والارتياح في الوقت نفسه، إذ يعلم أنه وصل إلى كتابة الجزء الأخير من كتابه:

- اسمعي يا «كارين». دعينا لا نلف ولا ندور حول الموضوع. أنت تريدين أن تحدثي عنه وأنا أريد سماعه. ماذا حدث بالضبط في تلك الليلة؟ هل هرب «بيتر» إلى بيتكم؟

أحنت رأسها بنعم، ثم قالت بصوت منخفض من دون أن تحوّل عينيها عن ظهر الشخص السائر أمامها:

- ظننت أنه جاء ليقتلنا، بسبب ما فعلناه.

ألقت عليه نظرة خاطفة:

- كان في يده مسدس.

- مسدس «بلوخ».

- أجل، سمعت ذلك فيما بعد. رأيناه في الغرفة فجأة. كان في

ـ حالة مرعبة. لم نكن قد أشعلنا سوى فانوس الزيت، لكنني رأيته خارجًا عن طوره.

ازدردت لعابها قبل أن تتابع:

ـ قال لنا إننا أنذال، وإنه جاء ليقتلنا. كان حائرًا ولا يعرف ماذا يفعل. كان الألمان يلاحقونه، ولم يكن بوسعه أن يخرج من المنزل. قلت له أن يتخلص من ذلك المسدس على الفور، واقترحت أن نخبئه في مكان ما، لأنهم لو جاءوا بعد قليل، يمكن أن يظنوه هو القاتل.

ـ وماذا قال؟

رفعت «كارين» كتفيها.

ـ أظن أنه لم يكن يسمعني حتى. كان واقفًا هناك وهو يلوح بالمسدس ويصغي إلى الأصوات في خارج المنزل. وقال لي أبي أن أسكت.

كان «أنطون» يسير بخطوات وئيدة، مشبكًا إحدى يديه مع الأخرى على ظهره، ومحدقًا أمامه، فقطب حاجبيه:

ـ لماذا؟

ـ لا أعرف. لم أسأله عن السبب، ولم يرغب فيما بعد أن يتحدث عن تلك الليلة.

سكتت لحظة، ثم قالت:

ـ لكنهم رأوا «بيتر» وهو يدخل بيتنا، توقعنا أن يفتشوا البيت ويعثروا على المسدس، ومن ثمّ يقومون بتصفيتنا كشركاء له في قتل «بلوخ». كانت الأمور تسير على هذا النحو في ذلك

الوقت، أليس كذلك؟ فهم لم يكونوا ليتحروا أولًا عن أمر ذلك المسدس.

قال «أنطون» بتمهل:

ـ تقصدين أن والدك رأى من مصلحتكما أن يراكما الألمان تحت تهديد الشخص الذي يمكن أن يظنوه هو القاتل.

وحين أحنت «كارين» رأسها إحناءة خفيفة لا تكاد تُلاحظ، قال:

ـ لكنه أثبت لهم بذلك أنه القاتل فعلًا.

لم تعقب «كارين». كانا يسيران خطوة خطوة مع النهر البطيء. ظهرت من شارع فرعي مجموعة من الشباب حليقي الرؤوس، البالغين نحو السادسة عشرة من العمر، وقد ارتدوا سترات من الجلد الأسود، وبناطيل سوداء، وأحذية سوداء ذات رقاب طويلة وكعاب من الحديد، وأخذوا يشقون صفوف الجماهير من دون أن ينظروا إلى أحد منهم، واختفوا فوق الجسر المقام على الناحية الأخرى.

سأل «أنطون»:

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

أجابت:

ـ وصل كل ذلك الجيش إلى رصيف القناة بعد برهة قصيرة. لا أتذكر بالضبط كم من الوقت مضى قبل وصولهم. كنت خائفة جدًّا، كان «بيتر» موجهًا ذلك السلاح الحقير إلينا، وسمعنا فجأة من الشارع ذلك الضجيج والصراخ كله. لم أكن أعرف ما الذي كان ينوي القيام به، وأظن أنه هو نفسه لم يكن يعرف.

لكنني على شبه يقين من أنه كان يعرف أنه ضاع إلى الأبد، حتى لقد تساءلت كثيرًا لماذا لم يقتلنا حينذاك، فهو لم يكن لديه ما يخسره في تلك اللحظة. لعله أدرك، على الرغم من كل شيء، ان الذنب ليس ذنبنا في آخر الأمر، أقصد...

ورفعت إليه عينيها لترى هل باستطاعتها أن تقول ما تريد قوله:

ـ أقصد أن تلك الجثة لم تكن تخصنا أكثر مما كانت تخصكم أنتم أو أي أحد آخر. رأيته وهو يريد أن يعيدها لعندنا، و...

قاطعها «أنطون»:

ـ لست متأكدًا من هذا، ربما كان يريد أن يضعها عند آل «بويمر». أنت تعرفين السيد «بويمر» وزوجته: كانا عجوزين. ربما كان أبوك سيشتبك معه بالأيدي.

تنهدت «كارين» ومررت يديها على وجهها. ألقت نظرة يائسة على «أنطون»، فرأى عليها أنها تعرف أنه يريد سماع ما حدث بعد ذلك، لكنه لن يطلب منها أن تخبره به. نظرت بحركة سريعة من رأسها إلى الطرف الآخر، كما لو أنها تبحث عمن يقدم إليها يد العون. حين لم تجد ما تبحث عنه، قالت:

ـ آه يا «طوني». لا بد أنه كان هناك شق في ستارة التعتيم المسدلة على الباب الزجاجي، استطاعوا أن يروه من خلاله واقفًا بالمسدس. فجأة أطلقوا رصاصة عبر الزجاج. ارتميتُ على الأرض، لكنني أظن أنهم أصابوه على الفور. ثم كسروا الباب، ووجهوا بنادقهم إلى الأرض وأطلقوا عليه بضع رصاصات أخرى، كما لو أنهم يطلقون على حيوان.

«ألا يستطيع إله الشمس أن يحدد سبب هذا الخراب؟» هذا هو الجواب إذن. ألقى «أنطون» رأسه إلى الوراء، وتنفس تنفسًا عميقًا وهو ينظر إلى الخرقة المرفرفة وراء طائرة الدعايات من دون أن يبصرها. كانت مظاهرة السلام، التي يمشي فيها، أبعد كثيرًا من تلك الحادثة التي وقعت قبل ستة وثلاثين عامًا، ولم يكن موجودًا أثناء حدوثها في تلك الغرفة، التي كان يلعب فيها لعبة النرد مع «كارين»، وقُتل فيها «بيتر» من خلال شق في ستارة التعتيم.

سأل:

ـ ماذا حدث بعد ذلك؟

ـ لا أتذكر تمامًا.

سمع من نبرة صوتها أنها تبكي، لكنه لم ينظر إليها.

ـ لم أستطع أن أنظر مرة أخرى. جرجرونا إلى الحديقة على الفور، كما لو أن مخاطر أخرى كانت تهددنا. أعتقد أننا وقفنا وقتًا طويلًا في البرد. لا أتذكر سوى صوت تساقط الزجاج، عندما كسروا الشبابيك عندكم. جاء ألمان آخرون، وأخذوا يدخلون المنزل ويخرجون منه. ثم اقتادونا عبر الأراضي التي كانت تقف فيها سيارات أيضًا، وأخذونا إلى «مركز قيادة المدينة»، لكنني سمعتُ من بعيد ذلك الدوي الرهيب، عندما فجروا بيتكم.

اختنق صوتها. تذكر «أنطون» أنه رأى السيد «كورتيفيخ» في «مركز قيادة المدينة» وهو يقطع أحد الممرات، وكوب الحليب الساخن، والسندويتشات المدهونة بـ«شمالتس». انقلب كيانه رأسًا على عقب، مثل غرفة أحدث فيها اللصوص فوضى، ولكن في الوقت

نفسه هفت نسمة من السعادة على قلبه عند استرجاعه هذه الذكرى، بيد أنها اختفت على الفور عندما خطرت على باله صورة «شولتس» وهو يُدار على ظهره عند درجة الصعود إلى الشاحنة. أغمض عينيه بقوة ثم فتحهما على اتساعهما.

ـ هل حققوا معكما؟

ـ حققوا معي على انفراد.

ـ وهل قلت ما الذي حدث بالضبط؟

ـ أجل.

ـ ماذا قالوا، عندما سمعوا أن «بيتر» لم تكن له علاقة بشيء؟

ـ رفعوا أكتافهم. قالوا إنهم كانوا يعتقدون ذلك، لأن المسدس كان مسدس «بلوخ»، وكانوا قد ألقوا القبض على شخص آخر، فتاة شابة، حسبما فهمت.

قال «أنطون»:

ـ أجل، لقد سمعت ذلك أنا أيضًا.

وخطا أربع خطوات قبل أن يقول:

ـ شخص من نفس عمرك.

فكر لحظة. الآن يجب أن يعرف كل شيء، ثم يدفنه إلى الأبد، ويقلب عليه صخرة ولا يعود إلى التفكير فيه قط. قال:

ـ ثمة شيء لا أفهمه. لقد رأوا «بيتر» يهددكما بذلك المسدس، ألم يسألوا لماذا كان يفعل ذلك؟

ـ بلى.

ـ وماذا قلت لهم؟

ـ الحقيقة.

لم يعرف هل يصدقها أم لا، لكنها من ناحية أخرى لم تكن تعرف في تلك اللحظة بعد، أن والديه لم يعد بمقدورهما قول الحقيقة. كما أنه هو نفسه كان يستطيع أن يخبرهم بها، لكن ما من أحد ألقى عليه سؤالًا في هذا الشأن.

ـ قلت إذن إن «بلوخ» سقط أمام بابكم؟

ـ أجل.

ـ وإنكما وضعتماه عندنا؟

أحنت رأسها بنعم. لعلها كانت تظن أنه يريد أن يدفِّعها ثمن ما فعلت، لكن الأمر لم يكن كذلك. مضت نصف دقيقة من دون أن ينبس أي منهما ببنت شفة. كانا يسيران جنبًا إلى جنب في المظاهرة، وليس في المظاهرة.

سأل «أنطون»:

ـ ألم تخافي أن يحرقوا منزلكم أيضًا؟

أجابت «كارين» وكأنها كانت تنتظر هذا السؤال:

ـ ليتهم فعلوا! أنت لا تعرف كيف كان شعوري بعد كل ما حدث. لو فعلوا ذلك، لعشت حياة غير التي عشتها. في تلك اللحظة تمنيت أن يقتلوني أو أن يقتلني «بيتر».

أحس «أنطون» بأنها تعني ما تقول. انتابته رغبة في أن يضع يده على كتفها، لكنه أحجم.

ـ ماذا قالوا حين سمعوا ذلك؟ وهل كان قائد المركز موجودًا أيضًا؟

ـ وكيف لي أن أعرف؟ كان المحقق ألمانيًا في لباس مدني. في البداية...

ـ هل كانت له ندبة على وجهه؟

ـ ندبة؟ لا أظن ذلك. لماذا؟

ـ تابعي.

ـ في البداية قال من دون أن يرفع عينيه عن أوراقه: «لا يهمني أن أعرف مَن فعل ماذا». إنني لا أزال أتذكر ذلك جيدًا، ثم وضع قلمه على المكتب، وعقد ذراعيه على صدره، وحدق فيَّ برهة من الزمن، ثم قال باحترام شديد: «تهانينا».

اعترت «أنطون» رغبة في أن يهنئها بدوره على تلك التهنئة، لكنه كبح رغبته.

ـ هل أخبرت والدك بذلك؟

أجابت «كارين» بصوت يكاد يكون حالمًا:

ـ لم يعلم قط بما أدليت به من معلومات، ولا علمتُ بما أدلى به هو. لم يرَ أحدنا الآخر إلا في صباح اليوم التالي، حين سمحوا لنا بالذهاب إلى البيت. قبل أن أستطيع التفوه بأي شيء، قال: ««كارين»، لن نتكلم عن هذا الموضوع أبدًا، مفهوم؟».

ـ وهل فهمت؟

ـ لم يقل كلمة واحدة عن ذلك الموضوع، طوال حياته كلها، حتى عندما عدنا إلى البيت، ورأينا تلك الأنقاض المحترقة، وسمعنا من السيدة «بويمر»... أعني، أن والدك أيضًا... ووالدتك... كانت المرأة التي تدفع الرجل المقعد في الكرسي المتحرك قد

اختفت، أخذها التيار الذي سلك مجرى آخر. تصاعد صوت امرأة من مكبرات الصوت وهي تقود الجماهير في إطلاق الشعارات المرفقة بالتصفيق، لكن الأصوات غير المضخَّمة كانت تختفي في العدم. كان معظم الناس يسيرون في صمت، وكأنهم يسيرون وراء نعش إنسان عزيز عليهم. كان الناس يقفون في كل مكان على الأرصفة ويراقبون الموكب العابر بهم. ثمة اختلاف بين السائرين والمراقبين، اختلاف من نوع بارد، له علاقة بالحرب.

قال «أنطون»:

- ذهبت لزيارة آل «بويمر» بعد الحرب ببضع سنوات. سمعت هناك أنكما انتقلتما إلى مكان آخر بُعيد الحرب.

- هاجرنا. إلى نيوزيلاندا.

- نيوزيلاندا؟!

قالت «كارين»:

- أجل.

ورفعت بصرها إليه:

- لأنه كان خائفًا منك.

قال «أنطون» بضحكة قصيرة:

- مني أنا؟!

- قال إنه يريد أن يبدأ حياة جديدة، لكنني أظن أنه كان يريد تجنب اللقاء بك. منذ اليوم الأول من التحرير بدأ يعمل كل ما في وسعه من أجل المغادرة. أجزم أنه كان يخاف من انتقامك منه ومني بعد أن تكبر.

قال «أنطون»:

- أتظنين أنني كنت سأقدم على الانتقام؟! ذلك لم يخطر ببالي حتى!

- ولكن خطر بباله. بعد التحرير ببضعة أيام جاء خالك عندنا، ولكن عندما عرَّف نفسه، أغلق والدي الباب في وجهه على الفور. منذ تلك اللحظة لم يعد ينعم بهدوء البال. بعد ذلك ببضعة أسابيع انتقلنا إلى بيت عمتي في «روتردام». لأنه كانت لديه علاقات عديدة في ميناء «روتردام» من أيام عمله، استطعنا المغادرة في سفينة تجارية قبل نهاية تلك السنة. أظن أننا كنا أول المهاجرين الهولنديين في نيوزيلاندا.

رمقته فجأة بنظرة غريبة باردة، وقالت:

- انتحر هناك، في عام ١٩٤٨.

تلقى «أنطون» هذا الخبر بفزع، لكن فزعه ما لبث أن تحول إلى شعور بالقبول وشفاء الغليل، وكأنه أخذ بثأره فعلًا في هذه اللحظة. كان قاتل «بيتر» قد لقي جزاءه قبل ثلاثة وثلاثين عامًا. ماذا سيكون موقف «تاكيس» من هذا يا ترى؟ بعد ثلاث سنوات من إطلاقه الرصاص، سقط قتيلٌ آخر.

سأل:

- لماذا؟

- ماذا قلت؟

- لماذا انتحر؟ ما فعله في تلك الليلة كان بدافع البقاء على قيد الحياة، أليس كذلك؟ وربما من أجل حمايتك في المقام الأول، ثم إنه لم يفعل سوى أن قدَّم يد العون للمصادفة.

كانت عرقلة سير قد حدثت في مكان ما، فقد اضطرا إلى التوقف عن السير على نحو شبه كامل. هزت «كارين» رأسها بالنفي.

سأل «أنطون»:

- لا؟

- لم يكن يخطر في بال أحد أنهم سيقتلون السكان أيضًا، فهم لم يفعلوا ذلك من قبل. باتت حياتنا في مهب الريح، عندما جاء «بيتر» إلى عندنا بذلك المسدس.

- لم أفهم بعد. تقصدين أنه كان يفضّل فقط أن يضرموا النار في بيتنا بدلًا من بيته؟ حسنًا! هذا ليس بالأمر الحسن لكنه مفهوم. إنه لم يتوقع أن تخرج الأمور عن السيطرة، ولم يقصد أن يتسبب في سقوط قتلى، أليس كذلك. أستطيع أن أتصور أنه كان يعاني من تأنيب الضمير، أو أنه كان خائفًا... ولكن انتحار؟

رأى «كارين» تزدرد لعابها.

قالت:

- «طوني»! هناك شيء آخر يجب أن أخبرك به.

توقفت عن السير، لكنها اضطرت أن تخطو خطوة إلى الأمام:

- حين سمعنا دوي تلك الطلقات، ورأينا «بلوخ» ممددًا أمام بيتنا، قال شيئًا واحدًا فقط: «يا إلهي، السحالي!».

نظر «أنطون» من فوق رأسها بعينين متسعتين. السحالي! هل هذا معقول؟ هل حدث ذلك بسبب السحالي؟ هل الذنب هو ذنب السحالي في آخر الأمر؟

سأل:

ـ هل تقصدين أنه لولا تلك السحالي، لما حدث ما حدث؟

التقطت «كارين» شعرة من فوق كتفه وقد استغرقت في أفكارها، ورمتها على الأرض بفركها بين إبهامها وسبابتها.

ـ لم أفهم أبدًا ما الذي كانت تعنيه له تلك السحالي. شيء له علاقة بالأبدية والخلود، شيء له علاقة بسر غامض كان يراه فيها بطريقة أو بأخرى. لا أعرف كيف أعبِّر عن ذلك... مثل الأطفال الصغار، فهم أيضًا لديهم سر على الدوام. كان يجلس ساعات طويلة ويتأملها في جمود شبيه بجمودها هي نفسها. أظن أن ذلك كانت له علاقة بموت أمي، ولكن لا تسألني كيف، فأنا لا أعلم. لو تعرف كم بذل من العناء في سبيل إبقائها على قيد الحياة في شتاء المجاعة، لم يعد يهتم بشيء في هذه الدنيا سوى الاعتناء بها. لعل حبه لتلك الحيوانات كان يفوق حبه لي. كانت الشيء الوحيد الذي يربطه بالحياة.

توقف الموكب عن السير تمامًا. انسد الطريق بسبب انضمام المظاهرات المتفرقة إلى المظاهرة الرئيسية. كانا قد وقفا خلف لافتة عريضة مرتخية، تمنعهما من رؤية ما يحدث في الصفوف الأمامية.

تابعت «كارين»:

ـ لكن بعد أن وقعت الفأس بالرأس. بعد أن مات «بيتر» ووالداك، يبدو أنها تحولت فجأة إلى سحالي عادية بالنسبة إليه، إلى مجرد حيوانات. ما إن عدنا من «مركز قيادة المدينة»، حتى أخذ يرفسها ويركلها إلى أن قضى عليها جميعها. سمعته من الطابق العلوي

وهو يهاجمها مثل المجنون. ثم أقفل باب الغرفة ولم يسمح لي بالدخول إليها. لم يدخلها هو نفسه إلا بعد انقضاء أسابيع، وعند ذاك نظف الأوساخ ودفن ما تبقى منها في الحديقة.

أومأت «كارين» إيماءة مَن ليس متأكدًا من رأيه:

ـ لعله لم يستطع أن يواجه إحساسه بأن ثلاثة أشخاص قد قضوا نحبهم نتيجة حبه لعدد من الزواحف. وأنك ستقتله بسبب ذلك، عندما تواتيك الفرصة.

قال «أنطون»:

ـ كيف، وأنا لم أكن أعرف ذلك؟

ـ لكنني كنت أعرف. وكان يعرف أنني أعرف. لذلك أخذني معه بالقوة إلى الجهة الأخرى من الكرة الأرضية، على الرغم من أنني لم أكن أريد ذلك على الإطلاق. لكنه في نهاية الأمر لم يكن بحاجة إليك لتقتله. كنتَ تعيش في داخله.

شعر «أنطون» بالاشمئزاز. كادت هذه الاعترافات أن تكون أفظع من الواقع. نظر إلى وجه «كارين» الذي لا يزال مبتلًا بالدموع التي انهمرت من عينيها قبل قليل. يجب أن يغادرها ولا يعود إلى رؤيتها قط، لكن ثمة شيئًا آخر يجب أن يعرفه. كانت ما تزال تتكلم، ولكن بالكاد معه:

ـ كان رجلًا تعيسًا. في الأوقات التي لم يكن مشغولًا فيها بالسحالي، كان يحدق في الخرائط، في الطريق إلى «مورمانسك»، والقوافل الأمريكية... كان يبلغ من العمر ما لا يسمح له بمحاولة اللجوء إلى إنجلترا، لذلك...

قال «أنطون»:

ـ «كارين»!

أمسكت عن الكلام ونظرت إليه.

ـ كنتما جالسين في البيت، وسمعتما دوي تلك الطلقات. وعندما رأيتما «بلوخ» ممددًا على الأرض، خرجتما لكي تنقلاه إلى مكان آخر، أليس كذلك؟

ـ أجل. أبي باغتني بذلك القرار. لقد اتخذه خلال ثانية واحدة فقط.

ـ اسمعي. لقد حمله كل منكما من طرف: أبوك من كتفيه، وأنت من قدميه.

ـ هل رأيت ذلك؟

ـ هذا ليس بالأمر المهم. أريد أن أعرف شيئًا واحدًا فقط: لماذا وضعتماه عندنا، وليس عند آل «آرتس»، على الجهة الأخرى؟

أجابت «كارين» في انفعال مفاجئ وهي تضع يدها على ذراع «أنطون»:

ـ أردت ذلك! أردت ذلك! رأيت من البديهي ألا نضعه عندكم، عندك أنت و«بيتر»، بل عند آل «آرتس» الذين كانوا شخصين فقط، ولم أكن أعرفهما على الإطلاق. حتى لقد خطوت خطوة باتجاههما، لكن أبي قال: «لا، ليس إلى ذلك المكان، هناك يختبئ يهود».

صاح «أنطون» وهو يمسك رأسه:

ـ يا يسوع!

ـ أجل، أنا أيضًا لم أكن أعرف ذلك، لكن والدي كان يعرف

على ما يبدو. كانت أسرة شابة بطفل صغير تختبئ هناك منذ سنة ١٩٤٣. رأيتهم لأول مرة في يوم التحرير. لو وضعنا جثة «بلوخ» هناك، لقُتل أولئك الأشخاص في كل الأحوال. لا بد أنهم رأوا ما فعلناه، لكنهم لم يعرفوا ما الذي حدث بالضبط.

السيد «آرتس» وزوجته، اللذان كان الجميع يمقتهما لأنهما لم يكونا يعاشران أحدًا، أنقذا حياة ثلاثة أشخاص من اليهود، وأنقذ أولئك اليهود حياتهما، بإقامتهم عندهما! على الرغم من كل شيء كان السيد «كورتيفيخ» إنسانًا فاضلًا! لذلك وضع جثة «بلوخ» على الجهة الأخرى، عندهم، ولذلك... لم يعد «أنطون» يتحمل المزيد.

قال:

ـ وداعًا يا «كارين». لا تؤاخذيني، أنا... أتمنى لك التوفيق.

ومن دون أن ينتظر جوابها، تحول عنها تاركًا إياها في يأس وراءه، وأخذ يشق طريقه بين الناس، متخذًا سبلًا متعرجة وملتوية، كأنما ليضمن ألا تعثر عليه مرة أخرى.

٤

مضت برهة من الزمن قبل أن يستعيد رباطة جأشه، ولكن ذلك لم يدم طويلًا. وصل إلى جزء من المظاهرة ما يزال يتحرك، أو أخذ يتحرك من جديد، فترك نفسه ينساق مع الجماهير. بدا وكأن مئات الآلاف من هؤلاء الناس يقدمون له يد العون، هذا التدفق اللانهائي من الحشود البشرية، التي يراها أمامه وخلفه فوق الجسور المقامة على القنوات المائية، وما تزال تغذيه روافد من حشود ضخمة تظهر من الشوارع الفرعية. فجأة أحس بيد في يده. كان «بيتر» وقد رفع عينيه إليه بوجه ضاحك. بادله الضحك، لكنه بدأ يحس بحرقة في عينيه. انحنى فوقه وطبع قبلة على قمة رأسه الدافئة من دون أن ينبس ببنت شفة. أخذ «بيتر» يتحدث إليه، لكن «أنطون» لم يسمع من حديثه شيئًا.

هل الجميع مذنب وغير مذنب؟ هل الذنب بريء، والبراءة مذنبة؟ ثلاثة نفر من اليهود... لقد قُتل ستة ملايين منهم، أي ما يزيد على عدد السائرين هنا باثنتي عشرة مرة، ولكن أولئك الثلاثة الذين كانوا

معرّضين لخطر الموت أنقذوا حياة شخصين آخرين من الناس، وانقذوا أنفسهم من دون دراية منهم، وبدلًا عنهم لقي أبوه وأمه و«بيتر» مصرعهم، والسبب في ذلك يعود إلى السحالي.

قال:

ـ «بيتر»!

ولكن عندما رفع الصبي عينيه إليه، هز رأسه ضاحكًا، فرد «بيتر» على ضحكته بمثلها. في تلك اللحظة ورد إلى ذهنه: رعونة، طبعًا، رعونة! هذا هو جواب إله الشمس «رع» عن سبب الخراب.

حين وصلوا قرب كنيسة «فيستركيرك» وهم في طريقهم إلى ساحة «دام»، انطلقت فجأة أصوات الجماهير من مكان بعيد خلفهم بصرخة فظيعة أخذت تقترب منهم شيئًا فشيئًا. التفت الجميع في رعب: ما الذي يحدث هناك؟ لا ينبغي أن يحدث شيء الآن! كانت صرخة خوف بما لا يدع مجالًا للشك، لا تتوقف، بل تقترب شيئًا فشيئًا، حتى إذا ما بلغتهم ولم يحدث شيء، صرخ الجميع من دون كلام، وصرخ «بيتر» أيضًا، و«أنطون» أيضًا. بقيت الصرخة عندهم برهة قصيرة، ثم أكملت طريقها إلى الأمام وقد تركتهم وراءها ضاحكين، حتى إذا ما بلغت منعطف شارع «رادهاوس سترات»، خمدت وتلاشت. حاول «بيتر» إطلاق صرخة جديدة، لكن محاولته ذهبت أدراج الرياح. لكن بعد مضي بضع دقائق وصلت الصرخة مرة أخرى من الخلف، واجتازتهم من جديد، واختفت في البعد. أدرك «أنطون» أن الصرخة تجول المدينة كلها، كان أوائل المتظاهرين يعودون إلى «ميدان المتحف»، في حين لم يكن أواخرهم قد انطلقوا منها بعد،

كانت تجول في حركة دائرية، كان الجميع يصرخ ضاحكًا، لكنها كانت صرخة خوف، موجة عارمة فطرية من الأنام، عبرت عن نفسها من خلال هؤلاء الناس.



ولكن ماذا يهم؟ فكل شيء يؤول إلى النسيان. الصرخات تخمد، والأمواج تركد، والشوارع تقفر، وكل شيء يعود إلى السكون. ورجل ممشوق القامة يمشي مع ابنه يدًا في يد في مظاهرة. لقد «عاش الحرب» ويكاد يكون من أواخر مَن عاشوها. لقد أُرغم على المشاركة فيها، في هذه المظاهرة، فيلمع بريق في عينيه وكأنه يراها فكرة مضحكة. يميل برأسه بعض الشيء على كتفه، مثل شخص يسمع صوتًا من بعيد، وينساق مع الناس في شوارع المدينة صوب نقطة الانطلاق، ملقيًا شعره المسترسل الأشيب إلى الوراء بحركة خفيفة من رأسه، مجرجرًا حذاءيه على الأرض، فيبدوان وكأنهما يطلقان مع كل خطوة من خطواته سحابة من الرماد، رغم أنه لا يوجد أي رماد في أي مكان.

أمستردام، يناير ـ يوليو ١٩٨٢

الأعمال الكاملة

«التركيبة الخاصة بـ«موليش» ممتعة، مفاجئة، غريبة، داكنة، مجنونة، يؤديها بالقدر نفسه من الإصرار والسهولة»

«دي تسايت»

«إنه كتاب يُقرأ دفعة واحدة، بل يأبى أن تضعه جانبًا»

«لندن رفيو أوف بوكس»

في أواخر الحرب العالمية الثانية، وبينما هولندا ما زالت محتلة، تقتل مجموعة من المقاومين شرطيًا عميلًا، وتنتهي الجثة لسبب غامض أمام منزل عائلة «ستينفايك»، فيحرق الألمان المنزل ولا ينجو من العائلة إلا «أنطون»، ابن الاثني عشر عامًا... بعد ذلك بسنوات، يصبح «أنطون» طبيبًا يعيش حياة هادئة ويتعمد النسيان، إلا أن مصادفات الحياة وأزماتها ستعطيه خيوطا متفرقة تسمح له بإكمال صورة الحدث وإدراك عبثية الأقدار.

قصة تحبس الأنفاس، مشوقة مثل رواية بوليسية، ترسم ببراعة مذهلة التداخل الدقيق بين القدر والمصادفات، والقوة والضعف، والبراءة والذنب.

نالت رواية «الاعتداء» جائزة «ديبسيه برايز» في هولندا، وتحولت إلى فيلم سينمائي نال «أوسكار» أفضل فيلم أجنبي، وجائزة «جولدن جلوب» لأفضل فيلم بلغة أجنبية، وجائزة أفضل فيلم في «مهرجان سياتل الدولي للسينما» عام ١٩٨٦.

«هاري موليش» (١٩٢٧-٢٠١٠) روائي وكاتب مسرحي وشاعر هولندي، يُعدُّ من أفضل كُتاب هولندا المعاصرين. حققت أعماله شهرة واسعة، وتُرجمت إلى عديد من اللغات، ونال جوائز أدبية مرموقة، منها خمس جوائز على مجموع أعماله. «الاعتداء» هو أول أعماله التي تُترجم إلى العربية.



ISBN 978-977-6467-71-2

